السيرة النبوية المطهرة

وتاريخ الخلفاء الراشدين

أ.د/ مُحَمَّد سَيِّد كَامِل مُحَمَّد

رَئِيسُ قِسْمِ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ

كُلِّيَّةُ دَارِ الْعُلُومِ

جَامِعَةُ الْمِنْيَا

جُمْهُورِيَّةُ مِصْرَ الْعَرَبِيَّة



تَوْطِـئَةٌ

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ بَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ الْمَكْتَبَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ لَمْ تَشْكُ قِلَّةً فِي كُتُبِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ الطَّاهِرَة، بَلْ إِنَّ للسِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ فِي تَارِيخِ العَرَبِ الْحَظَّ الأَوْفَرَ مِنَ البُحوثِ وَالمُدَوَّنَاتِ، لَكِنَّهَا –مَعَ ذَلِكَ– لَمْ تَشْبَعْ وَلَمْ تَكْتَفِ، يَظَلُّ يُزَيِّنُ رُفُوفَهَا كُلُّ كِتَابٍ جَدِيدٍ يَحْكِي عَنْ أَشْرَفِ مَنْ وَطَأَتْ قَدَمَاهُ الأَرْضَ، وأجْمَلِ مَنْ أَنْجَبَتِ النِّسَاءُ، مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ أفْضَلُ الصَّلَوَاتِ وأَتَمُّ التَّسْلِيم..

إِنَّ أَقْرَأَ النَّاسِ فِي تَارِيخِ العَرَبِ والْمُسْلِمِينَ –بَلْ إِنَّ أَقْرَأَهُمْ فِي سِيرَةِ الحَبِيبِ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ– لَمْ يَشْعُرْ قَطُّ أَنَّهُ قَرَأَ مَا يَكْفِيه ويُرْضِي شَغَفَهُ ويُشْبِعُ نَهَمَهُ وَيُخْمِدُ شَوْقَهُ وتَشَوُّقَهُ لِمَعْرِفَةٍ أَكْثَرَ، بَلْ إِنَّهُ لَا يَمَلُّ أَبَدًا مِنْ قِرَاءَةِ حِكَايَاتٍ عَنْ حَبِيبِهِ مَهْمَا تَكَرَّرَ مِنْهَا مَا تَكَرَّرَ.. وَإِنَّهُ لَنْ يَشْبَعَ وَلَنْ يَكْتَفِي.

لَيْسَ ثَمَّ بَاحِثٌ –كَذَلِكَ– يَكْفِيهِ عُمُرُهُ لِلْانْتِهَاءِ مِنْ مَنْهَلَةٍ عَظِيمَةٍ كَهَذِه...

أَمَّا عَنِّي –مُكَلِّمَكَ وَرَفِيقَ رِحْلَتِكَ فِي هَذِهِ الصَّفْحَاتِ الَّتِي بَذَلْتُ مَا بِوِسْعِيَ لِأَجْلِ أَنْ أَفُوزَ لَكَ عَزِيزِي بِهَذِهِ الشَّرْبَةِ مِنْ نَهْرِ سِيرَتِهِ الْعَظِيمِ الْفَيَّاضِ، وَمِنْ بَيْنِ كُتَّابِ السِّيرَةِ وَمُؤَرِخِيهَا الَّذِينَ أَمْضَوْا سِنِينَهُمْ يَجُولُونَ عَلَى شَوَاطِئِهِ يَنْهَلُونَ– فَإِنِّي قَدْ حَاوَلْتُ الْإِلْمَامَ بِمَرَاحِلِ حَيَاةِ النَّبِي(ﷺ) وَتَسْلِيطَ الضَّوْءِ عَلَى أَشْهَرِ مَظَاهِرِهَا وَسِمَاتِها وأَبْرَزِ أَحْدَاثِها وَحِكايَاتِهَا؛ لَكِنِّي لَا أَظُنُّ أَنِّي أَلْمَمْتُ أَوِ اكْتَفَيْتُ، ولَا أظُنُّ أَنَّ هَدَفًا كَهَذَا قَابِلٌ لِلتَّحَقُّقِ؛ وَعَلَيْهِ فَإِنَّ هَذَا الْكِتَابَ لَنْ يَكُونَ الْأَخِيرَ لِي فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ –مَا دُمْتُ حَيًّا– إِنْ شَاءَ اللهُ.

آخِرُ مَا قَبْلَ الْبَدْءِ: أَتَقَدَّمُ بِالشُّكْرِ إِلَى الصَّدِيقِ الْأُسْتَاذِ/ بَاسِم إِمَام الَّذِي تَكَفَّلَ بِأَعْبَاءِ التَّدْقِيقِ اللُّغَوِيِّ لِهَذَا الْعَمَلِ، وَهُوَ جَهْدٌ شَاقٌّ؛ نَظَرًا لِإِصْرَارِيَ عَلَى خُرُوجِهِ بِالتَّشْكِيلِ لِكَافَّةِ حُرُوفِ الْعَمَلِ، وَهُوَ مَا قَامَ بِهِ بِشَكْلٍ مُمَيَّزٍ.

وَاللهُ الحَقُّ الْعَادِلُ مِنْ وَرَاءِ الْقَصْدِ

أ.د/ مُحَمَّد سَيِّد كَامِل مُحَمَّد

رَئِيسُ قِسْمِ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ- كُلِّيَّةُ دَارِ الْعُلُومِ

جَامِعَةُ الْمِنْيَا- جُمْهُورِيَّةُ مِصْرَ الْعَرَبِيَّة

٢٠١٦م

حَيَاةُ الرَّسُولِ(ﷺ) وَمَرْكَزُ عَشِيرَتِهِ فِي المُجْتَمَعِ المَكِّيِّ:

مَلَكَ الأحْبَاشُ اليَمَنَ بَعْدَ حُمَيْرٍ، وَلَمَّا صَارَ المُلْكُ فِيهَا إِلَى أَبْرَهَةَ الأَشْرَمِ، بَنَى كَنِيسَةً عَظِيمَةً بِصَنْعَاءَ يُقَالُ لَهَا "القُلَّيْس"، لَمْ يُرَ مِثْلَهَا فِي زَمَانِهَا، بَنَاهَا بِالرّخَامِ وَجَيِّدِ الخَشَبِ المُذَهَّبِ، وَقَصَدَ أَنْ يَصْرِفَ حَجَّ العَرَبِ إِلَيْهَا، ويُبْطِلَ الحَجَّ إِلَى الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ، إذْ كَتَبَ إِلَى النَّجَاشِيِّ: "إِنِّي قَدْ بَنَيْتُ لَكَ أَيُّهَا المَلِكُ كَنِيسَةً لَمْ يُبْنَ مِثْلُهَا لِمَلِكٍ كَانَ قَبْلَكَ، وَلَسْتُ بِمُنْتَهٍ حَتَّى أَصْرِفَ إِلَيْهَا حَجَّ العَرَبِ"، فَلَمَّا تَحَدَّثَتِ العَرَبُ بِذَلِكَ غَضِبَ رَجُلٌ مِنْ كِنَانَةَ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى القُلّيْس وَتَغَوَّطَ فِيهَا لَيْلًا، ثُمَّ خَرَجَ فَلَحِقَ بِأَرْضِهِ، فَلَمَّا أُخْبِرَ أَبْرَهَةُ بِذَلِكَ غَضِبَ، وقَالَ: "مَنْ صَنَعَ هَذَا؟"، فَقِيلَ لَهُ: "صَنَعَ هَذَا رَجُلَ مِنَ العَرَبِ مِنْ أَهْلِ هَذَا البَيْتِ الَّذِي تَحُجُّ العَرَبُ إِلَيْهِ بِمَكَّةَ، لَمَّا سَمِعَ قَوْلَكَ: "أَصْرِفَ إِلَيْهَا حَجَّ العَرَبِ"، فَحَلِفَ أَبْرَهَةُ لَيَسِيرَنَّ إِلَى البَيْتِ حَتَّى يَهْدِمَهُ، وُسِمِّيَ هَذَا العَامُ بِعَامِ الفِيلِ، فَسَارَ مِنْ صَنْعَاء إِلَى خَثْعَمَ ثُمَّ إِلَى الطَّائِفِ، وَمِنْهَا بَعْثَ رَجُلًا مِنْ قَوْمِهِ إِلَى مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ، فَسَاقَ إِلَيْهِ أَمْوَالَ أَهْلِهَا، وَأَصَابَ فِيهَا مِئَتَيْ بِعَيْرٍ لِعَبْدِ المُطَّلِبِ بِنْ هَاشِمِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ كَبِيرُ قُرَيْش وَسَيِّدُهَا، فَهمَّتْ قُرَيْشٌ وكِنَانَةُ وهذيل وَمَنْ كَانَ مِنْ أَكَابِرِ الحَرَمِ بِقِتَالِهِ، ثُمَّ عَرَفُوا أَنَّهُمْ لا طَاقَةَ لَهُمْ بِهِ، فَتَرَكُوا ذَلِكَ.

ثُمَّ أَرْسَلَ أَبْرَهَةُ رَجُلًا آخَرَ إِلَى مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ، وَقَالَ لَهُ: "سَل عَنْ سَيِّدِ أَهْلِ هَذَا البَلَدِ وَشَرِيفِهَا؟"، فَسَأَلَ، فَقِيلَ لَهُ: "عَبْد المُطَّلِب".

فَانْطَلَقَ عَبْد المُطَّلِبِ مَعَ رَسُولِ أَبْرَهَةَ إِلَيْه، فَلَمَّا اسْتُؤْذِنَ لِعَبْدِ المُطَّلِبِ، قَالُوا لِأَبْرَهَةَ: "هَذَا سَيِّدُ قُرَيْش بِبَابِكَ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْكَ وَهُوَ صَاحِبُ عَيْرِ مَكَّةَ، وَهُوَ يُطْعِمُ النَّاسَ فِي السَّهْلِ، وَالوُحُوشَ فِي رُؤُوسِ الجِبَالِ، فَأْذَنْ لَه عَلَيْكَ فَلْيُكَلِّمْكَ فِي حَاجَتِهِ"، فَأَذِنَ لَهُ، فَلَمَّا رَآهُ أَبْرَهَةُ أَجَلَّهُ وَأَكْرَمَهُ عَنْ أَنْ يُجْلِسَهُ تَحْتَهُ، وَكَرِهَ أَنْ تَرَاهُ الحَبَشَةُ مَعَهُ

عَلَى سَرِيرِ مُلْكِهِ، فَنَزَلَ أَبْرَهَةُ عَنْ سَرِيرِهِ، فَجَلَسَ عَلَى بِسَاطِهِ وَأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَيْهِ إِلَى جَنْبِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ عَنْ طَرِيقِ تُرْجُمَانِهِ: حَاجَتُكَ؟ فَذَكَرَ عَبْد المُطَّلِبِ أَبَاعِرَهُ الَّتِي أُخِذَتْ مِنْهُ، فَقَالَ أَبْرَهَةُ: "قَدْ كُنْتَ أَعْجَبْتَنِي حِينَ رَأَيْتُكُ، ثُمَّ زَهَدْتُ فِيكَ حِينَ كَلَّمْتُك، أَتُكَلِّمُنِي فِي مِئَتَيْ بَعِيرٍ أَصَبْتُهَا لَكَ، وَتَتْرُكُ بَيْتًا هُوَ دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ قَدْ جِئْتُ لِهَدْمِهِ، لَا تُكَلِّمُنِي فِيهِ؟"، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ: "أَنَا رَبُّ الإِبِلِ، وَإِنَّ لِلْبَيْتِ رَبًّا سَيَمْنَعُهُ"، فَرَدَّ أَبْرَهَةُ عَلَى عَبْدِ المُطَّلِبِ الإِبِلَ، فَانْصَرَفَ عَبْدُ المُطَّلِبِ إِلَى قُرَيْشٍ فَأَخْبَرَهُمْ الخَبَرَ، وَأَمَرَهُمْ بِالخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ وَالتَّحَرُّزِ بِالجِبَالِ وَالشِّعَابِ تَخَوُّفًا عَلَيْهِمْ شِدَّةَ الجَيْشِ، وَقَدْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ قُرَيْشٍ عَدَدًا، ثُمَّ قَامَ عَبْدُ المُطَّلِبِ فَأَخَذَ بَحَلْقَةِ الكَعْبَةِ، وَقَامَ مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَدْعُونَ اللهَ، وَيَسْتَنْصِرُونَهُ عَلَى أَبْرَهَةَ وَجَيْشِهِ.

فلَمَّا تَهَيَّأَ أَبْرَهَةُ لِدُخُولِ مَكَّةَ وَهَيَّأَ فِيلَهُ الأَعْظَمَ، وَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَى هَدْمِ البَيْتِ، فَكَانُوا كُلَّمَا وَجَّهُوا الفِيلَ إِلَى مَكَّةَ بَرَك وَلَمْ يَبْرَحْ، وَإِذَا وَجَّهُوهُ إِلَى سَائِرَ الجِهَاتِ قَامَ يُهَرْوِلُ، وَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ -جَمَاعَاتٍ جَمَاعَاتٍ- مِنَ البَحْرِ أَمْثَالَ الخَطَاطِيفِ، مَعَ كُلِّ طَائِرٍ ثَلَاثَةُ أَحْجَارٍ، وَاحِدٌ فِي مِنْقَارِهِ وَاثْنَانِ فِي رِجْلَيْهِ، فَقَذَفَتْهُمْ بِهَا، وَهِيَ مِثْلُ الحُمُّصِ وَالعَدَسِ، لَا تُصِيبُ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا هَلَكَ وَلَيْسَ كُلَهُمْ أَصَابَتْ، ثُمَّ أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى سَيْلًا فَأَلْقَاهُمْ فِي البَحْرِ، وَالَّذِي سَلِمَ مِنْهُمْ وَلَّى هَارِبًا مَعَ أَبْرَهَةَ إِلَى اليَمَنِ، وَقَدْ أُصِيبَ بِتَسَاقُطِ أَعْضَائِهِ، فَمَا مَاتَ فِي صَنْعَاءَ حَتَّى انْصَدَعَ صَدْرُهُ عَنْ قَلْبِهِ، وَمَلَكَ مَكَانَهُ ابْنُهُ يكسوم سَنَة ٥٧١م.

وَنَظَرًا لِأَهَمِّيَّةِ هَذَا الحَادِثِ صَارَ العَرَبُ يُؤَرِّخُونَ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ

طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾

(سُورَةُ الفِيلِ: آيَةُ ١-٥).

كَانَ لِعَبْدِ المُطَّلِبِ -سَيِّدِ قُرَيْش- عَشَرَةُ أَبْنَاءٍ، وَكَانَ عَبْدُ اللهِ أَصْغَرَ أَبْنَائِهِ، زَوَّجَهُ أَبُوهُ مِنْ آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ -سَيِّدِ بَنِي زُهْرة- وَهِيَ يَوْمَئِذٍ أَفْضَلُ امْرَأَةٍ فِي قُرَيْشٍ نَسَبًا وَمَوْضِعًا.

وَلَمْ يَلْبَثْ عَبْدُ اللهِ أَنَّ مَاتَ، وأُمُّ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) حَامِلٌ بِهِ، وَكَانَتْ وِلَادَةُ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) يَوْمَ الاثْنَيْنِ اليَوْمَ الثَّانِيَ عَشْرَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الأَوَّلِ عَامَ الفِيلِ (٥٧٠م)، فَهُوَ أَسْعَدُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهُ الشَّمْسُ.

هُوَ أَبُو القَاسِمِ، مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ ابْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعبٍ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فَهْرِ بْنِ مَالِكٍ بْنِ النَّضْرِ ابْنِ كِنَانةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْركةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدّ بْنِ عَدْنَانَ. وَيَنْتَهِي نَسَبُ عَدْنَانَ إِلَى سَيِّدِنَا إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ(١).

قَالَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ): "إِنَّ اللهَ(ﷻ) اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانةَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ".

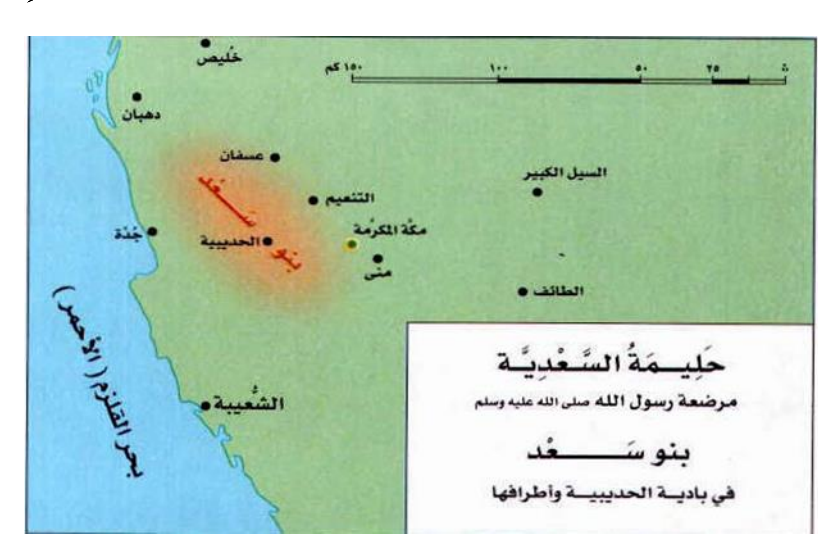
فلَمَّا وَضَعَتْهُ أُمُّهُ(ﷺ) أَرْسَلَتْ إِلَى جَدِّهِ عَبْدِ المُطَّلِبِ أَنَّهُ قَدْ وُلِدَ لَكَ غُلَامٌ فَأَتَاهُ، وَدَخَلَ بِهِ الكَعْبَةَ، وَقَامَ يَدْعُو اللهَ(ﷻ)، وَيَحْمَدُهُ وَسَمَّاهُ "مُحَمَّدًا" وَكَانَ هَذَا الاسْمُ غَرِيبًا، فَتَعَجَّبَ مِنْهُ العَرَبُ.

أَرْضَعَتْهُ ثَوْيبَة جَارِيَةُ عَمِّهِ أَبِي لَهَبٍ بِضْعَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ الْتَمَسَ عَبْدُ المُطَّلِبِ لِحَفِيدِهِ اليَتِيمِ، مُرضِعًا مِنَ البَادِيَةِ، وَكَانَ العَرَبُ يُؤْثِرُونَ البَادِيَةَ لِرِضَاعَةِ الأَطْفَالِ

(١) اقْتَصَرْنَا عَلَى سِيَاقِ نَسَبِهِ(ﷺ) إِلَى عَدْنَانَ لِأَنَّهُ لَا خِلَافَ عَلَيْهِ.

وَنَشْأَتِهِمْ الْأُولَى، لِنَقَاءِ الهَوَاءِ، وسعةِ الصَّحْرَاءِ، بَعِيدًا عَنِ الوَخَمِ وَالوَبَاءِ فِي مَكَّةَ، بِالإِضَافَةِ إِلَى تَلَقي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَى، وَسَلَامَةِ النُّطْقِ بَعِيدًا عَنْ تَأْثِيرَاتِ الوَافِدِينَ عَلَى مَكَّةَ مِنْ شَتَّى القَبَائِلِ، وَالأَجْنَاسِ فِي المَوَاسِمِ الدِّينِيَّةِ.

وَجَاءَتِ المَرَاضِعُ مِنْ قَبِيلَةِ بَنِي سَعْدٍ. وَعُرِضَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) عَلَى جَمِيعِ المَرَاضِعِ فَزَهَدْنَ فِيهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُنَّ كُنَّ يرْجَوْنَ المَعْرُوفَ مِنْ أَبِي الصَّبِيِّ، فَقُلْنَ: يَتِيمٌ! وَمَا عَسَى أَنْ تَصْنَعَ أُمُّهُ وَجدُّهُ؟!



وَهَكَذَا فَعَلَتْ حَلِيمَةُ، فَانصَرَفَتْ عَنْهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ، ثُمَّ انْعَطَفَ قَلْبُهَا عَلَيْهِ، وَأَلْهَمَهَا اللهُ حُبَّهُ، وَأَخْذَهُ، وَلَمْ تَكُنْ وَجَدَتْ غَيْرَهُ، فَرَجَعَتْ إِلَيْهِ، فَأَخَذَتْهُ، وَذَهَبَتْ بِهِ إِلَى رحلِهَا، وَلَمَسَتِ البَرَكَةَ بِيَدِهَا، وَلَمْ تزَلْ تَتَعَرَّفُ مِنْ اللهِ الزِّيَادَةَ وَالخَيْرَ، حَتَّى مَضَى عَامَانِ فِي بَنِي سَعَد، وَكَانَ يَشُبُّ شَبَابًا لَا يُشْبَهُهُ الغِلْمَانَ، فَفَطَمَتْهُ، ثُمَّ رَجَعَتْ بِهِ إِلَى أُمِّهِ وَهِيَ تَسْعَى لِبَقَائِهِ مَعَهَا، لِمَا حَلّ بِسَبَبِهِ مِنَ الخَيْرِ، فَقَالَتْ لِأُمِّهِ: "لَوْ تَرَكْتِ بُنَّي عِنْدَي حَتَّى يغْلُظَ، فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْهِ وَبأَ مَكَّةَ" -أَيْ وَبَاءَهَا وَمَا يَنْتَشِرُ فِيهَا مِنْ أَمْرَاضٍ- فَرَجَعَتْ بِهِ.

وَبَعْدَ عَوْدَتِهِمْ بِشَهْرٍ، وَبَيْنَمَا يَرْعَى رَسُولُ اللهِ(ﷺ) الغَنَمَ مَعَ أَخِيهِ فِي الرِّضَاعَةِ، وَإِذْ بِأَخِيهِ يُهَرْوِلُ إِلَى أُمِّهِ وَأَبِيهِ وَيَقُولُ: "ذَاكَ أَخِي القُرَشِيُّ قَدْ أَخَذَهُ رَجُلَانِ عَلَيْهِمَا

ثِيَابٌ بِيضٌ، فَأَضْجَعَاهُ، فَشَقَّا بَطْنَهُ، فَهُمَا يُسَوِطَانِه"(١)، فَخَشَتْ حَلِيمَةُ وَزَوْجُهَا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَهُ سُوءٌ، فَقَدَمَا بِهِ إِلَى أُمِّهِ، فَاسْتَغْرَبَتْ قُدُومَهُمَا بِهَذِهِ السُّرْعَةِ، وَحَاوَلَا إِخْفَاءَ مَا حَدَثَ، فَقَالَتْ أُمُّ الرَّسُولِ(ﷺ): "مَا هَذَا شَأْنُكَ فَاصْدُقِينِي خَبَرَكِ"، فَأَخْبَرَتْهَا، فَقَالَتْ: "أَفَتَخَوَّفْتِ عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ؟" قَالَتْ: "نَعَمْ"، فَقَالَتْ أُمُّ رَسُولِنَا الكَرِيمِ(ﷺ): "كَلَّا، وَاللهِ مَا لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ، وَإِنَّ لِبُنَيَّ لَشَأْنًا أَفَلَا أُخْبِرِك خَبَرَهُ"، قَالَتْ: "بَلَى"، فَقَالَتْ: "رَأَيْتُ حِينَ حَمَلْتُ بِهِ أَنَّهُ خَرَجَ مِنِّي نُورٌ أَضَاءَ لِي بِهِ قُصُورَ "بُصْرى" مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، ثُمَّ حَمَلْتُ بِهِ، فَوَاللهِ مَا رَأَيْتُ مَنْ حَمَلَ قَطّ كَانَ أَخَفَّ وَلَا أَيْسَرَ مِنْهُ، ووقعَ حِينَ وَلَدْتُهُ وَإِنَّهُ لَوَاضَعُ يَدَيْهُ بِالأَرْضِ رَافِعُ رَأْسِهُ إِلَى السَّمَاءِ، دَعِيهِ عَنْكِ وَانْطَلِقِي رَاشِدَةً".

وَلَمَّا بَلَغَ(ﷺ) سِتَّة أَعْوَامٍ، خَرَجَتْ بِهِ أُمُّهُ إِلَى مَدِينَةِ يَثْرِبَ، لَتَزُورَ قَبْرَ بَعْلِهَا الحَبِيبِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ المطّلِبِ، وَفِي عَوْدَتِهَا إِلَى مَكَّةَ أَدْرَكَهَا المَوْتُ بِمَكَانٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالمَدِينَةِ، اسْمهُ "الأَبْواءُ"، وَعَادَتْ بِهِ أُمُّ أَيْمَنَ بَرَكَةُ الحَبَشِيَّةُ إِلَى مَكَّةَ، وَسَلَّمَتْهُ إِلَى جَدِّهِ عَبْدِ المَطَّلِبِ، فَكَانَ مَعَ جَدِّهِ وَكَانَ بِهِ حَفِيًّا.

فَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) ثَمَانِيَ أَعْوَامٍ، مَات عَبْدُ المُطَّلِبِ، فَذَاقَ مَرَارَةَ اليُتْمِ مَرَّةً ثَانِيَةً كَانَتْ أَشَدَّ منَ الأُولَى، أَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) بَعْدَ عَبْدِ المُطَّلِبِ مَعَ عَمِّهِ أَبِي طَالِب، وَهُوَ أَخُو عَبْدِ اللهِ مِنْ أبٍ وأمٍّ، وَكَانَ عَبْدُ المُطَّلِبِ يوصيهِ بِهِ، فَكَانَ أَرْفَقَ بِهِ، وَأَكْثَرَ حَدَبًّا عَلَيْهِ مَنْ أَبْنَائِهِ: عَلَيَّ، وَجَعْفَرَ، وَعَقِيل.

وَفِي سَنَةِ ٥٨٢م، وَعِنْدَمَا بَلَغَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) اثْنَيْ عَشْرَ عَامًا، خَرَجَ مَعَ عَمَّهِ أَبِي طَالِبٍ فِي تِجَارَتِهِ إِلَى الشَّامِ.

---

(١) فَهُمَا يُسَوِطَانِه: مِنْ السَّوْطِ، وَهُوَ المَزْجُ، وَالخَلْطُ، كَأَنَّهُ رَآهُمْ يَعْبَثُونَ بِمَا فِي بَطْنِهِ فسمي ذَلِكَ سواطًا أَيْ عَجْنًا، وَخَلْطًا. وَالرِّجْلَانِ: مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

وَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) أَرْبَعَةَ عَشْرَ عَامًا أَوْ خَمْسَةَ عَشْرَ عَامًا[١]، هَاجَتْ حَرْبُ الفُجَّارِ[٢] بَيْنَ قُرَيْشٍ وَمَنْ مَعَهَا مَنْ كِنَانَةَ وَبَيْنَ قَيْسِ عَيْلَانٍ، وَالحَدِيثُ فِيهَا يُمْكِنُ أَنْ يُخْرِجَنَا عَنْ السِّيَاقِ، وَمَا يُهِمُّنَا هُوَ أَنَّ رَسُولَنَا(ﷺ) شَهِدَ بَعْضَ أَيَّامِ حَرْبِ الفُجَّارِ، إِذْ أَخْرَجَهُ أَعْمَامُهُ مَعَهُمْ، قَالَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ): "كُنْتَ أَنْبُلُ عَلَى أَعْمَامِي" أَيْ: أَرُدُّ عَلَيْهِمْ نِبْلَ عَدُوِّهِمْ إِذَا رَمَوْهُمْ بِهَا.

زَوَاجُهُ (ﷺ) مِنْ خَدِيجَةَ:

وَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) خَمْسَةً وَعِشْرِينَ عَامًا، تَزَوَّجَ السَّيِّدَة خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ ابْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى بْنِ قُصَيٍّ، وَهِيَ مِنْ سَيِّدَاتِ قُرَيْشٍ، وَفُضْلَيَاتِ النِّسَاءِ رَجَاحَةَ عَقْلٍ، وَكَرَمَ أَخْلَاقٍ، وَسَعَةَ مَالٍ، وَكَانَتْ أَرْمَلَةً، تُوُفِّيَ زَوْجُهَا أَبُو هَالَةَ، وَكَانَتْ إِذْ ذَاكَ فِي الأَرْبَعِينَ مِنْ عُمْرِهَا، وَرَسُولُ اللهِ(ﷺ) فِي الخَامِسَةِ وَالعِشْرِينَ مِنْ عُمْرِهِ.

وَكَانَتْ خَدِيجَةُ امْرَأَةً تَاجِرَةً، تَسْتَأْجِرُ الرِّجَالَ فِي مَالِهَا، وَتُضَارِبُهُمْ بِشَيْءٍ تَجْعَلُهُ لَهُمْ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ قَوْمًا تُجَّارًا، وَقَدْ كَانَتِ اخْتَبَرَتْ صِدْقَ حَدِيثِ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) وَكَرَمَ أَخْلَاقِهِ، وَنَصِيحَتَهُ، حِينَ خَرَجَ فِي مَالٍ لَهَا إِلَى الشَّامِ تَاجِرًا، وَبَلَغَهَا مِنْ كِبَرِ شَأْنِهِ فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ، فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ نَفْسَهَا، وَكَانَتْ قَدْ رَفَضَتْ طَلَبَ كَثِيرٍ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ، وَخَطَبَهَا إِلَيْهِ عَمُّهُ حَمْزَةُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَخَطَبَ أَبُو طَالِبٍ الخِطْبَةَ، فَكَانَ الزَّوَاجُ.

وَكَانَتْ أُوَلَ امْرَأَةٍ تَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللهِ(ﷺ) وَلَمْ يَتَزَوَّجْ عَلَيْهَا غَيْرَهَا حَتَّى مَاتَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَوَلَدَتْ لَهُ وَلَدَهُ كُلَّهُمْ إِلَّا إِبْرَاهِيمَ.

وَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) خَمْسةً وَثَلَاثِينَ عَامًا، اجْتَمَعَتْ قُرَيْش لِبُنْيَانِ الكَعْبَةِ، وَقَدْ أَرَادُوا أَنْ يَسْقُفُوهَا، وَكَانَتْ حِجَارَةً بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، بِدُونِ طِينٍ يُرَكِّبُ بَعْضُهَا

---

(١) وَقِيلَ اِبْنُ عِشْرِينَ عَامًا.

(٢) سُمِّيَ بِيَوْمِ الفُجَّارِ بِمَا اسْتَحَلْتُ فِيهِ كِنَانَة وَقَيْسُ عَيْلَانِ مِنْ المَحَارِمِ بَيْنَهِمْ.

عَلَى بَعْضٍ، فَلَمَّا بَلَغَ البُنْيَانُ مَوْضِعَ الرَّكْنِ، اخْتَصَمُوا فِي الحَجَرِ الأَسْوَدِ، كُلُّ قَبِيلَةٍ تُرِيدُ أَنْ تَرْفَعَهُ إِلَى مَوْضِعِهِ دُونَ الأُخْرَى، لِيَكُونَ لَهَا هَذَا الشَّرَفُ، حَتَّى آل الأَمْرُ إِلَى الحَرْبِ وَاسْتَعَدُّوا لِلقِتَالِ.

مَكَثَتْ قُرَيْشٌ أَيَّامًا عَلَى شَفَا الحَرْبِ، ثُمَّ اتَّفَقُوا عَلَى تَحْكِيمِ أَوَّلِ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ المَسْجِدِ بَيْنَهُمْ، فكَان أَوَّلُ دَاخِلٍ رَسُولَ اللهِ(ﷺ) فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: هَذَا الأَمِينُ، هَذَا مُحَمَّدٌ.

فَدَعَا رَسُولُ اللهِ(ﷺ) بِثَوْبٍ، وَأَخَذَ الحَجَرَ، وَوَضَعَهُ فِيهِ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: "لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنْ الثَّوْبِ، ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعًا، فَفَعَلُوا، حَتَّى إِذَا بَلَغُوا بِهِ مَوْضِعَهُ وَضَعَهُ هُوَ بِيَدِهِ، ثُمَّ بَنَى عَلَيْهِ. وَهَكَذَا دَرَأَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) الحَرْبَ عَنْ قُرَيْشٍ.

كَمَا شَهِدَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) حِلْفَ الفُضُولِ، وَكَانَ سَبَبُهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْ زبيد قَدَمَ مَكَّةَ بِبِضَاعَةٍ، فَاشْتَرَاهَا مِنْهُ العَاصُ بْنِ وَائِلِ السّهمِيِّ أَحَدُ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ، فَحَبَسَ عَنْهُ حَقَهُ، فَاسْتَعْدَى عَلَيْهِ الزُبَيْدِيُّ أَشْرَافُ قُرَيْشٍ، فَأَبَوْا أَنْ يُعِينُوا عَلَى العَاصِ بْنِ وَائِلٍ لِمَكَانَتِهِ، وَانْتَهَرُوهُ، وَاسْتَغَاثَ الزُبَيْدِيُّ بِأَهْلِ مَكَّةَ، وَاسْتَعَانَ بِكُلِّ ذِي مُرُوءَةٍ.

وَهَاجَتْ الغَيْرَةُ فِي رِجَالٍ مِنْ ذَوِيَ المُرُوءَةِ وَالفُتُوَةِ، فَاجْتَمَعُوا فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ ابْنِ جدعان فَصَنَعَ لَهُمْ طَعَامًا، وَتَعَاقَدُوا، وَتَعَاهَدُوا بِاللهِ، لَيَكُونُنَّ يَدًا وَاحِدَةً مَعَ المَظْلُومِ عَلَى الظَّالِمِ، حَتَّى يُؤَدِّيَ إِلَيْهِ حَقَّهُ، فَسَمَّتْ قُرَيْشٌ ذَلِكَ الحِلْفَ "حِلْفُ الفُضُولِ" وَقَالُوا: "لَقَدْ دَخَلَ هَؤُلَاءِ فِي فَضْلٍ مِنَ الأَمْرِ"، ثُمَّ مَشَوْا إِلَى العَاصِ بْنِ وَائِلٍ، فَانْتَزَعُوا مِنْهُ سِلْعَةَ الزُبَيْدِيِّ، فَدَفَعُوهَا إِلَيْهِ.

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) مُغْتَبِطًا بِهَذَا الحِلْفِ، مُتَمَسِّكًا بِهِ حَتَّى بَعْدِ البَعْثَةِ، يَقُولُ(ﷺ): "لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا، مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ

النِّعَمِ، وَلَوْ أُدْعِى بِهِ فِي الإِسْلَامِ لَـ"أَجَبْتُ، تَحَالَفُوا عَلَى أَن} يَرُدُّوا الفُضُولَ عَلَى أَهْلِهَا، وَأَلَّا يُعِزَّ ظَالِمٌ مَظْلُومًا".

بِدَايَةُ نُزُولِ الوحِيَ:

أَوَّلُ مَا بَدَأَ بِهِ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةِ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْهُ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، وكَانَ عَلَيْهِ الصَلَاةُ وَالسَلَامُ لَا يَعْتَقِدُ فِي دِيْنِ أَهْلِهِ، وَلَمَّا قَرُبَتْ أَيَّامُ الوَحْيِ حُبِّبَتْ إِلَيْهُ(ﷺ) الخلوة، فَكَانَ يَخْتَلِي فِي غَارِ حِرَاءَ يَتَعَبَّدُ فِيهُ وَيُصَلِّي، وَكَانَتْ عِبَادَتُهُ(ﷺ) عَلَى دِيْنِ إِبْرَاهِيمَ(عليه السلام)، وَشَجَّعَتْهُ السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ عَلَى ذَلِكَ، وَكَانَتْ تُرْسِلُ إِلَيْهُ الطَّعَامَ فِي الجَبَلِ، وَفِي يَوْمِ الاثْنَيْنِ ١٧ رَمَضَانَ – وَكَانَ قَدْ بَلَغَ الأَرْبَعِينَ مِنْ عُمْرِهِ– نَزَلَ عَلَيْهِ الوحِيُ، إِذْ رَأى جِبْرِيلَ(عليه السلام) الَّذِي ظَهَرَ أَمَامَهُ، وَقَالَ لَهُ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِىءٍ، فَضَمَّه حَتَّى بَلَغَ مِنْهُ الجُهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَهُ وَقَالَ لَهُ: اِقْرَأْ، فَقَالَ: مَا أَنَا بِقَارِىءٍ، فَضَمَّه مَرَّةً ثَانِيَةً وَثَالِثَةً وَقَالَ لَهُ: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ (سُورَةُ العلق: آيَةُ ١-٥).



فَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) يَرْجُفُ فُؤَادُهُ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَقَالَ لِزَوْجِهِ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي (لَفُّونِي) فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، وَقَصَّ عَلَى السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ الحَدَثَ، فَقَالَتْ لَهُ: "وَاللهِ مَا يُخْزِيكِ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لِتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتُقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الدَّهْرِ"، ثُمَّ انْطَلَقَتْ إِلَى اِبْنِ عَمِّهَا وَرَقَةَ بِنَ نَوْفَلٍ، وَهُوَ شَيْخٌ أَعْمَى، قَدْ دَرَسَ النَّصْرَانِيَةَ، وَآمَنَ بِهَا، وَسَمِعَ مِنْ أَهْلِ التَّوْرَاةِ، فَأَخْبَرَتْهُ بِمَا حَدَثَ، فَقَالَ وَرَقَةُ: "قدّوس،

قدّوس، لَئِنْ كَانَ هَذَا حَقًّا يَا خَدِيجَةُ لَقَدْ جَاءَهُ النَّامُوسُ الأَكْبَر، وإِنَّ مُحَمَّدًا لِنَبِيُّ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَقَدْ عَرَفَتُ أَنَّهُ كَائِنٌ لِهَذِهِ الأُمَّةِ نَبِيٌّ يُنْتَظَرُ، هَذَا زَمَانُهُ"، فَرَجَعَتْ وَأَخْبَرَتْ زَوْجَهَا الحَبِيبَ بِمَا قَالَهُ وَرَقَةُ، فَذَهَبَ بِنَفْسِهُ لِوَرَقَةَ، الَّذِي قَالَ لِلرَّسُولِ(ﷺ): "هَذَا النَّامُوسُ الأَكْبَرُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى مُوسَى، لَيْتَنِى أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ"، قَالَ(ﷺ): "أَوَمُخْرِجِي هُمْ؟"، قَالَ: "لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ بِمِثْلِ مَا أوتِيتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا". فَأَطْمَأَنَّ الرَّسُولُ(ﷺ).

ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ وَرَقَةُ أَنْ تُوفِيَ، وَفَتَرَ الوَحْيَ، وَأَصَابَ رَسُولَنَا الحَبِيبَ(ﷺ) الحُزْنُ الشَّدِيدُ لِذَلِكَ، وَبَعْدَ فَتْرَةٍ عَادَ مُحَمَّدٌ(ﷺ) إِلَى الغَارِ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ(عليه السلام) مُبَشِّرًا أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، وَنَنْقُلُ هُنَا جُزْءًا مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الأنْصَارِيّ قَالَ: "قَالَ رَسُولُ اللهِ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الوَحْيِ: بَيْنَمَا أَنَا وَاقِفٌ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا المَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءَ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّهِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ: فَجُئِثْتُ مِنْهُ فَرَقًا، فَرَجَعْتُ، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي دَثِّرُونِي، فَأَنْزِلْ اللّه تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾ (سُورَةُ المُدَّثِّر: آيَةُ ١-٧)، ثُمَّ تَتَابَعَ الوَحْيُ".

فَيَكُونُ أَوَّلُ مَا أُنْزِلَ مِنَ القُرْآنِ ابْتِدَاءً: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ ﴾، وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ بَعْدَ فَتْرَةِ الوَحْيِ ثُمَّ عَوْدَتِهِ لِلنُّزُولِ عَلَى الرَّسُولِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ ﴾، وَاللّهُ أَعْلَمُ.

أَمَّا زَمَنُ نُزُولِ القُرْآنِ الكَرِيمِ فَكَانَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ ﴾

(سُورَةُ البَقَرَةِ: آيَةُ ١٨٥)، وَتَحْدِيدًا فِي لَيْلَةِ القَدْرِ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥ ﴾ (سُورَةُ القَدْرِ).

مَرَاحِلُ الدَّعْوَةِ:

مَرَّتْ الدَّعْوَةُ لِلإِسْلَامِ بِمَرْحَلَتَيْنِ أَسَاسِيَّتَيْنِ الأُولَى هِيَ: المَرْحَلَةُ السِرِّيَّةُ، وَالأُخْرَى هِيَ: مَرْحَلَةُ الجَهْرِ بِالدَّعْوَةِ، وَكِلَا المَرْحَلَتَيْنِ مِنَ الأَهَمِّيَّةِ بِمَكَانٍ.

المَرْحَلَةُ السِرِّيَّةُ:

أَدْرَكَ الرَّسُولُ(ﷺ) حَتْمِيَّةَ تَأْسِيسِ قُوَّةٍ مِنْ المُؤْمِنِينَ قَبْلَ المُجَاهَرَةِ، وَمُجَابَهَةِ القُوَى المُعَادِيَةِ، لِذَا شَرَعَ الرَّسُولُ(ﷺ) فِي نَشْرِ الدِّينِ الإِسْلَامِيِّ لِأَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ: وَأَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنَ الرِّجَالِ الأَحْرَارِ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ(رضي الله عنه)، وَمِنَ النِّسَاءِ زَوْجَتُهُ السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَمِنَ الصِّبْيَانِ عَلَيٌّ بْنُ أَبِي طَالَبٍ(رضي الله عنه) ابْنُ عَمِّه، حَيْثُ كَانَ الرَّسُولَ(ﷺ) قَدْ أَخَذَهُ لِيُعِيلَهُ فِي دَارِهِ تَخْفِيفًا عَنْ أَبِي طَالِب، وَمِنَ المَوَالِي زَيْدٌ بْنِ حَارِثَةَ(رضي الله عنه)، وَمِنَ العَبِيدِ بِلَالٌ بْنُ رَبَاح(رضي الله عنه)، ثُمَّ عُثمَانُ بْنُ عَفَّانٍ(رضي الله عنه)، وَالزُّبَيْرُ بْنُ العَوَامِّ(رضي الله عنه)، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ(رضي الله عنه)، وَعَبْدُ الرَحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ(رضي الله عنه)، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبِيدِ اللهِ(رضي الله عنه)، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجِرّاحِ(رضي الله عنه)، كَمَا أَسْلَمَ الْأَرْقَمُ بْنُ أَبِي الأَرْقَمِ(رضي الله عنه)، الَّذِي اتُّخِذَتْ دَارُهُ مَرْكَزًا لِبَثِّ الدِّينِ الإِسْلَامِيِّ.

وَيُلَاحظُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ كَانَ مِنْ أَحْدَاثِ الرِّجَالِ، أَوْ مِمَّنْ يُقَارِبُوا الرَّسُولَ فِي العُمْرِ، أَمَّا الشُّيُوخُ المُسِنُّونَ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ اسْتِكْبَارًا وَأَنَفَةً، فَلِلسِّنِّ عِنْدَ العَرَبِ مَنْزِلَةٌ.... والعُرْفُ أَعْمَقُ جُذُورًا فِي نُفُوسِ المُسِنِّينَ. وَكَانَ مِنَ العَارِ عَلَى المُسِنِّ تَغْيِيرُ

مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَمَا وَرِثَهُ عَنْ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ، وَلَمْ يَكُنْ عَدَدُ المُسْلِمِينَ قَدْ جَاوَزَ أَرْبَعِينَ شَخْصًا فِي تِلْكَ الفَتْرَةِ، وَهِيَ فَتْرَةٌ طَوِيلَةٌ كَانَ مِنْ المُمْكِنِ إِسْلَامُ أَضْعَافِ أَضْعَافِ هَذَا العَدَدِ لَوْ أَنَّ الرَّسُولَ(ﷺ) قَامَ بِالدَّعْوَةِ فِيهَا جِهَارًا، وَقَدْ أَمَرَ الرَّسُولُ(ﷺ) أتبَاعَهُ بِالْتِزَامِ الحَيْطَةِ، وَالحَذَرِ، وَالتَّخَفِّي، وَعَدَمِ الإِعْلَانِ عَنْ الإِسْلَامِ إِلَى أَنْ يَقْضِيَ اللهُ أَمْرَهُ.

فَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا الصَّلَاةَ خَرَجُوا فُرَادَى إِلَى الشِعَاب، وَالبَرِّيَّةُ يُصَلُّونَ عَلَى حَذَرٍ، وَلهمْ عُيُونٌ تَرَى القَادِمَ لِتَنْبِيهِ المُصَلِّينَ؛ فَلَا يُؤْخَذُونَ عَلَى غِرَّةٍ، وَيَظْهَرُ أَمْرَهُمْ لِلنَّاسِ، وَقَدْ بَقُوا عَلَى ذَلِكَ طَوَالَ مُدَّةِ الاسْتِخْفَاءِ، وَيُرْوَى أَنْ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ(ﷺ) خَرَجَ يَوْمًا فِي نَفَرٍ مِنَ المُسْلِمِينَ الأَوَائِلِ إِلَى شِعْبٍ مِنْ شِعَابِ مَكَّةَ، فَإِذَا بِجَمَاعَةٍ مِنْ المُشْرِكِينَ يَظْهَرُونَ أَمَامَهُمْ، وَهُمْ يُصَلُّونَ فَاسْتَنْكَرُوا عَمَلَهُمْ، وَعَابُوا عَلَيْهُمْ مَا يَصْنَعُونَ، وَدَخَلوا فِي شِجَارٍ عَنِيفٍ، فَاضْطَرَّ سَعَدٌ بِنُ أَبِي وَقَّاصٍ(ﷺ) -يَوْمَئِذٍ- أَنْ يَجْرَحَ أَحَدَ المُشْرِكَينَ، فَكَانَ هَذَا أَوَّلَ دَمٍ أُهْرِقَ فِي الإِسْلَامِ.

عِنْدَئِذٍ نَصَحَ الرَّسُولُ(ﷺ) المُسْلِمِينَ بِالتَّخَفِّي وَالْتِزَامِ البُيُوتِ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ حَتَّى تَسْتَقِرَّ الأَحْوَالُ، وَدَخَلَ هُوَ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ بِيْتَ الأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الأَرْقَمِ وَبَقِيَ فِيهِ مُخْتَفِيًا مَعَ جَمَاعَتِهِ لَا يَخْرُجُ، وَكَانَ بَعْضُ المُسْلِمِينَ الَّذِينَ بَقُوا خَارِجَ الدَّارِ يُرَاجِعُونَ دَارَ الأَرْقَمِ لِتَلَقِّي أَوَامِرِ الرَّسُولِ(ﷺ)، وَالرِّوَايَاتُ هُنَا مُضْطَرِبَةٌ، وَلَكِنَّ المُرَجَّح أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي أَوَاخِرِ عَهْدِ السِّرِّيَّة، الَّذِي اسْتَمَرَّ حَوالَيْ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ.

مَرْحَلَةُ الجَهْرِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الإِسْلَامِ:

حَتَّى جَاءَ أَمْرٌ إِلَهِيٌّ ونَزَلَ قَوْلَهُ(ﷻ): ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ (سُورَةُ الحجر: آيَةُ ٩٤-٩٥).

فَجَهَرَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) بِالدَّعْوَةِ لِلإِسْلَامِ، وَصَدَعَ لِأَمرِ رَبِّهْ. وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُوَجِّهَ النَّاسَ نَحْوَ: (لَا إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ) وَهَذَا هُوَ أَسَاسُ الإِسْلَامِ، وَأَنَّ هُنَاكَ بَعْثًا وَعِقَابًا وَثَوَابًا، كَمَا كَانَ عَلَى الرَّسُولِ(ﷺ) أَنْ يُصْلِحَ مِنْ شَأْنِ المُجْتَمِعِ الفَاسِدِ.

وعِنْدَمَا قَالَ تَعَالِى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ (سُورَةُ الشّعْرَاءِ: آيَةُ ٢١٤-٢١٥).

عِنْدَئِذٍ صَعَدَ الرَّسُولُ(ﷺ) إِلَى جَبَلِ الصَّفَا، وَنَادَى أَهْلَهُ وَعَشِيرَتَهُ وَقَالَ: "أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بالوادى تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟" قَالُوا: "نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا قَطّ"، فَقَالَ: "إِنِّى نَذِيرٌ لَكُمْ، بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ". فَقَالَ أَبُو لَهَب: "تَبًّا لَكَ! أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟". فَأَنْزَلَ اللهُ قَوْلَهُ تَعَالِى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾ ﴾ (سُورَةُ المسد: آيَةُ ١-٥).

لَمَّا بَادَى رَسُولُ اللهِ(ﷺ) قَوْمَهُ بِالإِسْلَامِ، وَصَدَعَ بِهِ كَمَا أَمَرَ اللّه تَعَالَى، لَمْ يُبْعِدْ مِنْهُ قَوْمَهُ، وَلَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ، حَتَّى ذَكَرَ آلِهَتَهُمْ وَعَابَهَا، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ أَعْظَمُوهُ وَنَاكَرُوهُ، وَأَجْمَعُوا خِلَافَهُ وَعَدَاوَتَهُ إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُمْ بِالإِسْلَامِ.

وَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَبْدَأَ الرَّسُولُ(ﷺ) دَعْوَتَهُ العَلَنِيَّةَ بِإِنْذَارِ عَشِيرَتِهِ الأَقْرَبِيْنَ، إِذْ إِنَّ مَكَّةَ بَلَدٌ تَوَغَّلَتْ فِيهِ الرُّوحُ القَبَلِيَّةُ، فَبَدْءُ الدَّعْوَةِ بِالعَشِيرَةِ قَدْ يُعِينُ عَلَى نُصْرَتِهِ، وَتَأْيِيدِهِ. كَمَا أَنَّ القِيَامَ بِالدَّعْوَةِ لِلإِسْلَامِ فِي مَكَّةَ لاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَثَرٌ خَاصٌّ لِمَا لِهَذَا البَلَدِ مِنْ مَرْكَزٍ دِيْنِيٍّ كَبِيرٍ، وَدُخُولُهَا الإِسْلَامَ لاَ بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ لَهُ وَقْعٌ كَبِيرٌ عَلَى بَقِيَّةِ القَبَائِلِ... عَلَى أَنَّ هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ رِسَالَةَ الإِسْلَامِ كَانَتْ فِي أَدْوَارِهَا الأُولَى مَحْدُودَةً بِقُرَيْشٍ، لِأَنَّ

الإِسْلَامَ كَمَا يَتَجَلَّى مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ اتَّخَذَ الدَّعْوَةَ فِي قُرَيْشٍ كَخُطْوَةٍ أُولَى لِتَحْقِيقِ رِسَالَتِهِ العَالَمِيَّةِ. وَالوَاقِعُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الآيَاتِ المَكِّيَّةِ كَانَتْ تَنُصُّ عَلَى أَنَّ القُرْآنَ ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأَمْرُ الَّذِي يُظْهِرُ أَنَّ فِكْرَةَ العَالَمِيَّةِ كَانَتْ قَائِمَةً مُنْذُ هَذَا الوَقْتِ المُبَكِّرِ.

مُعَارَضَةُ قُرَيْشٍ وَأَسَالِيبُهَا فِي مُقَاوَمَةِ الدَّعْوَةِ الإِسْلَامِيَّةِ:

لَمَّا بَلَغَ القُرَشِيِّينَ مَا أَكْرَمَ اللهُ(ﷻ) بِهِ رَسُولَهُ(ﷺ) مِنْ النُّبُوَّةِ رَاعَهُمْ ذَلِكَ وَكَبُرَ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُنْكِرُوا عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ دَعْوَتِهِ، حَتَّى عَابَ آلِهَتَهُمْ وَسَفَّه أَحْلَامَهُمْ، فَأَظْهَرُوا اسْتِيَاءَهُمْ مِنْ جَهْرِهِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ(ﷻ) خَشْيَةَ القَضَاءِ عَلَى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ الَّتِي كَانَ وُجُودُهَا فِي الكَعْبَةِ مَصْدَرًا مُهِمًّا لِثَرَوَاتِهِمْ، فَعَمِلُوا عَلَى مُنَاهَضَتِهِ وَعَادَوهُ، وَلَا شَكَّ أَنَّ قَبِيلَةَ قُرَيْشٍ وَغَيْرَهَا مِنَ القَبَائِلِ الوَثَنِيَّةِ كَانَتْ قَدِ اعْتَادَتْ أُسْلُوبًا مَادِيًّا فِي مُمَارَسَةِ عَقَائِدِهَا الدِّينِيَّةِ، فَكَانَ أَهْلُهَا يَتَوَجَّهُونَ بِعِبَادَتِهِمْ نَحْوَ صَنَمٍ يُقَدِّمُونَ إِلَيْهِ القَرَابِينَ وَيَلْتَمِسُونَ مِنْهُ تَحْقِيقَ رَغَبَاتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ الكَهَنَةِ، وَكَانَ هَذَا الأَمْرُ حَسَنًا بِالنِّسْبَةِ لَهُمْ لَا يُكَلِّفُهُمْ الكَثِيرَ، وَكَانَ أَيْسَرَ لَهُمْ مِنَ التَّأَمُّلِ وَالتَّفْكِيرِ فِي الْكَوْنِ وَخَالِقِهِ وَالاتِّجَاهِ بِالعِبَادَةِ إِلَى رَبٍّ وَاحِدٍ لَا يُشَاهِدُونَهُ وَلَيْسَتْ لَهُ صِفَاتٌ مَادِّيَّةٌ يُمْكِنُ لَهُمْ إِدْرَاكُهَا، كَذَلِكَ كَانَ نُفُوذُ قُرَيْش فِي ذَلِكَ الوَقْتِ مُرْتَبِطًا أَشَدَّ الارْتِبَاطِ بِعِبَادَةِ الأَصْنَامِ؛ الَّتِي جَمَعَهَا عَرَبُ الجَزِيرَةِ فِي الكَعْبَةِ فِي مَنْبَعِ نُفُوذِهِمْ، وَكَانَ وُجُودُ هَذِهِ الأَصْنَامِ فِي مَدِينَتِهِمْ سَبَبًا فِي وُفُودِ آلَافِ الحُجَّاجِ إِلَيْهِمْ كُلَّ عَامٍ، مِمَّا يَعْنِي أَنَّ هَذِهِ الدَّعْوَةَ سَوْفَ تُؤَثِّرُ سَلْبًا عَلَى وَسَائِلِ مَعَايِشِهِمْ، وَتِجَارَتِهِمْ الوَاسِعَةِ، وَمَكَانَتِهِمْ القَبَلِيَّةِ بَيْنَ القَبَائِلِ.

أَيْضًا كَانَ تَعَصُّبُ قُرَيْشٍ لِلعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ القَدِيمَةِ كَانَ حَائِلًا بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ الدُّخُولِ فِي دَعْوَةِ مُحَمَّدٍ(ﷺ)، فَكَانَ العَرَبُ فِي الجَاهِلِيَّةِ يَتَعَصَّبُونَ أَشَدّ التَّعَصُّبِ لِمَوْرُوثِ عَادَاتِهِمْ وَتَقَالِيدِ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ، حَتَّى أَقْرِبَاءُ الرَّسُولِ(ﷺ) مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَبَعْضُ أَعْمَامِهِ

لَمْ يُؤْمِنُوا بِالدَّعْوَةِ الجَدِيدَةِ، وَلَمْ يَعْتَنِقُوا هَذَا الدِّينَ الجَدِيدَ بِرَغْمِ وُقُوفِ بَعْضِهِمْ إِلَى جَانِبِهِ وَحِمَايَتِهِمْ إِيَّاهُ بِدَافِعِ عَصَبِيَّةِ العَشِيرَةِ، وَكَانَ عَلَى رَأْسِهِمْ أَبُو طَالِبٍ عَمُ الرَّسُولِ(ﷺ).

وَقَدْ زَادَ مِنْ مُعَارَضَةِ قُرَيْشٍ مَا اتَّضَحَ فِي هَذَا الدِّينِ الجَدِيدِ مِنْ جَانِبٍ اجْتِمَاعِيٍّ وَهُوَ دُخُولُ العَدِيدِ مِنْ الأَرِقَّاءِ وَالمَوَالِي فِي هَذَا الدِّينُ الذي يَجْعَلُ المُؤْمِنِينَ بِه سَوَاسِيَةً، وَلَا يَنْظُر إلى مَكَانَةٍ أَوْ لَوْنٍ أَوْ جِنْسٍ، فَخَافَتْ قُرَيْش مِمَّا قَدْ يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ خَلَلٍ فِي البُنْيَانِ الاجْتِمَاعِيِّ الْذِي دَرَجَتْ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ.

وَلَا يُسْتَبْعدُ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَيْنِ أَسْبَابِ رَفْضِ قُرَيْشٍ لِلدِّينِ الإِسْلَامِيِّ تَجَدُّدُ النِّزَاعِ القَدِيمِ عَلَى الزَّعَامَةِ بَيْنَ بَنِي هَاشِمٍ وَبِنِي أُمَيَّةَ، وَلِذَلِكَ نَجِدُ أَنَّ البَيْتَ الأُمَوِيَّ كَانَ مِنْ أَشَدِّ المُعَارِضِينَ لِلإِسْلَامِ؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ تَعُودَ الزَّعَامَةُ إِلَى بَنِي هَاشِمٍ إِذَا مَا نَجَحَتْ دَعْوَةُ الرَّسُولِ(ﷺ). كُلُّ هَذِهِ الأَسْبَابِ وَغَيْرُهَا كَانَتْ بِلَا شَكٍّ وَرَاءَ رَفْضِ قُرَيْشٍ لِلدِّينِ وَالعَمَلِ عَلَى مُنَاهَضَتِهِ.

كَانَ سَادَةُ قُرَيْشٍ يُدْرِكُونَ مَكَانَتَهُ العَصَبِيَّةَ، وَيَخْشَوْنَ خَطَرَهَا لَوْ تَعَرَّضُوا لِمُحَمَّدٍ(ﷺ) نَفْسِهِ بِالأَذَى، وَالعُدْوَانِ، لِذَلِكَ مَضَوْا إِلَى عَمِّهُ أَبي طَالِبٍ –شَيْخِ بَنِي هَاشِمٍ– الَّذِي لَمْ يَتَعَرَّضْ لِدَعْوَتِهِ، بَلْ ظَلّ يَعْطِفُ عَلَيْهِ، وَيَحْرِصُ عَلَى صَدِّ كُلِّ أَذًى عَنْهُ، فَسَارَ إِلَيْهِ فَرِيقٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَتَدَخَّلَ لِيَمْنَعَ مُحَمَّدًا(ﷺ) مِنَ التَّعَرُّضِ بِالسَّبِّ لآلِهَتِهِمْ، وَتَسْفِيهِ أَحْلَامِهِمْ فَقَالُوا لَهُ: "إِنَّ ابْنَ أَخِيكَ قَدْ سَبَّ آلِهَتَنَا وَعَابَ دِيْنَنَا وَسَفَّهَ أَحْلَامَنَا وَضَلَّلَ أَبْنَاءَنَا، فَإِمَّا أَنْ تَكفَّهُ عَنَّا، وَإِمَّا أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنَنَّا وَبِيْنَهُ، فَإِنَّكَ عَلَى مِثْلٍ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ خِلَافِهِ"، فَرَدَ عَلَيْهِمْ أَبُو طَالِبٍ رَدًّا جَمِيلًا، فَانْصَرَفُوا عَنْهُ.

ثُمَّ لَجَأَتْ قُرَيْشٌ إِلَى سِلَاحِ الإِغْرَاءِ، فَعَرَضَتْ عَلَى الرَّسُولِ(ﷺ) أَنَّ تُوَلِّيَهُ المُلْكَ عَلَيْهِمْ وَأَنْ تُعْطِيَهُ مَا يَطْلُبُهُ مِنَ الأَمْوَالِ والأَسْلَابِ عَلَى أَنَّ يَكُفَّ عَنْ دَعْوَتِهِ، وَمُهَاجَمَةِ أَوْثَانِهِمْ، وَحَدَثَهُ فِي ذَلِكَ زَعِيمُهُمْ عُتْبَةُ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمَّسٍ، فَرَدَّ عَلَيْهِ الرَّسُولُ(ﷺ)

بِقَوْلِهِ: "إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي رَسُولًا، وَأَنْزَلَ عَلِيِّ كِتَابًا وَأَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ بَشِيرًا، وَنَذِيرًا، فَبَلَّغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي، وَنَصَحَتْ لكُمْ، فَإِنْ تَقَبَلُوا مِنَى مَا جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلِيِّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللهِ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ".

لَمَّا رَأى القُرَشِيُّونَ أَنَّ جِدَالَهُمُ الرَّسُولَ(ﷺ) لَمْ يُجْدِهِمْ نَفْعًا، وَلَمْ يُضْعِفْ مِنْ نَشَاطِهِ فِي نَشْرِ الدِّينِ الإِسْلَامِيِّ، ذَهَبَ بَعْضُ رِجَالِهِمْ إِلَى أَحْبَارِ اليَهُودِ فِي يَثْرِبَ الَّذِينَ شَاعَ عَنْهُمْ لَدَى العَرَبِ مَعْرِفَتُهُمْ بِخَصَائِصِ النُّبُوَّةِ، وَطَلَبُوا مِنْهُمْ أَنْ يُدْلُوا بِرَأْيِهِمْ فِي الرَّسُولِ(ﷺ) بَعْدَ أَنْ أَخْبَرُوهُمْ بِحَالِهِ الَّذِي ظَهَرَ بِمَكَّةَ، فَقَالَ اليَهُودُ لَهُمْ: "سَلُوهُ عَنْ ثَلَاثَةٍ، فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ بِهِنَّ فَهُوَ نَبِيٌّ مُرْسَلُ، سَلُوهُ عَنْ فِتْيَةٍ ذَهَبُوا فِي الدَّهْرِ الأَوَّلُ؟ وَعَنْ رَجُلٍ طَوَافٍ؟ وَعَنْ الرُّوحِ؟".

فَذَهَبَ كُفَّارُ قُرَيْش بِهَذِهِ الأَسْئِلَةِ إِلَى الرَّسُولِ(ﷺ) فَلَمْ يَجِبُ عَنْهَا عَلَى الفَوْرِ، فَفَرِحْتْ عِنْدَئِذٍ قُرَيْشُ، لَكِنَّ اللّهَ تَعَالَى أَوْحَي إِلَيْهِ بِأَنَّ الفِتيَةَ هُمْ أَصْحَابُ الكَهْفِ، وَالرَّجُلَ الطَّوَافَ هُوَ ذُو القَرْنَيْنِ، أَمَّا الرُّوحُ فَقَدْ نَزَلَتِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ التي تَقُولُ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: آيَةُ ٨٥).

لَمَّا عَلِمَتْ قُرَيْشٌ بِإِجَابَةِ الرَّسُولِ(ﷺ) عَلَى الأَسْئِلَةِ الَّتِي وَجَّهَهَا أَحْبَارُ اليَهُودِ، اسْتَاءَتْ وَلَجَأَتْ بَعْدَ ذَلِكَ لِأُسْلُوبِ الحَرْبِ الكَلَامِيَّةُ ضِدَّ الرَّسُولِ(ﷺ) بِقَصْدِ التَّشْكِيكِ فِي رِسَالَتِهِ وَنُبُوَّتِهِ، فَاسْتَعَانُوا بالنَّضْرِ بْنِ الحَارِثِ، وَكَانَ بَصِيرًا بِثَقَافَاتِ الفُرْسِ القَدِيمَةِ، فَأَخَذَ يَرْوِي قِصَصًا يُحَاكِي بِهَا قِصَصَ القُرْآنِ، وَكَانَ يَدَّعِي بِأَنَّ مُحَمَّدًا(ﷺ) مَا يَقُولُ إِلَّا أَسَاطِيرَ الأَوَّلِينَ، فَأَنْزَلَ اللهُ قَوْلَهُ تَعَالى لِلرَّدِّ عَلَيْهِم: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦ ﴾ (سُورَةُ الفُرْقَان: آيَةُ ٥ – ٦).

وَقَالُوا أَيْضًا إِنَّ القُرْآنَ مِنْ وَضْعِ مُحَمَّدٍ(ﷺ) وَتَأْلِيفِهِ، وَإِنَّهُ اسْتَعَانَ فِي تَصْنِيفِ مَادَّتِهِ بِتَعَالِيمِ اليَهُودِ، وَالنَّصَارَى، وَإِنَّ عَدَدًا مِنْ أَحْبَارِ اليَهُودِ، وَرُهْبَانِ النَّصَارَى كَانُوا يَلْتَقُونَ بِمُحَمَّدٍ(ﷺ) وَيُزَوِّدُونَهُ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهُ فِي كِتَابِهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِمْ بِقُولِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (سُورَةُ النَّحَلِ: آيَةُ ١٠٣)، وَتَحَدَّى القُرْآنُ العَظِيمُ –وَمَا يَزَالُ– النَّاسَ جَمِيعًا، وَمَعَهُمْ الْجِنُّ جَمِيعًا أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالِي: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: آيَةُ ٨٨).

كَذَلِكَ لَجَأَتْ قُرَيْشٌ إِلَى تَرْوِيجِ شَائِعَاتٍ كَاذِبَةٍ ضِدَّ الرَّسُولِ(ﷺ)، فَأَشَاعَتْ فِي الأَسْوَاقِ، وَمَوَاسِمِ الحَجِّ أَنَّ الرَّسُولَ كَاهِنٌ، أَوْ سَاحِرٌ، أَوْ مَجْنُونٌ، وَذَلِكَ حَتَّى يَصُدُّوا النَّاسَ عَنْهُ وَيُشَكِّكُوهُمْ فِي دَعْوَتِهِ.

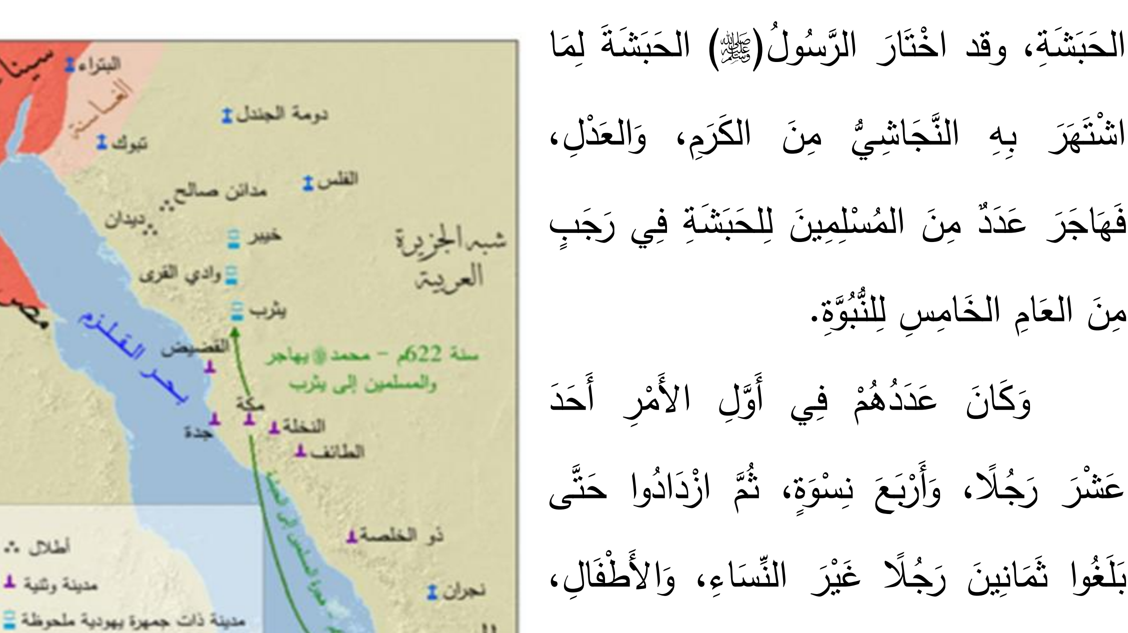
وَعِنْدَمَا فَشِلَتْ كُلُّ هَذِهِ الأَسَالِيبِ فِي صَدِّ الرَّسُولِ(ﷺ) عَنْ دَعْوَتِهِ لَجَأَتْ قُرَيْشٌ إِلَى الاضْطِهَادِ الشَّدِيدِ، وَالتَّعْذِيبِ البَالِغِ لِلمُسْلِمِينَ لِيَرُدُّوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، حَتَّى أَنَّ أَبَا جَهْلٍ (عمرو بْنِ هِشَامُ بِنْ المُغِيرَةِ) مَرَّ بِسُمَيَّةَ أَمِّ عَمَّارٍ بْنِ يَاسِرٍ(رضي الله عنه) وَهِيَ تُعَذَّبَ فَطَعَنَهَا بِحَرْبَةٍ أَصَابَتْ مِنْهَا مَقْتَلًا، وَكَانَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ يَضْرِبُونَ المُسْلِمِينَ، وَيَضَعُونَ الصُّخُورَ الضَّخْمَةَ عَلَى صُدُورِهِمْ فِي شِدَّةِ الحَرِّ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ(رضي الله عنه) إِذَا مَرّ بِأَحَدِ مِنَ العَبِيدِ يُعَّذَبُ اشْتَرَاهُ وَأَعْتَقَهُ، وَمِنْهُمْ بِلَالُ بْنُ رَبَاح(رضي الله عنه) وَعَامِرُ بِنُ فُهَيْرَةَ(رضي الله عنه).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: "قَال أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ؟" قَالَ: "فَقِيلَ: نَعَمْ"، فَقَالَ: "وَاللَّاتِ والعُزَّى! لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ

وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ. قَالَ: فَأَتَى رَسُولُ اللهِ(ﷺ) وَهُوَ يُصَلِّي، لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَاجَاهُمْ[1] مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ. قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَالَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ): "لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ المَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا".

الهِجْرَةُ الأُولَى وَالثَّانِيَةُ إِلَى الحَبَشَةِ:

عِنْدَمَا رَأَى الرَّسُولُ(ﷺ) أَثَرَ شِدَّةِ إِيذَاءِ قُرَيْشٍ لِلمُسْلِمِينَ أَمَرَهُمْ بِالهِجْرَةِ إِلَى الحَبَشَةِ، وقد اخْتَارَ الرَّسُولُ(ﷺ) الحَبَشَةَ لِمَا اشْتَهَرَ بِهِ النَّجَاشِيُّ مِنَ الكَرَمِ، وَالعَدْلِ، فَهَاجَرَ عَدَدٌ مِنَ المُسْلِمِينَ لِلحَبَشَةِ فِي رَجَبٍ مِنَ العَامِ الخَامِسِ لِلنُّبُوَّةِ.



وَكَانَ عَدَدُهُمْ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ أَحَدَ عَشْرَ رَجُلًا، وَأَرْبَعَ نِسْوَةٍ، ثُمَّ ازْدَادُوا حَتَّى بَلَغُوا ثَمَانِينَ رَجُلًا غَيْرَ النِّسَاءِ، وَالأَطْفَالِ، وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ عُثْمَانُ بنُ عَفَّانِ(ﷺ)، وَزَوْجَتُهُ رُقَيَّةُ بِنْتُ الرَّسُولِ(ﷺ) فَأَكْرَمَهُمْ النَّجَاشِيُّ وَأَمَّنَهُمْ.

ثُمَّ ذَاعَ بَيْنَ العَرَبِ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْهُمْ قَدْ فَرُّوا إِلَى الحَبَشَةِ، بِدِينٍ جَدِيدٍ تَلْقُوهُ عَنْ مُحَمَّدٍ(ﷺ) فَكَانَ هَذَا بِمَثَابَةِ دَعْوَةٍ إِلَى الإِسْلَامِ، مِمَّا دَفَعَ بِقُرَيْش أَنَّ تُرْسِلَ عَمْرو بْنِ العَاصِ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ يَحْمِلَانِ الهَدَايَا إِلَى النَّجَاشِيِّ وَبَطَارِقَتِهِ، وَقَالَا لَهُ: "أَيُّهَا المَلِكُ، إِنَّهُ قَدْ ضَوَى إِلَى بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ فَارَقُوا دِيْنَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي

(١) فَاجَاهُمْ: فَجِئَهُمْ.

دِينِكَ، وَجَاؤُوا بِدِيْنٍ ابْتَدَعُوهُ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ، وَلَا أَنْتَ وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَيْكَ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ، وَأَعْمَامِهِمْ، وَعَشَائِرِهِمْ لِتَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ".

فَبَعَثَ النَّجَاشِيُّ فِي طَلَبِ هَؤُلَاءِ المُسْلِمِينَ وَسَأَلَهُمْ: "مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلُوا بِهِ فِي دِينِيّ، وَلَا دِيْنِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ المِلَلِ؟" فَرَدَّ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالَبٍ قَائِلًا: "أَيُّهَا المَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهَّلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ المَيْتَةَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الجِوَارَ، وَيَأْكُلُ القَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبُهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتهُ، وعَفَافَهُ، فَدَعَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخَلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ، وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ، وَالأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَلَا نَشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مَنَ اللهِ، فَعَبَدْنَا اللهَ وَحْدَه، لَا نُشْرَكُ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دَيْنِنَا؛ لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الخَبَائِثِ. قَهَرُونَا، وَظَلَمُونَا، وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بيْنَنَا وَبَيْنَ دَيْنِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بِلَادِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوَنَا أَلَّا نُظْلَمَ عِنْدَكَ"، فَقَالَ النَّجَاشِيُّ: "هَلْ مَعَكَ، مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ شَيْءٌ تَقْرَؤهُ عَلَيَّ؟" قَالَ جَعْفَرُ: " نَعَمْ"، وَتَلَا مِنْ سُورَةِ مَرْيَمَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾(سُورَةُ مَرْيَمَ:آيَةُ ٢٩-٣٣).

دُهِشَ البَطَارِقَةُ وَقَالُوا: "هَذِهِ كَلِمَاتٌ تَصْدُرُ مِنَ النَّبْعِ الَّذِي صَدَرَتْ مِنْهُ كَلِمَاتُ سَيِّدِنَا يَسُوعُ المَسِيحُ"، وَقَالَ النَّجَاشِيُّ: "إِنَّ هَذَا والَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لِيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ

وَاحِدَةٍ، انْطَلِقَا، وَاللهِ لَا أُسَلِّمُهُمْ إِلَيْكُمَا". وَقَدْ عَادَ هَؤُلَاءِ المُهَاجِرُونَ إِلَى المَدِينَةِ بَعْدَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ(ﷺ).

عَلَى أَنَّ بَعْضَ المُهَاجِرِينَ المُسْلِمِينَ الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى بِلَادِ الحَبَشَةِ مَا لَبِثُوا أَنْ عَادُوا إِلَى مَكَّةَ، حِينَ شَاعَ بَيْنَهُمْ نَبَأُ دُخُولِ قُرَيْشٍ فِي الإِسْلَامِ، فَلَمَّا قَدَمُوا إِلَيْهَا تَبَيَّنَ لَهُمْ عَدَمُ صِحَّةِ هَذَا النَّبَأِ، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمْ قَوْمُهُمْ؛ فَأَذِنَ لَهُمْ الرَّسُولُ(ﷺ) فِي الخُرُوجِ إِلَى الحَبَشَةِ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَاقَوْا فِي خُرُوجِهِمْ مَشَقَّةً عَظِيمَةً، وَقَدْ تَتَابَعَ المُسْلِمُونَ فِي الهِجْرَةِ مِنْ مَكَّةَ، فَهَاجَرَ إِلَيْهَا ثَانِيَةً مِنَ الرِّجَالِ ثَلَاثَةٌ وَثَمَانُونَ، وَمِنَ النِّسَاءِ ثماني عَشْرَةَ امْرَأَةً، فَأَكْرَمَهُمْ نَجَاشِيُّ الحَبَشَةِ، وَأَمَّنَهُمْ عَلَى حَيَاتِهِمْ.

<u>مُقَاطَعَةُ قُرَيْشٍ لِبَنِي هَاشِمٍ وَنَقْضُهَا:</u>

لَمَّا عَجَزَتْ قُرَيْشٌ عَنْ النَّيلِ مِنْ مُحَمَّدٍ(ﷺ) مَا لَبِثَ أَشْرَافُ قُرَيْشٍ أَنْ ذَهَبُوا إِلَى أَبِي طَالِبٍ مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ أَنْ ذَاعَ أَمْرُ الدَّعْوَةِ فِي مَكَّةَ، وَخَشِيَ القُرَشِيُّونَ مِنْ ضَيَاعِ أَمْرِهِمْ، وَهَيْبَتِهِمْ فَقَالُوا لَهُ: "يَا أَبَا طَالَبٍ إِنْ لَكَ سِنًّا، وَشَرَفًا، وَمَنْزِلَةً فِينَا، وَإِنَّا قَدْ اسْتَنْهَيْنَاكَ عَنْ ابْنِ أَخِيكَ فَلَمْ تَنْهَهُ عَنَّا، وإنا وَاللهِ مَا نَصْبِرُ عَلَى هَذَا مِنْ شَتْمِ آبَائِنَا، وَتَسْفِيهِ أَحْلَامِنَا، وَعَيْبِ آلِهَتِنَا حَتَّى تَكُفَّهُ عَنَّا، أَوْ نُنَازِلَهُ، وَإِيَّاكَ، حَتَّى يَهْلَكَ أَحَدُ الطَّرَفَيْنِ".

عَظُمَ عَلَى أَبِي طَالِبٍ فِرَاقُ قَوْمِهِ، وَعَدَاوَتُهُمْ، وَظَهَرَ لَهُ مَدَى تَصْمِيمِ قُرَيْش عَلَى مُقَاوَمَةِ الدِّين الإِسْلَامِيِّ بِالقُوَّةِ وَخَشِيَ مِنْهَا عَلَى ابْنِ أَخِيه، فَبَعَثَ إِلَى الرَّسُولِ(ﷺ)، وَحَدَّثَهُ عَمَّا قَالَهُ قَوْمُهُ، فَظَنَّ (ﷺ) أَنَّهُ قَدْ ضَعُفَ عَنْ نُصْرَتِه، وَمُؤَازَرَتِهِ، وَقَالَ لَهُ فِي عَزْمٍ وَشَجَاعَةٍ: "يَا عَماهُ وَاللهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ الله، أَوْ أَهْلِكَ دُونَهُ، مَا تَرَكْتُهُ"، فَأُعْجِبَ أَبُو طَالِبٍ بِقُوَّةِ

عَزِيمَةِ مُحَمَّدٍ(ﷺ) وَشِدَّةِ إِيمَانِهِ بِصِدْقِ دَعْوَتِهِ، فَقَالَ لَهُ: "اذْهَبْ يَا ابْنَ أَخِي فَقُلْ مَا أَحْبَبْتَ فَوَاللهِ لَا أُسَلِّمُكَ لِشَيْءٍ أَبَدًا".

ثُمَّ إِنَّ قُرَيْشًا سَعَوْا إِلَى أَبِي طَالِب مَرَّةً أُخْرَى وَمَعَهُمْ عِمَارَةُ بنُ الوَلِيدِ بْنِ المُغِيرَةِ، فَقَالُوا لَهُ: "يَا أَبَا طَالَبِ هَذَا عِمَارَةُ بْنُ الوَلِيدِ أَنْهَدُ فَتًى فِي قُرَيْشٍ وَأَجْمَلُهُ، فَخُذْهُ، وَاتَّخِذْهُ وَلَدًا، وَأَسْلِمْ لَنَا ابْنَ أَخِيكَ هَذَا الَّذِي قَدْ خَالَفَ دِينَكَ، وَدِيْنَ آبَائِكَ، وَفَرَّقَ جَمَاعَةَ قَوْمِكَ، وَسَفَّهَ أَحْلَامَهُمْ فَنَقْتُلَهُ، فَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ بِرَجُلٍ"، فَقَالَ: "وَاللهِ لَبِئسَ مَا تُسَوِّمُونَنِي[1] أَتُعْطُونِي ابْنَكُمْ أَغَذُوْهُ لَكُمْ وَأُعْطِيكُمْ ابْنِي تَقْتُلُونَهُ؟! هَذَا وَاللهِ مَا لَا يَكُونُ أَبَدًا"، فَقَالَ المُطْعِمُ بْنُ عُدَىِّ بْنِ نَوْفَلٍ: "وَاللهِ يَا أَبَا طَالَبِ لَقَدْ أَنْصَفَكَ قَوْمُكَ، وَجَهَدُوا عَلَى التَّخَلُّصِ مِمَّا تَكْرَهُهُ، فَمَا أَرَاكَ تُرِيدُ أَنْ تَقْبَلَ شَيْئًا"، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ لِلمُطْعِمِ: "وَاللهِ مَا أَنصَفُونِي وَلَكِنَّكَ قَدْ أَجْمَعْتَ خِذْلَانِي وَمُظَاهَرَةَ القَوْمِ عَلَيَّ، فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَكَ.

فَاتَّفَقَتْ قُرَيْشٌ عَلَى أَنْ يُقَاطِعُوا بَنِي هَاشِمٍ، وَبَنِي عَبْد المُطَّلِبِ مُقَاطَعَةً تَامَّةً فَلَا يُصَاهِرُونَهُمْ، وَلَّا يُتَاجِرُونَ مَعَهُمْ، وَلَا يُنَاصِرُونَهُمْ، وَعَلَّقُوا صَحِيفَةَ المُقَاطَعَةِ بِالكَعْبَةِ فَاضْطَرَّ بَنُو هَاشِمٍ، وَبَنَوْ المُطَّلِبِ إِلَى النُّزُوحِ إِلَى شَعْبِ أَبِي طَالَبِ بِشَرْقِ مَكَّةَ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ المُقَاطَعَةَ الاقْتِصَادِيَّةَ، الاجْتِمَاعِيَّةَ، السِّيَاسِيَّةَ سَتَضْطَرُّ بَنِي هَاشِمٍ وَالمُطَّلِبِ إِلَى تَسْلِيمِ الرَّسُولِ(ﷺ) إِلَيْهِمْ، كَمَا لَمْ يَقِفُوا عِنْدَ حَدِّ المُقَاطَعَةِ، بَلْ ازْدَادُوا فِي إِيذَاءِ المُسْلِمِينَ بِشَتَّى الوَسَائِلِ، وَظَلَّ هَذَا الحِصَارُ حَوَالَيْ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ.

لَكِنَّ الرَّسُولَ(ﷺ) لَمْ يَزِدْ مَعَ ذَلِكَ إِلَّا اعْتِصَامًا وَتَمَسُّكًا بِدِينِ اللهِ، وَازْدَادَ أَصْحَابُهُ وَأَتْبَاعُهُ تَعَلُّقًا بِدِينِ الإِسْلَامِ، بَلْ إِنَّ هَذِهِ المُقَاطَعَةَ سَاعَدَتْ عَلَى نَشْرِ الدِّين بِيْنَ بَاقِي أَجْزَاءِ شِبْهِ الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ. وَظَلَّ الرَّسُولُ(ﷺ) وَالمُسْلِمُونَ مِنْ خَلْفِهِ يُعَانُونَ آلَامَ المُقَاطَعَةِ، وَالجُوعِ، وَلَمْ يَكُنْ يُتَاحُ لَهُمْ الاخْتِلَاطُ بِغَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فِي الأَشْهُرِ الحُرُمِ،

(١) تُسَوِّمُونَنِي: تُكَلِّفُونَنِي وَتُرْهِقُونَنِي.

حِينَ يَفِدُ العَرَبُ إِلَى مَكَّةَ لِزِيَارَةِ البَيْتِ الحَرَامِ، حَيْثُ كَانَ الرَّسُولُ(ﷺ) يَنْتَهِزُ فُرْصَةَ الحَجِّ وَيَدْعُو القَبَائِلَ إِلَى الإِسْلَامِ. إِلَّا أَنَّ طُولَ مُدَّةِ الحِصَارِ، وَمَا لَاقَاهُ المُسْلِمُونَ مِنْ ضِيقٍ، وَأَلَمٍ جَعْلَ أَبْنَاءَ عُمُومَتِهِمْ وَأَصْهَارَهُ فِي قُرَيْشٍ يَشْعُرُونَ بِفَدَاحَةِ مَا ارْتَكَبُوا مِنْ إِثْمٍ ضِدَّ إِخْوَانِهِمْ.

فَدَفَعَتْ هَذِهِ العَاطِفَةُ بَعْضَ شَبَابِ قُرَيْشٍ إِلَى إِمْدَادِ الرَّسُولِ(ﷺ) وَأَتْبَاعِهِ بِالمُؤَنِ، وَالطَّعَامِ سِرًّا، وَكَانَ فِي مُقَدَّمَةِ هَؤُلَاءِ زُهَيْرُ بْنُ أُمَيَّةَ الَّذِي طَافَ بِالبَيْتِ سَبْعَ مَرَّاتٍ وَنَادَى فِي النَّاسِ: "يَا أَهْلَ مَكَّةَ، أَنَأْكُلُ الطَّعَامَ، وَنَلْبَسُ الثِّيَابَ، وَبَنُو هَاشِمٍ هَلْكَى لَا يَبْتَاعُونَ، وَلَا يُبْتَاعُ مِنْهُمْ، وَاللهِ لَا أَقْعُدُ حَتَّى تُشَقَّ هَذِهِ الصَّحِيفَةُ القَاطِعَةُ الظَّالِمَةُ".

فَوَافَقَتْهُ الأَغْلَبِيَّةُ السَّاحِقَةُ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانَ عَلَى رَأْسِ المُعَارِضِينَ أَبُو جَهْلٍ، وَتَوَجَّهُوا إِلَى الكَعْبَةِ لِتَمْزِيقِ الصَّحِيفَةِ فَوَجَدُوا الأَرَضَةَ قَدْ أَكَلَتْهَا عَدَا "بِاسْمِكَ اَللَّهُمَّ"(١)، وَبِذَلِكَ فَشِلَتْ قُرَيْشٌ أَيْضًا فِي تَحْقِيقِ أَهْدَافِهَا مِنْ هَذَا الحِصَارِ.

عَامُ الحُزْنِ:

بَعْدَ انْتِهَاءِ المُقَاطَعَةِ أَلَمَّ بِالرَّسُولِ(ﷺ) حَدَثَانِ جَلِيلَانِ: أَوَّلُهُمَا وَفَاةُ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، فِي نِصْفِ شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ مِنْ بِعْثَتِهِ الشَّرِيفَةِ، وَالثَّانِي وَفَاةُ زَوْجَتِهِ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ، بعده بشهر وخمسة أيام، وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ لَا يَزَالُ عَلَى دِينِ آبَائِهِ، إِلَّا أَنَّهُ تَكَفَّلَ بِحِمَايَةِ الرَّسُولِ(ﷺ) وَالدِّفَاعِ عَنْهُ.

نَشْرُ الدَّعْوَةِ خَارِجَ مَكَّةَ (الطَّائِف) وَالقَبَائِلُ الَّتِي عَرَضَ عَلَيْهَا الإِسْلَامُ:

بَدَأَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) يُفَكِّرُ جِدِّيًّا فِي مُفَارَقَةِ دِيَارِ آبَائِهِ إِلَى دِيَارٍ أُخْرَى، يَلْتَمِسُ فِيهَا النُّصْرَةَ، وَالمَعُونَةَ، فَخَرَجَ بِصُحْبَةِ مَوْلَاهُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ إِلَى مَدِينَةِ الطَّائِفِ –ثَانِيَةِ كُبْرَى

(١) ذَكَرَ الْبَيْهَقِيُّ: أَنَّ الأرضه أَزَالَتْ كُلَّ اسْمٍ للهِ(ﷻ) بِالصَّحِيفَةِ، وَبَقِيَ الظُّلْمُ وَالْبُهْتَانُ، فَأَخْبَرَ أَبُو طَالِبٍ قُرَيْشٍ أَنَّ اللهَ(ﷻ) بَرِئَ مِنْ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَزَالَ اسْمَهُ مِنْ عَلَيْهَا، فَفَتَحُوهَا فَوَجَدُوا مَا ذَكَرَ.

مُدُنِ الحِجَازِ يَلْتَمِسُ النُّصْرَةَ مِنْ سَادَتِهَا مِنْ بَنِي ثَقِيفٍ وَيَمْتَنِعُ بِهِمْ مِنْ قَوْمِهِ، وَجَلَسَ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْ سَادَاتِهَا وَأَشْرَافِهَا وَدَعَاهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُجِيبُوهُ إِلَى مَا أَرَادَ، وَأَخَذُوا يَتَهَكَّمُونَ عَلَيْهِ، وَأَغْرَوْا بِهِ سُفَهَاءَهُمْ، فَصَارُوا يَرْمُونَهُ بِالحِجَارَةِ، وَزَيْدٌ بْنُ حارثة يَقِيهُ بِنَفْسِهُ حَتَّى شَجَّ رَأْسَهُ الشَّرِيفَ.

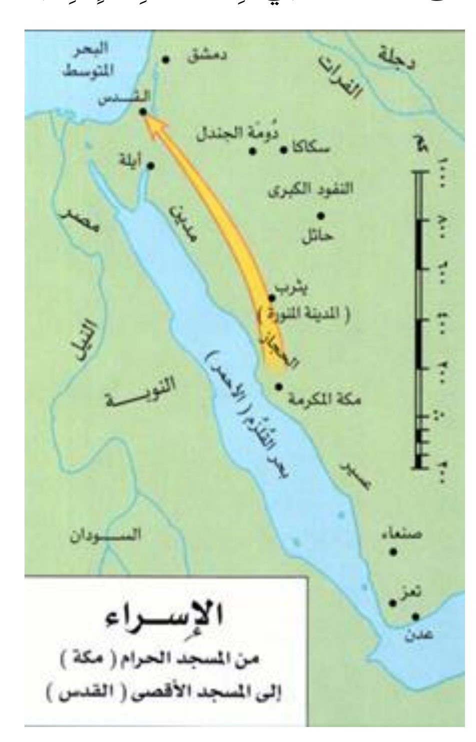
وَالْتَجَأَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) إِلَى حَائِطِ بُسْتَانٍ لَبَنِي رَبِيعَةَ فَاحْتَمَى بِهِ، وَرَفَعَ عَلَيْهِ الصّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ ضَارِعًا إِلَى اللهِ(ﷻ) بُقُولَهُ: "اَللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضُعْفَ قَوَّتِي وَقِلَّةَ حِيلَتِي وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ أَنْتَ رُبُّ المُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتِ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي أَوْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبِكَ أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ، لَكَ العتبى حَتَّى تَرْضَى وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ".



ثُمَّ عَادَ الرَّسُولُ(ﷺ) إِلَى مَكَّةَ حَزِينًا مَقْهُورًا –غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ عَلَى تَصْمِيمِهِ وَعَزَمِهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى دِينِ اللهِ(ﷻ)– وَلَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ دُخُولِ بَلَدِهِ مَكَّةَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَجَارَهُ مُطْعِمُ بْنُ عُدَيّ، زَعِيمُ بَنَى نَوْفَلِ مِنْ قُرَيْشٍ، فَدَخَلَهَا فِي حِمَايَتِهِ وَحِمَايَةِ أَبْنَائِهِ.

أَرَادَ اللهُ(ﷻ) أَنْ يُخَفِّفَ عَنْ رَسُولِهِ(ﷺ) وَيَزِيدَ فِي تَكْرِيمِهِ، وَتَثْبِيتِهِ فَأَسْرَى بِهِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى، وَقَدْ وَرَدَ ذِكْرُ الإِسْرَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

ثم عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَوَاتِ العُلَى، إِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهَى حَيْثُ حَظِيَ بِالحَضْرَةِ الإِلَهِيَّةِ، عِنْدَهَا فُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، قَالَ النَّبِيُّ(ﷺ): "بَيْنَا أَنَا عِنْدَ الْبَيْتِ بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ وَذَكَرَ يَعْنِي رَجُلًا بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ فَأُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُلِئَ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فَشُقَّ مِنَ النَّحْرِ إِلَى مَرَاقِّ الْبَطْنِ ثُمَّ غُسِلَ الْبَطْنُ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ مُلِئَ حِكْمَةً وَإِيمَانًا وَأُتِيتُ بِدَابَّةٍ أَبْيَضَ دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ الْبُرَاقُ فَانْطَلَقْتُ مَعَ جِبْرِيلَ حَتَّى أَتَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا قِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ جِبْرِيلُ قِيلَ مَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ قِيلَ



الإسراء
من المسجد الحرام (مكة)
إلى المسجد الأقصى (القدس)

وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ قَالَ نَعَمْ قِيلَ مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَأَتَيْتُ عَلَى آدَمَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ مَرْحَبًا بِكَ مِنِ ابْنٍ وَنَبِيٍّ فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ قِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ جِبْرِيلُ قِيلَ مَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ قِيلَ أُرْسِلَ إِلَيْهِ قَالَ نَعَمْ قِيلَ مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَأَتَيْتُ عَلَى عِيسَى وَيَحْيَى فَقَالَا مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الثَّالِثَةَ قِيلَ مَنْ هَذَا قِيلَ جِبْرِيلُ قِيلَ مَنْ مَعَكَ قِيلَ مُحَمَّدٌ قِيلَ وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ قَالَ نَعَمْ قِيلَ مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَأَتَيْتُ عَلَى يُوسُفَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ قَالَ مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ قِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ جِبْرِيلُ قِيلَ مَنْ مَعَكَ قِيلَ مُحَمَّدٌ قِيلَ وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ قِيلَ نَعَمْ قِيلَ مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَأَتَيْتُ عَلَى إِدْرِيسَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ

الْخَامِسَةَ قِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ جِبْرِيلُ قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ قِيلَ مُحَمَّدٌ قِيلَ وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ قَالَ نَعَمْ قِيلَ مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَأَتَيْنَا عَلَى هَارُونَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ فَأَتَيْنَا عَلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ قِيلَ مَنْ هَذَا قِيلَ جِبْرِيلُ قِيلَ مَنْ مَعَكَ قِيلَ مُحَمَّدٌ قِيلَ وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَأَتَيْتُ عَلَى مُوسَى فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ فَلَمَّا جَاوَزْتُ بَكَى فَقِيلَ: مَا أَبْكَاكَ قَالَ يَا رَبِّ هَذَا الْغُلَامُ الَّذِي بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَفْضَلُ مِمَّا يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ السَّابِعَةَ قِيلَ مَنْ هَذَا قِيلَ جِبْرِيلُ قِيلَ مَنْ مَعَكَ قِيلَ مُحَمَّدٌ قِيلَ وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَأَتَيْتُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ مَرْحَبًا بِكَ مِنْ ابْنٍ وَنَبِيٍّ فَرُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ وَرُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى فَإِذَا نَبِقُهَا كَأَنَّهُ قِلَالُ هَجَرَ وَوَرَقُهَا كَأَنَّهُ آذَانُ الْفُيُولِ فِي أَصْلِهَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَفِي الْجَنَّةِ وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ النِّيلُ وَالْفُرَاتُ ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ صَلَاةً فَأَقْبَلْتُ حَتَّى جِئْتُ مُوسَى فَقَالَ مَا صَنَعْتَ قُلْتُ فُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ صَلَاةً قَالَ أَنَا أَعْلَمُ بِالنَّاسِ مِنْكَ عَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ وَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَلْهُ فَرَجَعْتُ فَسَأَلْتُهُ فَجَعَلَهَا أَرْبَعِينَ ثُمَّ مِثْلَهُ ثُمَّ ثَلَاثِينَ ثُمَّ مِثْلَهُ فَجَعَلَ عِشْرِينَ ثُمَّ مِثْلَهُ فَجَعَلَ عَشْرًا فَأَتَيْتُ مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ فَجَعَلَهَا خَمْسًا فَأَتَيْتُ مُوسَى فَقَالَ مَا صَنَعْتَ قُلْتُ جَعَلَهَا خَمْسًا فَقَالَ مِثْلَهُ قُلْتُ سَلَّمْتُ بِخَيْرٍ فَنُودِيَ إِنِّي قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي وَأَجْزِي الْحَسَنَةَ عَشْرًا".

ازْدَادَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) قُوَّةً وَثَبَاتًا فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ لِدِينِ اللهِ(ﷻ) وَكَانَ يَنْتَهِزُ فُرَصَ مَوْسِمِ الحَجِّ، وَيَلْتَقِي بِالقَبَائِلِ، وَالوُفُودِ القَادِمَةِ إِلَى مَكَّةَ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَيَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يُصَدِّقُوهُ، وَيَمْنَعُوهُ حَتَّى يَنْشُرَ رِسَالَةَ رَبِّهِ، لَكِنَّ هَذِهِ القَبَائِلَ كَانَتْ تَخْشَى قُرَيْشًا

وَبَطْشَهَا، وَتَخَافُ عَلَى مَصَالِحِهَا لَوْ أَعْلَنَتْ عَدَاءَهَا لِقُرَيْشٍ، لِذَلِكَ رَفَضُوا دَعْوَتَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَفَضَهَا فِي لِينٍ وَأَدَبٍ مِثْلَ: كِنْدَة، وَكَلْبٍ، وَمِنْهِمْ مِنْ رَفَضَهَا فِي وَقَاحَةٍ مِثْلَ: بَنِي حَنِيفَة، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَشْتَرِطُ عَلَى الرَّسُولِ(ﷺ) أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الأَمَرُ بَعْدَ النَّصْرِ مِثْلَ: بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ.

ثُمَّ وَجَدَ الرَّسُولُ(ﷺ) ضَالَّتَهُ فِي قَبِيلَتَيْ الأَوْسِ، والخَزْرَجِ، وَكَانَتْ هَاتَانِ القَبِيلَتَانِ تَسْكُنَانِ يَثْرِبَ، وَتَسْمَعَانِ مِنْ يَهُودِ تِلْكَ المَدِينَةِ أَنَّ نَبِيًّا سَيُبْعَثُ، وَيَتَوَعَّدُونَهُمْ بِهِ إِذَا حَارَبُوهُمْ، فَكَانَتْ هُنَاكَ فِكْرَةٌ عَنْ دِينٍ جَدِيدٍ سَوْفَ يَظْهَرُ، وَلَمَّا رَأَى القَادِمُونَ مِنَ الخَزْرَجِ عَلَامَاتِ الصِّدْقِ بَادِيَةً عَلَى مُحَمَّدٍ(ﷺ) قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: "وَاللهِ هَذَا هُوَ الَّذِي تَوَعَّدَكُمُ اليَهُودُ بِهِ، فَلَا يَسْبِقُوكُمْ إِلَيْهُ"، ثُمَّ انْصَرَفُوا إِلَى بَلَدِهِمْ

<u>بِيعتَا العَقَبَةُ الأُولَى وَالثَّانِيَةُ:</u>

فَلْمَا تَوَجُّهٌ هَؤُلَاءِ القَوْمُ إِلَى يَثْرِبَ، ذَكَرُوا لَهُمْ رَسُولَ اللهِ(ﷺ)، وَدَعَوْهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ. حَتَّى فَشَا فِيهِمْ فَلَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ يَثْرِبَ إِلَّا وَفِيهَا ذِكْرُ رَسُولِ اللهِ(ﷺ).

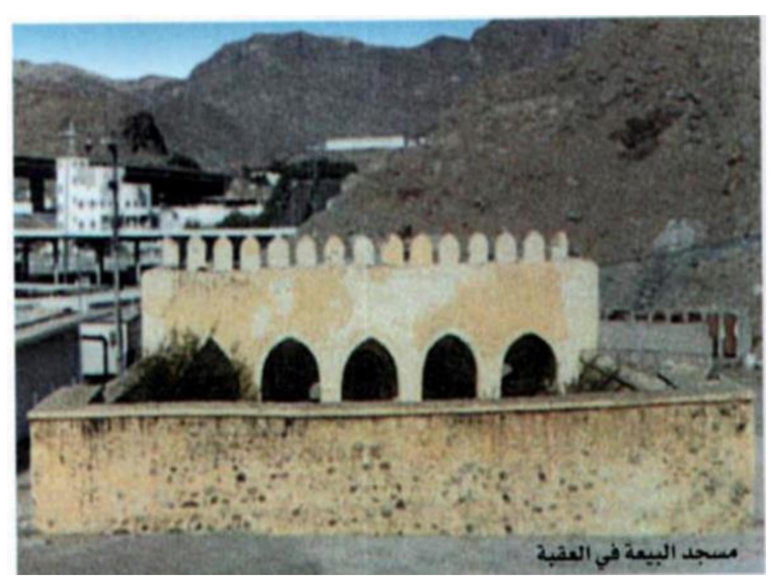
كَانَ لِإِسْلَامِ هَذِهِ الجَمَاعَةِ السَّرِيعِ دَوَافِعُهُ، فَلَقَدْ كَانَ يَهُودُ يَثْرِبَ –كَمَا ذَكَرْتُ سَابِقًا– يُعَيِّرُونَ العَرَبَ بِوَثَنِيَّتِهِمْ، وَيُهَدِّدُونَهُمْ بِقُرْبِ ظُهُورِ نَبِيٍّ قَدْ أَطَلَّ زَمَانُهُ يَتَّبِعُونَهُ، فَيَقْتُلُونَهُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمَ. كَمَا كَانَ الخَزْرَجُ حَدِيثِي عَهْدٍ بِهَزِيمَةِ يَوْمِ بعاث، فَخَشِيَ الخَزْرَجُ أَنْ يُسَبِقَهُمْ الأَوْسُ إِلَيْهِ، أَوْ أَنْ يَسْبِقَهُمْ اليَهُودُ إِلَيْهِ فَيَتَحَقَّقُ بِذَلِكَ تَهْدِيدُهُمْ لَهُمْ.

فلَمَّا كَانَ العَامُ المُقْبِلُ وَفَدَ إِلَى مَكَّةَ اثْنَا عَشْرَ رَجُلًا، مِنْهُمْ: تِسْعَةٌ مِنَ الخَزْرَجِ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الأَوْسِ، فَلَمَّا قَابَلَهُمْ الرَّسُولُ(ﷺ) خَاطَبُهُمْ: "يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، تَكَلَّمُوا وَأَوْجِزُوا، فَإِنَّ عَلَيْنَا عُيُونًا. فَقَالَ أَحَدُهُمْ: "يَا رَسُولَ اللهِ، اشْتَرِطْ لِرَبِّكَ، وَاشْتَرِطْ لِنَفْسِكَ، وَاشْتَرِطْ لِأَصْحَابِكَ. فَقَالَ(ﷺ): "أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعَبْدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَشْتَرِطُ لِنَفْسِيَ أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ؛ وَأَشْتَرِطُ لِأَصْحَابِي المُوَاسَاةَ مِنْ

ذَاتِ أَيْدِيكُمْ". قَالُوا: "هَذَا لَكَ؛ فَمَا لَنَا"، قَالَ: "الجَنَّةُ". قَالُوا: "أُبْسِطْ يَدَكَ"، فَبَايَعُوا الرَّسُولَ(ﷺ).

وَتُعْرَفُ تِلْكَ البَيْعَةُ بِبَيْعَةِ العَقَبَةِ الأُولَى، كَمَا تُعْرفُ أَيْضًا بِـ"بَيْعَةِ النِّسَاءِ"، لِأَنَّ الرَّسُولَ(ﷺ) بَايَعَ النِّسَاءَ حِينَ أَسْلَمْنَ عِنْدَ فَتْحِ مَكَّةَ عَلَى شُرُوطِهَا نَفْسِهَا، وَهِيَ: "أَلَّا يُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا يَسْرِقُوا، وَلَا يَزْنُوا، وَلَا يَقْتُلُوا أَوْلَادَهُمْ، وَلَا يَأْتُوا بِبُهْتَانٍ يَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَأَرْجُلِهِمْ، وَلَا يَعْصُونَ فِي مَعْرُوفٍ".

وَبَعَثَ مَعَهُمْ الرَّسُولُ(ﷺ) مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ(رضي الله عنه) لِيَقْرَأَ القُرْآنَ الكَرِيمَ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ(ﷻ)، وَلَمْ يَنْتَهِ هَذَا العَامُ حَتَّى أَصْبَحَتْ كُلُّ أُسْرَةٍ فِي المَدِينَةِ تَضُمُّ بَعْضًا مِمَّنْ دَخَلَ فِي الإِسْلَامِ عَلَى يَدِ مَصْعَبٍ(رضي الله عنه).


مسجد البيعة في العقبة

وَفِيٌّ العَامِ التَّالِي خَرَجَ مِنْ يَثْرِبَ ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ رَجُلًا وَامْرَأَتَانِ مِنَ الأَوْسِ والخَزْرَجِ، الَّذِينَ أَسْلَمُوا حَدِيثاً قَاصِدَيْنِ مَكَّةَ، وَكَانَ خُرُوجُهُمْ بِصُحْبَةِ الحُجَّاجِ المُشْرِكِينَ مِنْ قَوْمِهِمْ، مِنْ دُونِ أَنْ يُعْلِنُوا عَنْ إِيمَانِهِمْ، وَكَانَ مَوْعِدُهُمْ مَعَ الرَّسُولِ(ﷺ) بَعْدَ انْتِهَاءِ الحَجِّ فِي أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ.

فَلَمَّا جَاءَتِ اللَّيْلَةُ المَوْعُودَةُ، خَرَجُوا مُتَسَلِّلِيْنَ لَيْلًا، حَتَّى اجْتَمَعُوا مَعَ الرَّسُولِ(ﷺ) فَتْلا الرَّسُولُ القُرْآنَ الكَرِيمَ، وَدَعَا إِلَى اللهِ(ﷻ) وَرَغَّبَ فِي الإِسْلَامِ، ثُمَّ قَالَ: "أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنَّ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ"، فَأَخَذَ أَحَدُهُمْ بِيَدِ الرَّسُولِ(ﷺ) وَقَالَ:

"نَعَمْ، وَالَّذِي بَعُثَكَ بِالحَقِّ، لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَزرَّتَنَا... فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَنَحْنُ، وَاللهِ، أَهْلُ الحُرُوبِ وَأَهْلُ الحَلْقَةِ وَرِثْنَاهَا كَابِرًا"، وَقَالَ آخَرُ: "يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ حِبَالًا، وإنّا قَاطعوهَا -يَعْنِي اليَهُودَ- فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ، ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللهُ، أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدَعَنَا؟ فَتَبَسَّمَ رَسُولُنَا الكَرِيمُ(ﷺ) وَقَالَ:" بَلْ الدَّمُ، الدَّمُ؛ وَالهَدْمُ، الهَدْمُ. أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي. أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ".

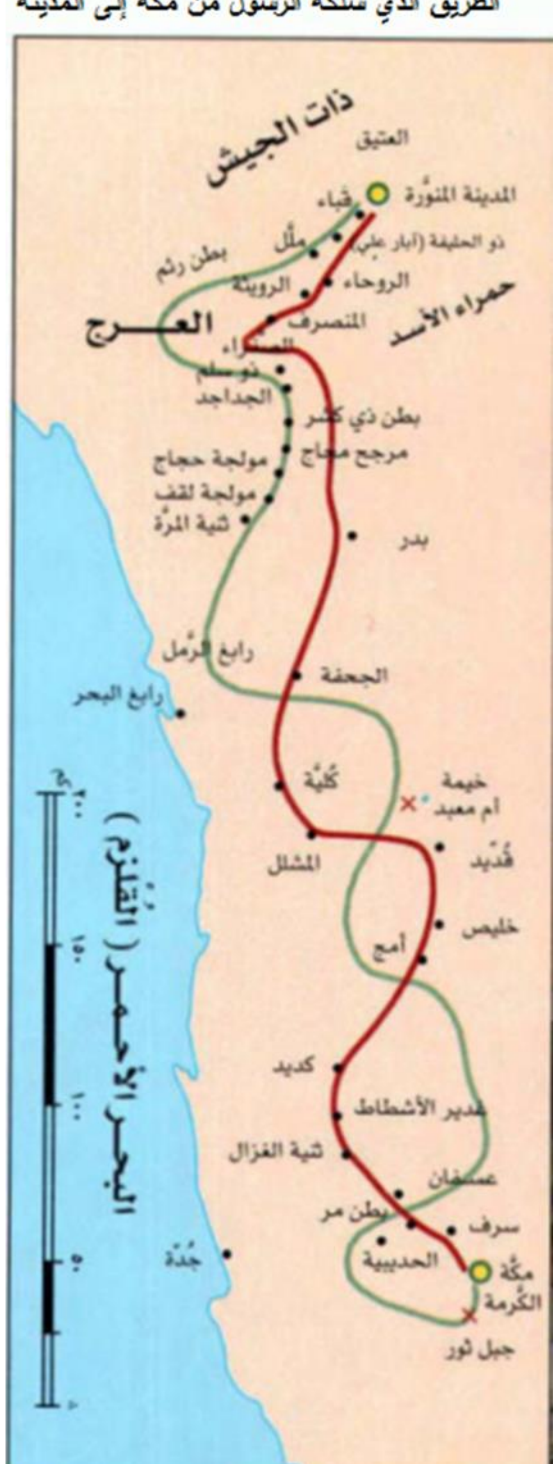
فَبَايَعُوهُ بَيْعَةَ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ، وَقَدْ حَضَرَ هَذِهِ البَيْعَةَ مَعَ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) عَمُّهُ العَبَّاسُ بْنُ عَبْد المُطَّلِبِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عَلَى دِيْنِ قَوْمِهِ، إِلَّا أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَّ ابْنِ أَخِيهِ وَيَتَوَثَّقَ لَهُ.

وَفَّى العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ اسْتَوْثَقَ الطَّرَفَانِ كُلٌّ لِنَفْسِهُ، وَتُسَمَّى بَيْعَةُ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ بِبَيْعَةِ "العَقَبَةِ الكُبْرَى" أَوْ "بَيْعَةِ الحَرْبِ"، وَلَمَّا تَمَّتِ البَيْعَةُ طَلَبَ مِنْهُمُ الرَّسُولُ(ﷺ) أَنْ يَخْرُجُوا لَهُ مِنْ بَيْنَهِمْ اِثْنَيْ عَشْرَ نَقِيبًا لِيَكُونُوا كُفَلَاءَ عَلَيْهِمْ، فَأَخْرَجُوا تِسْعَةً مِنَ الخَزْرَجِ وَثَلَاثَةً مِنَ الأَوْسِ، وَجَعَلَ أَحَدَهُمْ نَقِيبَ النُّقَبَاءِ.

هِجْرَةُ المُسْلِمِينَ إِلَى المَدِينَةِ:

لَمَّا عَلِمَتْ قُرَيْش بِنَبَأِ تَحَالُفِ الرَّسُولِ(ﷺ) مَعَ عَرَبِ يَثْرِبَ فِي بَيْعَةِ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ، اضْطَرَبَتْ اضْطِرَابًا شَدِيدًا، واشْتَدَّ أَذَاهَا للمُسْلِمِينَ، فَأَذِنَ الرَّسُولُ(ﷺ) لِأَتْبَاعِهِ بِمَكَّةَ بِالهِجْرَةِ إِلَى المَدِيْنَةِ، فَصَارُوا يُهَاجِرُونَ إِلَى المَدِيْنَةِ فِي الخَفَاءِ فُرادَى حَتَّى لَا تَنْتَبِهَ قُرَيْشٌ لَهُمُ.

وَاسْتَمَرَّتْ هِجْرَةُ الصَّحَابَةِ تِبَاعًا، حَتَّى لَمْ يَبْقَ بِمَكَّةَ إِلَّا رَسُولُ اللهِ(ﷺ) وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ(رضي الله عنه)، وَعَلَيُّ بْنُ أَبِي طَالَبٍ(رضي الله عنه) الَّذِي أَمَرَهُ الرَّسُولُ(ﷺ) أَنْ يَتَخَلَّفَ بعهدِه بِمَكَّةَ حَتَّى يُؤَدِّيَ عَنِ الرَّسُولِ(ﷺ) الوَدَائِعَ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهُ لِلنَّاسِ، حَيْثُ أَنَّ النَّاسَ عِنْدَئِذٍ كَانَتْ تَضَعُ وَدَائِعَهَا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) لَمَا يُعْلَمُ مِنْ صِدْقِهِ وَأَمَانَتِهِ، كَمَا بَقِيّ بِمَكَّةَ بَعْضُ أَقْرِبَاءِ الرَّسُولِ(ﷺ)، وَمَنْ اعْتَقَلَهُ المُشْرِكُونَ كَرْهًا.



هِجْرَةُ الرَّسُولِ(ﷺ) إِلَى المَدِينَةِ:

لَمَّا بَلَغَ قُرَيْشَ تَأَهُبُ الرَّسُولِ(ﷺ) لِلهِجْرَةِ، اجْتَمَعَ رِجَالُهَا بِدَارِ النَّدْوَةِ؛ لِيَتَشَاوَرُوا فِيمَا يَصْنَعُونَ فِي أَمْرِهِ، فَاتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى قَتْلِهِ وَالتَّخَلُّصِ مِنْهُ قَبْلَ خُرُوجِهِ، وَاسْتَقَرَّ رَأْيُهُمْ عَلَى أَنَّ يُؤْخَذَ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ فَتِيَ شابًا قويًا شَرِيفًا فِي قَوْمَهِ ذَا نَسَبٍ، وَيُعْطِي كُلُّ مِنْهُمْ سَيْفًا صَارِمًا، فَيَضْرِبُونَ مُحَمَّدًا(ﷺ) ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَبِذَلِكَ يَتَفَرَّقُ دَمُهُ بَيْنَ القَبَائِلِ، فَيَعَجِّزُ قَوْمُهُ عَنْ مُحَارَبَةِ سَائِرَ القَبَائِلِ فَيَرْضَوْنَ بِدِيَتِهِ.

وأَوْحَى اللّه تَعَالَى إِلَى رَسُولِهِ الحَبِيبِ بِمَا اجْتَمَعْتْ عَلَيْهِ قُرَيْشٌ، وَأَمَرَهُ بِعَدَمِ المَبِيتِ فِي فِرَاشِهِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، كَمَا أَمَرَهُ بِالهِجْرَةِ،

وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ (سُورَةُ الأنفال: آيَةُ ٣٠).

اجْتَمَعَ المُتَآمِرُونَ عَلَى بَابِ الرَّسُولِ(ﷺ) يَرْصِدُونَهُ حَتَّى يَنَامَ لِيَفْتِكُوا بِهِ، فلَما أَدْرَكَ الرَّسُولُ(ﷺ) وُجُودَهُمْ عَهِدَ إِلَى ابْنِ عَمَّه عَلَيِّ بنِّ أَبِي طَالب(ﷺ) بِأَنْ يَبِيتَ فِي فِرَاشِهِ حَتَّى يَخْتَلِطَ الأَمْرُّ عَلَى المُتَآمِرِينَ.

ثُمَّ خَرَجَ الرَّسُولُ(ﷺ) مِنْ بَابِ دَارِهِ لَيْلًا، وَفَّى يَدِهِ حِفْنَةٌ مِنْ تُرَابٍ وَذَرَّهَا عَلَى رُؤُوسِ الوَاقِفِينَ وَهْوَ يَتْلُوْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (سُورَةُ يس: آيَةُ ٩)، فَمَرَّ وَسْطَ المُتَآمِرِينَ دُونَ أَنْ يُفْطَنُوا لِخُرُوجِهِ أَوْ يُبْصِرُوهُ.

تَوَجَّهَ الرَّسُولُ(ﷺ) مُبَاشَرَةً إِلَى دَارِ أَبِي بَكْرٍ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّ اللهَ(ﷻ) أَمَرَهُ بِالهِجْرَةِ؛ وَأَطْلَعَهُ عَلَى تَآمُرِ قُرَيْشٍ ضِدَّهُ، فَخَرَجَا لَيْلًا، وَرَحَلَا، حَتَّى وَصَلَا إِلَى غَارٍ فِي جُبٍّ يَقَعُ أَسْفَلَ مَكَّةَ يُسَمَّى "غَارَ ثَوْرٍ"، وَأَقَامَا فِيهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ.



لَمْ تَكُنَّ هِجْرَةُ الرَّسُولِ(ﷺ) رِحْلَةً عَشْوَائِيَّةً، وَإِنَّمَا كَانَتْ لَهَا خُطَّةٌ مُحْكَمَةٌ، فَلَمْ يُعْلَمْ بِخُرُوجِ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) أَحَدٌ حِينَ خَرَجَ إِلَّا أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيق(ﷺ) وَآلُ أَبِي بَكْرٍ، وعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِب(ﷺ)، كَمَا سَبَقَتِ الهِجْرَةُ إِعْدَادٌ جَيِّدٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ(ﷺ) كَانَ مَعَ تَوَكُّلِهِ عَلَى اللّه(ﷻ). قَدْ أَخَذَ بِالأَسْبَابِ، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ(ﷺ) قَدِ اشْتَرَى رَاحِلَتَيْنِ (نَاقَتَيْنِ) بِثَمَانِمِائَةِ دِرْهَمٍ مِنْ رَجُلٍ يَدْعَي نَعِيمَ بْنَ بَشِير، حَبَسَهُمَا وَعَلَفَهُمَا جَيِّدًا أَرْبَعَةَ

أَشْهَرٍ حَتَّى سَمِنَتَا انْتِظَارًا لِصُحْبَةِ الرَّسُولِ(ﷺ) فِي هِجْرَتِهِ، الَّذِي أَبِىَ إِلَّا أَنْ يَدْفَعَ ثَمَنَ إِحْدَاهُمَا.

وَقَدْ دَفَعَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيق(رضي الله عنه) بِالنَّاقَتَيْنِ إِلَى دَلِيلٍ يُدْعَى عَبْدَ الله بْنَ أَرْقَط، اسْتَأْجَرَهُ لِيَكُونَ دَلِيلًا فِي رِحْلَةِ الهِجْرَةِ لِيَرْعَاهُمَا، وَيُوَافِي الرَّسُولَ(ﷺ) وَأَبَا بَكْرٍ(رضي الله عنه) عِنْدَمَا يَحِينُ مَوْعِدُ خُرُوجِهِمَا مِنْ مَكَّةَ إِلَى غَارِ ثَوْرٍ وَتَنْقَضِي فَتْرَةُ التَّخَفِّي، فَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ(ﷺ) يُدْرِكُ أَنْ قُرَيْشًا سَتَبْحَثُ عَنْهُمَا، فَأَرَادَ أَنْ يَخْتَبِئَا فِي الغَارِ؛ حَتَّى يَتَوَقَّفَ البَحْثُ عَنْهُمَا، أَوْ يَخِفَّ؛ فَيَسْتَأْنِفَا رِحْلَتَهُمَا.

وَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ(رضي الله عنه) ابْنَهُ عَبْدَ الله عَينًا عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ، يَمْكُثُ بَيْنَ ظُهْرَانِيْهِمِ لِيَسْمَعَ مَا يَقُولُونَهُ عَنِ الرَّسُولِ(ﷺ) وَصَاحِبِهِ(رضي الله عنه)، ثُمَّ يَأْتِيهِمَا مَسَاءً بِمَا سَمِعَ مِنْ أَخْبَارٍ.

كَمَا جَعَلَ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا –ذات النِّطَاقَيْنِ[1]– حَامِلَةَ التَّمْوِينِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الغَارِ، وَهْيَ تَضْحِيَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْهَا –اسْتَحَقَّتْ بِهَا لَقَبَهَا– إِذْ أَنَّ المُشْرِكِينَ كَانُوا يَبْحَثُونَ عَنِ النَّبِيِّ(ﷺ) وَصَاحِبِهِ(رضي الله عنه) بِشَتَّى الطُّرُقِ، وَلَوْ وَقَعَتْ أَسْمَاءُ فِي أَيْدِيهِمْ لَقَتَلُوهَا.

أَمَّا عَامِرُ بْنُ فُهَيرة مَولِيّ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ(رضي الله عنه) فَكَانَ يَرْعَى غَنَمَ أَبِي بَكْرٍ(رضي الله عنه) مَعَ رُعْيَانِ مَكَّةَ فَإِذَا أَمْسَى تُوَجَّهَ لِلغَارِ فَحَلْبَ وَذَبَحَ، ثُمَّ يَعُودُ بِالغَنَمِ فِي خَطِّ سِيرِ عَبْد الله بِنِ أَبي بَكْرٍ(رضي الله عنه) لِيَمْحِيَ أَثَرَهُ.

انْتَدَبَتْ قُرَيْشٌ مَنْ يَتَتَبَّعُ أَثَّرَ الرَّسُولِ(ﷺ) وَصَاحِبِهِ(رضي الله عنه)، وَرَصَدَتْ مُكَافَأَةً مِائَةَ نَاقَةٍ لِمَنْ يَأْتِي بِهِمَا، أَوْ يَتَمَكَّنُ مِنْ قَتْلِهِمَا، فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِمَا إِلَّا سُرَاقَةُ بْنُ مَالِك الَّذِي قَصَّ ذَلِكَ فَقَالَ: "بَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ قُومِي بِنِّي مدلج، إِذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ،

---

(١) سُميت بِذَلِكَ لِأَنَّهَا جَاءَتْ لِلرَّسُولِ(ﷺ) وَأَبُوهَا(رضي الله عنه) بِطَعَامِ السَّفَرِ عِنْدَ عَزْمِهِمَا عَلَى مُوَاصَلَةِ المَسِيرِ إِلَى يَثْرِب، ثُمَّ اِكْتَشَفَتْ أَنَّهَا لَمْ تَصْنَعْ حَبلَ لِتَعْلِيقِ الطَّعَامِ فِي البَعِيرِ، فَحَلَّتْ نِطَاقَهَا وَشَقَّتْهُ نِصْفَيْنِ الأَوَّلُ عَلَّقَتْ فِيهُ الطَّعَامَ، وَالآخَرَ تَمَنْطَقَتْ بِهِ.

وَقَالَ: "يَا سُرَاقَةُ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ آنِفًا أَسْودةَ بِالسَّاحِلِ أَرَاهُمَا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ"، قَالَ سُرَاقَةُ: "فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ هُمْ"، فَقُلْتُ: "إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِهِمْ، وَلَكِنَّكَ رَأَيْتَ فُلَانًا وَفُلَانًا انْطَلَقُوا بِأَعْيُنِنَا".

ثُمَّ لَبِثَ فِي المَجْلِسِ سَاعَةً، وَقَامَ وَأَخَذَ فَرَسَهُ، وَرُمْحَهُ، ثُمَّ اسْتَخْرَجَ الأزلام مِنْ كَنَانَتِه، وَاسْتَقْسَمَ بِهِمَا هَلْ يُضِرُّهُمَا أَمْ لَا؟ فَخَرَج لَا، إِلَّا أَنَّهُ عَصَى أَزْلَامَه، وَانْطَلَقَ حَتَّى قَارَبَ رَكَّبَ الرَّسُولِ(ﷺ) وَصَاحِبِهِ(رضي الله عنه)، فَسَاخَتْ الفَرَسُ عَلَى الأَرْضِ وَسَقَطَ عَنْهَا، فَنَهَضَ وَزَجَرَهَا فَنَهَضَتْ، (فلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً إِذَا لِأُثْرِ يَدَيْهَا عِثَّانٌ سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثْلَ الدُّخَانِ)، فَاسْتَقْسَمَ مَرَّةً أُخْرَى بِالأَزْلَام، فَخَرَج الَّذِي يَكْرَهُ، فَنَادَى بِالأَمَانِ، فَوَقَفَ الرَّسُولُ(ﷺ) وَصَاحِبُهُ(رضي الله عنه)، فَرَكِبَ فَرَسَهُ حَتَّى وَصَلَ إِلَيْهِمَا، فَقَالَ سُرَاقَةُ: "إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ، وَأَخْبَرْتُهُمْ أَخْبَارَ مَا يُرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ، وَعَرَضَتُ عَلَيْهِمْ الزَّادَ وَالمَتَاعَ، فَلَمْ يَرْزَآنِي وَلَمْ يَسْأَلَانِي، إِلَّا أَنْ قَالَ: "أُخْفِ عَنَّا"، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابَ أَمْنٍ، فَأَمَرَ الرَّسُولُ(ﷺ) عَامِرَ بِنَ فهيرة(رضي الله عنه) فَكَتَبَ، ثُمَّ مَضَيَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ).

كَمَا وَصَلُ بَعْضُهُمْ إِلَى غَارِ ثَوْرٍ، فَأَوْجَسَ أَبُو بَكْرٍ(رضي الله عنه) خِيْفَةً، مِنْ أَنْ يَرَاهُمَا أَحَدٌ، إِلَّا أَنَّ الرَّسُولَ(ﷺ) أَخَذَ يُهَدِّىءُ مِنْ رَوْعِهِ، وَأَوْحَى اللهُ إِلَى عِنْكَبُوتٍ فَنَسَجَ بَيْتَهُ، وَإِلَى حَمَامَةٍ فَبَاضَتْ عَلَى نَسْجِ الْعِنْكَبُوتِ، وَرَقَدَتْ عَلَى بَيْضِهَا، فَلَمَّا نَظَرَ الْكُفَّارُ إِلَيْهَا عَلَى فَمِ الْغَارِ رَدَّهُمْ ذَلِكَ عَنِ الْغَارِ، وَقَدْ أَشَارَ الْقُرْآنُ الكَرِيمُ إِلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالِي: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التَّوْبَةِ آية ٤٠).

وِعِنْدَمَا جَاءَتِ الأَخْبَار للرَّسُولِ(ﷺ) وَصَاحِبِهِ(رضي الله عنه) أَنَّ البَحْثَ عَنْهُمَا قَدْ خَفَ، جَاءَهُمَاَ دَلِيْلُهُمَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَرْقَط بِبَعِيْرَيْهِمَا وَاجْتَازَ بِهِمَا طَرِيْقًا غَيْرَ مَطْرُوقَةٍ، وغير

مُبَاشَرَةٍ حَتَّى لاَ يَرَاهُمَا أَحَدٌ حَتَّى وَصَلَ بِهِمَا إِلَى قِبَاءٍ، وَذَلِكَ ظُهْرَ يَوم الاثْنَيْنِ ١٢ مِنْ رَبْيعِ الأَوَّل، وَنَزَلَ عَلَى بَنْي عَمَرَ بْنِ عَوْفٍ وَأَقَامَ عِنْدَهُمْ بِضعَ عَشْرَةَ لَيْلَةٍ –عَلَى أَرْجَحِ الآراءِ–، بَنَى أَثْنَاءَهَا مَسْجِدَ قِبَاءٍ، أَوَّلَ مَسْجِدِ فِي الإِسْلَامِ، وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ جِبْرِيْلَ(ﷺ) هُوَ الذِيْ أَشَارَ للرَّسُوْلِ(ﷺ) بِمَوضِعِ القِبْلَةِ بِهِ. ثُمّ رَحَلَ الرَّسُولُ(ﷺ) بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ قِبَاءٍ وَسَارَ حَتَّى وَصَلَ عِنْدَ بَنِي سَالِمٍ فَصَلَّى الجُمْعَةَ بِمَنْ مَعَه مِنَ المُسْلِمِيْنَ، وَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ جُمْعَةٍ أَقَامَهَا الرَّسُولُ(ﷺ) فِي الإِسْلَامِ.

فَكَانَتْ مُدَّةُ مُقَامِهِ(ﷺ) بِمَكَّةَ مِنْ حِيْنَ النُّبُوةِ إلى هِجْرَتِهِ الشَّرِيْفَةِ بِضْعَ عَشْرَة عَامٍ.

الفَتْرَةُ المَدَّنِيَّةُ

دَأَبَ الْأَنْصَارُ عَلَى انْتِظَارِ قُدُومِ رَسُوْلِ اللهِ(ﷺ) إِلَيْهِمْ مِنَ الصَّبَاحِ حَتَّى تَشْتَّدَ الشَّمْسُ، وَفِي اليَوْمِ المَوْعُودِ رَجَعَ الْأَنْصَارُ كَعَادَتِهِمْ عَقْبَ اشْتِعَالِ الشَّمْسِ، فَقَدِمَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ رَآهُ رَجُلًا مِنَ اليَهُوْدِ، فَصَاحَ: "يَا بَنِي قِيْلَة[١]، هَذَا جِدُّكُمْ قَدْ جَاءَ"، فَخَرَجُوا عَنْ بَكْرَتِهِمْ، فَوَجَدْوا رَسُولَ الرَّحْمَةِ(ﷺ) فِيْ ظِلِّ نَخْلَةٍ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ(رضي الله عنه) فِي مِثْلِ سِنِّهِ، فَالْتَبَسَ عَلَيْهِمُ أَيُّهُمَا رَسُولُ اللهِ(ﷺ)، حَتَّى زَالَ الظِّلُّ عَنْ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ(رضي الله عنه) فَأَظَلَّهُ بِرِدَائِه، فَعَرَفُوهُ عِنْدَ ذَلِكَ.

اسْتَقْبَلَتْ يَثْرِبُ الرَّسُولَ الكَرِيمَ(ﷺ) بِالتِّرْحَابِ، فَكَانَتْ بَنَاتُ الْأَنْصَارِ يُنْشِدْنَ (مِنْ مَجْزُوْءِ بَحْرِ الرَّمَل):

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَا	مِنْ ثَنَّيَاتِ الوَدَاعْ[٢]
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا	مَا دَعَاْ لِلهِ دَاعْ

---

(١) بَنِي قِيْلَة: يُرِيدُ بِهَا الأَنْصَار.

(٢) ثَنِيَّةُ الْوَدَاعِ: ثَنِيَّةٌ مُشْرِفَةٌ عَلَى الْمَدِينَةِ، يَطَؤُهَا مَنْ يُرِيدُ مَكَّةَ، وَكَانَ النَّاسُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يُوَدِّعُونَ الْمُسَافِرِينَ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ، وَلِذَلِكَ عُرِفَ بِثَنِيَّةِ الْوَدَاعِ.

أَيُّهَا المَبْعُوثُ فِيْنَا جِئْتَ بِالأَمْرِ المُطَاعْ

وَحَاوَلَ رُؤُوسُ كُلِّ بَيْتٍ مِنَ الأَنْصَارِ الاسْتِحْوَاذَ عَلَى شَرَفِ اسْتِقْبَالِ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) فِي بُيُوتِهِمْ، فَتَجَاذَبُوا لِجَامِ نَاقَتِهِ(ﷺ)، وَرَسُولُ اللهِ(ﷺ) يَقُولُ لَهُمْ: "خَلُّوْا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُوَّرةٌ"، وَعَدَّ المُؤَرِّخُونَ هَذَا الحَدَثَ نُقْطَةً فَاصِلَةً فِي تَارِيخِ العَالَمِ، تَغَيَّرَتْ عِنْدَهَا مُجْرَيَاتُ الأَحْدَاثِ، فَتَحَوَّلَتْ يَثْرِبُ –الَّتِي أَصْبَحَتْ تُسَمَّى بِالمَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ– حَاضِنَةَ الإِسْلَامِ الأُولَى، لِذَا شَرَعَ رَسُوْلُنَا الكَرِيمُ(ﷺ) فِي إِرْسَاءِ دَعَائِمِ الدَّوْلَةِ وَالَّتِي تَمَثَّلَتْ فِي:

<u>بِنَاءُ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ:</u>

فَفَوْرَ وُصُولِ الرَّسُولِ(ﷺ) إِلَى الْمَدِينَةِ سَعَى إِلَى تَخْطِيطِ مَسْجِدٍ لِلْمُسْلِمِينَ لِيُؤَدُّوا فِيهِ الصَّلَوَاتِ، وَلِيَجْتَمِعَ فِيهِ بِأَصْحَابِهِ، وَلِيَكُونَ دعُامَةً لِلْوَحْدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَرَمْزًا لَهَا.

فَلَمْ يَكُنِ الْمَسْجِدُ مُجَرَّدَ مَكَانٍ لِأَدَاءِ الصَّلَاةِ، بَلْ كَانَ مُؤَسَّسَةً إِسْلَامِيَّةً تُؤَدِّي أَغْرَاضًا عَدِيدَةً دِينِيَّةً وَسِيَاسِيَّةً فَفِيهِ يَجْلِسُ الرَّسُولُ(ﷺ) مُعَلِّمًا أَصْحَابَهُ أُمُورَ دِينِهِمْ، وَقَاضِيًا بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ(ﷻ)، وَفِيمَا يشجر بَيْنَهُمْ، وَمُشَاوِرًا لَهُمْ، وَمَعَ الْوَقْتِ أَصْبَحَ الرَّسُولُ(ﷺ) يَسْتَقْبِلُ فِي الْمَسْجِدِ سُفَرَاءَ الْقَبَائِلِ وَوُفُودَ الْعَرَبِ الْقَادِمِينَ إِلَيْهِ، كَمَا أَصْبَحَتْ تُعْقَدُ بِهِ أَلْوِيَةُ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ إِمَّا لِلاسْتِطْلَاعِ أَوْ لِلْغَزْوِ، كَمَا أَصْبَحَ مَأْوًى لِلْفُقَرَاءِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْمَعْرُوفِينَ بِأَهْلِ الصّفةِ الَّذِينَ كَانُوا لَا يَمْلُكُونَ بُيُوتًا وَلَا أَمْوَالًا، مِمَّنْ لَيْسَ لَهُمْ أَهْلٌ فَأَصْبَحَ الْمَسْجِدُ مَلْجَأَهُمْ.

اخْتَارَ الرَّسُولُ(ﷺ) بِنَاءَ الْمَسْجِدِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي بَرِكَتْ فِيهِ نَاقَتُهُ، وَكَانَ هَذَا الْمَوْضِعُ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ مِنْ بَنِي "مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ"، فَابْتَاعَهُ مِنْهُمَا الرَّسُولُ(ﷺ)، ثُمَّ حَفَرَ أُسُسَ الْمَسْجِدِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَذْرُعٍ، وَشَرَعَ الْمُسْلِمُونَ فِي بِنَاءِ هَذِهِ الْأُسِسِ، وَكَانَ

الرَّسُولُ(ﷺ) يُبَاشِرُ الْبِنَاءَ مَعَ أَصْحَابِهِ، فَكَانَ يَنْقُلُ اللَّبِنَ(الطُّوب) مَعَهُمْ فِي رِدَائِهِ حَتَّى أَغْبَرَ صَدْرَهُ الشَّرِيفَ.

أَمَّا الْقِبْلَةُ فَقَدْ وَجَّهَهَا الرَّسُولُ(ﷺ) إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ بَعْدَ أَنْ كَانَ يُتْرَكِ لِلْمُسْلِمِينَ أَوَّلَ عَهْدِهِ بِالرِّسَالَةِ حُرِّيَّةُ اخْتِيَارِ قِبْلَتِهِمْ فِي الصَّلَاةِ وِفْقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة: آية١١٥).

وَظَلَّ الْمُسْلِمُونَ مُنْذُ أَنْ هَاجَرَ الرَّسُولُ(ﷺ) إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ يُوَلُّونَ وُجُوهَهُمْ فِي الصَّلَاةِ شَطْرَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ طُوَالَ سِتَّةَ عَشْرَ شَهْرًا كَامِلَةً أَوْ سَبْعَةَ عَشْرَ، ثُمَّ حُوِّلَتِ الْقِبْلَةُ إِلَى الْكَعْبَةِ قَبْلَ غَزْوَةِ بَدْرٍ بِشَهْرَيْنِ عِنْدَمَا نَزَلَتِ الآيَةُ الْكَرِيمَةُ: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾(سورة البقرة: آية١٤٤)، وَقَدْ تَرَتَّبَ عَلَى تَعْدِيلِ الْقِبْلَة مِنَ الشَّمَالِ إِلَى الْجَنُوبِ أَنْ أُقِيمَتْ ظِلَّةٌ جَدِيدَةٌ تِجَاهَ الْجَانِبِ الْقِبْلِيِّ مِنَ الْمَسْجِدِ فَأَصْبَحَ لِلْمَسْجِدِ ظِلَّتَانِ، وَسُمِّيَ الْمَسْجِدُ لِذَلِكَ بمَسْجِدِ "الْقِبْلَتَيْنِ"، وَاتَّخَذَ الرَّسُولُ(ﷺ) مِنَ الظُّلَةِ الشَّمَالِيَّةِ الْقَدِيمَةِ بَيْتًا لِأَهْلِ الصفة، فِي حِين أَصْبَحَ ما بَيْنَ الظِّلَّتَيْنِ رَحْبَةً وَاسِعَةً.

وَلَمْ يَكُنْ لِلْمَسْجِدِ فِي أَوَّلِ بِنَائِهِ مِنْبَرٌ، بَلْ كَانَ الرَّسُولُ(ﷺ) يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمْعَةِ وَهُوَ مُسْتَنِدٌ إِلَى جِذْعِ نَخْلَةٍ عِنْدَ مُصَلَّاهُ فِي الْحَائِطِ الْقِبْلِيِّ، فَقَالَ لَهُ النَّاسُ: "يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ كَثُرَ النَّاسُ -أَيِ الْمُسْلِمِينَ- وَإِنَّهُمْ يُحِبُّونَ أَنْ يَرَوْكَ فَلَوْ اتَّخَذْتَ مِنْبَرًا لقدر

قِيَامك تقوم عليه فيراك النَّاس"، فَقَالَ: "نَعَمْ"، ثُمَّ عَهدَ الرَّسُولُ(ﷺ) بِعَمَلِ مِنْبَرٍ مِنْ دَرَجَتِينِ وَمِقْعَدٍ، وَقِيلَ مِنْ ثَلَاث دَرَجَاتٍ فَوَضَعَهُ فِي مَوْضِعِ الْقِبْلَةِ.

كَمَا لَمْ يَكُنْ لِلْمَسْجِدِ يَوْمئِذٍ مِئْذَنَةٌ لِأَنَّ الْمِئْذَنَةَ لَيْسَتْ عُنْصُرًا رَئِيسًا فِي تَخْطِيطِ الْمَسْجِدِ وَبِنَائِهِ، وَكَانَ بِلَالٌ هُوَ الْمُؤَذِّنَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ(ﷺ).

الْمُؤَاخَاةِ بَيْنَ المُهَاجِرِينَ والْأَنْصَار:

كَانَ بَالْمَدِينَةِ المُنَوَّرَة –حِين هَاجَرَ إلَيْهَا الرَّسُولُ(ﷺ)– الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَبَعْضُ مُشْرِكِي هَاتَيْنِ الْقَبِيلَتَيْنِ، والْيَهُودُ، ثُمَّ وَفَدَ إِلَيْهِمُ الْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ فَارَقُوا دِيَارَ آبَائِهِمْ بِمَكَّةَ، وَتَرَكُوا وَرَاءَهُمْ أَمْوَالَهُمْ، وَعقَارَاتِهِمْ، وَفَارَقُوا أَهْلَهُمْ، وَذَوِيهِمْ.

قَامَ الرَّسُولُ(ﷺ) بِتَنْظِيمِ صُفُوفِ المُهَاجِرِينَ وَأَهْلِ الْمَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ، وَأَقَامَ الْوِفَاقَ بَيْنَهُمْ، فَعَمِلَ عَلَى تَوْحِيدِهِمْ بِرِبَاطِ الْإِسْلَامِ، وَبَدَأَ بِإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، فَأَزَالَ مِنْ نُفُوسِهِمْ مَا كَانَ قَدْ رُسِّبَ فِيهَا مِنَ الْخُصُومَةِ الْقَدِيمَةِ، وَهِيَ خُصُومَةٌ كَانَ يُزَكِّيهَا الْيَهُودُ، ثُمَّ وَحَّدَ بَيْنَهُمْ تَحْتَ اسْمِ "الْأَنْصَار" –أي الَّذِينَ نَصَرُوهُ وَأَيَّدُوا دَعْوَتَهُ.

ثُمَّ اتَّجَهَ الرَّسُولُ(ﷺ) بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى تَوْحِيدِ جَمَاعَةِ المُهَاجِرِينَ فَآخَى بَيْنَ المُهَاجِرِينَ بَعْضِهِمِ الْبَعْض. ثُمَّ رَبَطَ الرَّسُولُ(ﷺ) بَيْنَ المُهَاجِرِينَ والْأَنْصَار بِرِبَاطِ الْمُؤَاخَاةِ، فَجَعَلَ كُلَّ رَجُلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ يُؤَاخِي رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَيَصِيرُ مَا بَيْنَ الرَّجُلينِ مِنْ رَوَابِطَ مَا بَيْنَ الْأَخَوَيْنِ مِنْ قَرَابَةِ الدَّمِ، وَجَعَلَ الْأَخَوَيْنِ بَالتَّآلُفِ يَتَقَاسَمَانِ السَّكَنَ والتِّجَارَةَ والزِّرَاعَةَ، وَكَافَّةَ وَسَائِلِ الْعَيْشِ، وَقَدْ رَحَّبَ الْأَنْصَارُ بِذَلِكَ، وَنَفَّذُوهُ عَنْ طِيبِ خَاطِرٍ. كَذَلِكَ كَانَ الْمُتَرَابِطَانِ بَالتَّآخِي يَرِثَانِ بَعْضَهُمَا، فَإِذَا مَاتَ المُهَاجِرَ وَرِثَهُ أَخُوهُ الْأَنْصَارِيُّ، وَإِذَا مَاتَ الْأَنْصَارِيُّ وَرِثَهُ أَخُوهُ الْمُهَاجِرُ.

وَكَانَ الْأَنْصَارُ يَتَسَابَقُونَ فِي مُؤَاخَاةِ المُهَاجِرِينَ، حَتَّى يَؤُولَ الْأَمْرُ إِلَى الِاقْتِرَاعِ، وَكَانُوا يُقَاسِمُونَهُم فِي بُيُوتِهِمْ، وَأَثَاثِهِمْ، وَأَمْوَالِهِمْ، وَأَرْضِهِمْ، وَيُؤْثِرُونَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ.

ظَلَّ التَّوَارُثُ بِالْمُؤَاخَاةِ قَائِمًا حَتَّى فُرِضَتِ الزكاة، فَنَزَلَ التَّشْرِيعُ الْإِسْلَامِيّ بنِظَام التَّوَارُثِ، فَأَصْبَحَتْ هَذِهِ الْمُؤَاخَاةُ نُوَاةً تُشَكِّلُ قُوَّةً لِلْمُسْلِمِينَ.

إِعْلَانُ قِيَامِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ:

كِتَابُ الصَّحِيفَةِ الَّذِي كَتَبَهُ الرَّسُولُ(ﷺ) بَيْنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ:

رَأَى الرَّسُولُ(ﷺ) أَنْ يُنَظِّمَ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ عَنَاصِرِ الْمُجْتَمَعِ الْمَدَنِيِّ، مِنْ مُسْلِمِينَ ويَهُودٍ ومُشْرِكِينَ، فَوَضَعَ لَهُمْ دُسْتُورًا، هُوَ الَّذِي سُمِّيَ بِـ"الصَّحِيفَة" أَوِ "الْكِتَاب"، وَقَدْ نَصَّتْ هَذِهِ الصَّحِيفَةُ عَلَى قَوَاعِدَ أَسَاسِيَّةٍ لتَنْظِيمِ هَذَا الْمُجْتَمَعِ الْجَدِيدِ.

فَالصَّحِيفَةُ تُعَدُّ وَثِيقَةً مُهِمَّةً لِأَنَّهَا تُصَوِّرُ أَحْوَالَ الْمُجْتَمَعِ الْمَدَنِيِّ وَالْأُسُسَ الْجَدِيدَةَ الَّتِي وَضَعَهَا رَسُولُنَا الْكَرِيمُ(ﷺ) فَجَاءَ فِي الصَّحِيفَةِ: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ(ﷺ) بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَيَثْرِبَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ فَلَحِقَ بِهِمْ، وَجَاهَدَ مَعَهُمْ، إِنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ، وَالْمُهَاجِرُونَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى رِبْعَتِهِمْ(١) يَتَعَاقَلُونَ بَيْنَهُمْ، وَهُمْ يَفْدُونَ عَانِيهِمْ(٢) بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ المُؤْمِنِينَ، وَبَنُو عَوْفٍ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ(٣) الْأُولَى، وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ المُؤْمِنِينَ،.........

كَمَا جَاءَ فِي نَصِّ الصَّحِيفَةِ مَا يَكْفُلُ حُرِّيَّةَ الْعَقِيدَةِ لِلْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ فَجَاءَ فِيهَا: "إِنّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارَبِينَ، وَإِنّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمّةٌ مَعَ

(١) ربعتهم: عَلَى شَأْنُهُمْ وَعَادَتُهُمْ مِنْ أَحْكَامِ الدِّيَّاتِ وَالدِّمَاءِ.

(٢) عَانِيهِمْ: أَسِيرُهُمْ.

(٣) مَعَاقِلُهُمْ: جَمْعُ مَعْقَلَة، مِنَ الْعَقْلِ وَهُوَ الدِّيَّة.

الْمُؤْمِنِينَ لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمَيْنِ دِينُهُمْ مَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ إلّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنّهُ لَا يُوتِغُ[١] إلّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ......، وَإِنّهُ مَنْ خَرَجَ آمِنٌ وَمَنْ قَعَدَ آمِنٌ بِالْمَدِينَةِ، إلّا مَنْ ظَلَمَ أَوْ أَثِمَ وَإِنّ اللّهَ جَارٌ لِمَنْ بَرّ وَاتّقَى ، وَمُحَمّدٌ رَسُولُ الله(ﷺ)".

وَهَكَذَا، وَبِاتِّفَاقِ الْيَهُودِ عَلَى بُنُودِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ فَقَدْ اعْتَرَفُوا بِزَعَامَةِ الرَّسُولِ(ﷺ)، وَسَلَّمُوا أَيْضًا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ(ﷻ) مِنْ تَشْرِيعٍ فِي الْإِسْلَامِ، وَوَافَقُوا عَلَى أَنْ يَحْكُمَ الرَّسُولُ(ﷺ) فِي الْخُصُومَاتِ الَّتِي تَقَعُ بَيْنَ أَطْرَافِ الصَّحِيفَةِ وِفْقَ شَرْعِ اللهِ(ﷻ)، وَأَقَرُّوا بِقِيَامِ الْحُكُومَةِ الْإِسْلَامِيّةِ فِي الْمَدِينَةِ.

<u>إِرْسَالُ السَّرَايَا:</u>

ظَلَّ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) يُؤْثِرُ السِّلْمَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَلَمْ يَلْجَأْ إِلَى الْقِتَالِ طِيلَةَ إِقَامَتِهِ بِمَكَّةَ، بَلْ عَمَدَ فِي نَشْرِ دَعْوَتِهِ إِلَى مُجَادَلَةِ الْمُشْرِكِينَ وَإِقْنَاعِهِمْ بِالدَّلِيلِ وَالْبُرْهَانِ، وَقَدْ ظَلَّ الرَّسُولُ(ﷺ) بَعْدَ أَنْ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ يُؤْثِرُ الْوَسَائِلَ السِّلْمِيَّةَ، لَكِنَّ الظُّرُوفَ الْجَدِيدَةَ الَّتِي قَامَتْ فِيهَا دَوْلَتُهُ فِي الْمَدِينَةِ، وَمَا نَتَجَ عَنْ عَزْمِ قُرَيْشٍ فِي مَكَّةَ عَلَى الْقَضَاءِ عَلَى هَذِهِ الدَّوْلَةِ، كَانَتْ سَبَبًا فِي تَشْرِيعِ الْجِهَاد فِي الْعَامِ الثَّانِي لِلْهِجْرَةِ، ثُمَّ تَوَالَتْ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ الَّتِي تُقَنِّنُ تَشْرِيعَ الْجِهَادِ.

وَكَانَ لِتَشْرِيعِ الْجِهَادِ آثَارٌ مُهِمَّةٌ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْمَدِينَةِ، فَقَدْ أَكْسَبَهُمْ صِفَةً سِيَاسِيَّةً لَمْ تَكُنْ لَدَيْهِمْ مِنْ قَبْلُ، إِذْ أَصْبَحَ لَهُمُ الْحَقُّ فِي الدِّفَاعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ضِدَّ الْمُعَادِينَ لَهُمْ فِي الدَّاخِلِ وَالْخَارِجِ، كَمَا أَصْبَحَوا نُوَاةً لِلْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، ولَيْسَ لِدَوْلَةِ الْمَدِينَةِ فَقَطْ.

كَانَ جِهَادُ الرَّسُولِ(ﷺ) وَصَحَابَتِهِ مُوَجَّهًا فِي بِدَايَةِ الْأَمْرِ إِلَى الْقُرَشِيِّين بِمَكَّةَ الَّذِينَ احْتَفَظُوا بِالْوَثَنِيّةِ وَنَاصَبُوا المُسْلِمِينَ الْعَدَاءَ، وَقَدْ وَقَفَ الْمُهَاجِرُونَ والْأَنْصَارُ

---

(١) يُوتِغُ: يُهْلِكُ نَفْسَهُ، وَالْمَوْتَغَة: الْمَهْلَكَةُ.

صَفًّا وَاحِدًا مَعَ الرَّسُولِ(ﷺ) فِي الْعَمَلِ عَلَى صَدِّ أَيِّ اعْتِدَاءٍ يَحِيقُ بِهِمْ، وَلَمَّا كَانَتْ قُرَيْشٌ هِيَ البَادِئَةَ بِمُنَاهَضَةِ الرَّسُولِ(ﷺ) وَالْمُسْلِمِينَ، لِذَلِكَ صَارُوا يَتَرَقَّبُونَ الْفُرَصَ لِقَمْعِ شَوْكَتِهَا.

سَرِيَّةُ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَحْشٍ(ﷺ):

وَلِهَذِهِ السَّرِيَّةِ أَهَمِّيَّةٌ خَاصَّةٌ فَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهَا آيَةً، وَتَفْصِيلُ ذَلِكَ: وَجَّهَ الرَّسُولُ(ﷺ) هَمَّهُ إِلَى الْوُقُوفِ فِي سَبِيلِ تِجَارَةِ قُرَيْشٍ الَّتِي كَانَتْ عِمَادَ حَيَاتِهَا، وَكَانَ الرَّسُولُ(ﷺ) نَفْسُهُ مُلِمًّا بِشُئُونِ التِّجَارَةِ وَوَاقِفًا عَلَى مَدَى عِنَايَةِ قُرَيْشٍ بِهَا عَلَى أَسَاسِ أَنَّهَا مَصْدَرُ ثَرْوَتِهِمْ، فَعَمِلَ عَلَى اسْتِمَالَةِ القَبَائِلِ الْمُقِيمَةِ فِي الطَّرِيقِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ إِلَى جَانِبِهِ، فَلَمَّا اطْمَأَنَّ إِلَى مُحَالَفَةِ هَذِهِ القَبَائِلِ الضَّارِبَةِ بَيْنَ مَكَّةَ والْمَدِينَةِ، خَرَجَ مَعَ بَعْضِ أَصْحَابِهِ لِاسْتِطْلَاعِ تَحُرَّكَاتِ الْقُرَشِيِّينَ وَالْوُقُوفِ فِي طَرِيقِهِمْ، لَكِنَّهُ سُرْعَانَ مَا كَانَ يَعُودُ دُونَ أَنْ يَشْتَبِكَ مَعَهُمْ فِي قِتَالٍ. ثُمَّ وَجَّهَ عَبْدَ اللهِ بْنَ جَحْشٍ(رضي الله عنه) عَلَى سَرِيَّةٍ مِنَ المُهَاجِرِينَ لَيْسَ بَيْنَهُمْ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَرَصَّدَ قُرَيْشًا.

بِمَكَانٍ يُقَالُ لَهُ: "نَخْلَة" بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ وَيَأْتِيهِ بِأَخْبَارِهِمْ، فَمَضَى عَبْدُ اللهِ(رضي الله عنه) مَعَ أَصْحَابِهِ حَتَّى نَزَلَ بِـ"نَخْلَة"، فَمَرَّتْ بِهِمْ قَافِلَةٌ لقُرَيْشٍ تَحْمِلُ تِجَارَةً وَذَلِكَ فِي آخِرِ رَجَب مِنَ الْعَامِ الثَّانِي لِلْهِجْرَةِ، فَهَابُوا أَوَّلَ الْأَمْرِ مُحَارَبَتِهِمْ فِي هَذَا الشَّهْرِ– حَيْثُ كَانَ الْعَرَبُ يَعُدُّونَهُ مِنَ الْأَشْهُرِ الَّتِي يُحَرَّمُ فِيهَا الْقِتَالِ–، ثُمَّ أَجْمَعَتْ أَغْلَبِيَتُهُمْ عَلَى قِتَالِهِمْ وَأَخَذَ مَا مَعَهُمْ، فَأَصَابُوا بَعْضَ رِجَالِهِمْ وَغَنَمُوا مَا كَانَتْ تَحْمِلُهُ إِبِلُهُمْ مِنْ التِّجَارَةِ، وَعَادُوا إِلَى الْمَدِينَةِ مُحَمَّلِينَ بِالْأَمْوَالِ الَّتِي غنمُوها، فَأَوْقَفَ الرَّسُولُ(ﷺ) الْإِبِلَ وَلَمْ يَأْخُذْ مِنْهَا شَيْئًا، وَقَالَ لَهُمْ: "لَمْ آمُرْكُمْ بِقِتَالٍ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ".

اِسْتَغَلَّتْ قُرَيْشٌ هَذَا الْحَادِثَ لِلتَّشْهِيرِ بَالرَّسُولِ(ﷺ) وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِظْهَارِهِمْ فِي صُورَةِ الْمُعْتَدِي عَلَى حُرْمَةِ الشَّهْرِ وَعَلَى الدّمَاءِ وَالأَمْوَالِ وَالرَّجَالِ.

كَثُرَ الْجَدَلُ فِي الْمَدِينَةِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ لِإِنْكَارِهِمْ مَا أَحْدَثَتْهُ سَرِيَّةُ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَحْشٍ(رضي الله عنه)، وَدَسَّ الْيَهُودُ أُنُوفَهُمْ فِي الْمَوْضُوعِ يُرِيدُونَ إذكاء الْخِلَافِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا كَثُرَ الْجَدَلُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَخِيفَ الْفِتْنَةُ، أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ(ﷺ): ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(سورة البقرة: آية ٢١٧).

أَنْهَتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ الْجَدَلَ، وَوَجَّهَتْ أَنْظَارَ المُسْلِمِينَ إِلَى أَنَّهُ إِذَا كَانَ الْقِتَالُ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ كَبِيرًا، فَإِخْرَاجُ المُسْلِمِينَ مِنْ دُورِهِمْ أَكْبَرُ مِنْهُ، فَأَصْبَحَتْ غَنَائِمُ هَذِهِ السَّرِيَّةِ أَوَّلَ مَا غَنمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ قَتْلٍ. أَيْقَنَ الرَّسُولُ(ﷺ) بَعْدَ أَنْ رَأَى مُحَاوَلَةَ قُرَيْشٍ اسْتِثَارَةَ قَبَائِلِ الْعَرَبِ عَلَيْهِ، بَأَنَّ سِيَاسَةَ حَقْنِ الدِّمَاءِ أَصْبَحَتْ غَيْرَ مُجْدِيَةٍ.

غَزْوَةُ بَدْرٍ الْكُبْرَى[1] رَمَضَان عَامَ ٢هـ:

فِي رَمَضَانَ عَامَ ٢هـ نَدَبَ الرَّسُول(ﷺ) نفرًا مِنَ المُسْلِمِينَ لِاعْتِرَاضِ قَافِلَةِ قُرَيْشٍ وَهِيَ قَادِمَةٌ مِنَ الشَّامِ، فَاسْتَنْجَدَ أَبُو سُفْيَانَ رَئِيسُ الْقَافِلَةِ بِقُرَيْشٍ ثُمَّ غَيَّرَ الطَّرِيقَ

(١) سُمِّيَتْ بِالْكُبْرَى لِوُجُودِ غَزْوَةِ بَدْرٍ الْأُولَى الَّتِي خَرَجَ فِيهَا الرَّسُولُ بَعْدَ غَزْوَةِ الْعُشَيْرَةِ بَعْدَ إِغَارَةِ كُرْزِ بْنِ جَابِرٍ الفِهْرِيِّ عَلَى سَرْحِ الْمَدِينَةِ، فَخَرَجَ الرَّسُولُ فِي طَلَبِهِ حَتَّى بَلَغَ وَادِيًا يُقَالُ لَهُ سَفَوَان مِنْ نَاحِيَةِ بَدْرٍ، وَفَاتَهُ كُرْزٌ فَلَمْ يُدْرِكْهُ.

الَّذِي اعْتَادَ أَنْ يَسْلُكَهُ، وَسَارَ بِجَانِبِ سَاحِلِ الْبَحْرِ، وَتَسَلَّلَ إِلَى مَكَّةَ دُونَ أَنْ يَفْقِدَ مِنْ تِجَارَتِهِ شَيْئًا. وَعِنْدَمَا عَلِمَتْ قُرَيْشٌ بِذَلِكَ خَرَجَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْهُمْ يَتَرَاوَحُ بَيْنَ تِسْعمِائَةٍ وَأَلْفٍ، وَكَانَ بَيْنَهُمْ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمّ الرَّسُولِ(ﷺ) وَأَبُو جَهْلٍ.

وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) فِي ثَلَاثمِائَةٍ وَأَرْبَعَةَ عَشْرَ رَجُلًا، وَأَمَامَهُمْ فِي مَسِيرِهِمْ رَايَتَانِ سَوْدَاوَانِ. وَعِنْدَمَا وَجَدَ الْمُسْلِمُونَ أَنْ عَدَدَ قُرَيْشٍ يَزِيدُ عَنْهُمْ كَثِيرًا، حَاوَلَ بَعْضُهُمْ التَّرَاجُعَ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ (سُورَةُ الْأَنْفَال: آية ١٢).

أَمَّا قُرَيْشٌ فَكَادَتْ تَنْقَسِمُ إِلَى فَرِيقَيْنِ: فَرِيقٍ يُرِيدُ الرُّجُوعَ مَا دَامَتْ التِّجَارَةُ قَدْ نَجَت، وَفَرِيقٍ –يَقُودُهُ أَبُو جَهْلٍ– يُرِيدُ الْحَرْبَ، وَنَزَلَ هَذَا الْفَرِيقُ الْأَخِيرُ عِنْدَ بَدْرٍ خَلْفَ كثيب مِنَ الرِّمَالِ، وَتَحْدِيدًا بَالعدوة القصوى.

كَانَ مَوْقِفُ المُسْلِمِينَ حرِجًا، فَقَدْ خَرَجُوا لِمُوَاجَهَةِ قَافِلَةٍ تِجَارِيَّةٍ لَا يَزِيدُ حَرَسُهَا عَنِ أَرْبَعِينَ رَجُلًا، فَإِذا هُمْ يُوَاجِهُونَ جَيْشًا يَضُمُّ أَشْرَافَ مَكَّةَ، لِذَلِكَ اسْتَشَارَ الرَّسُولُ(ﷺ) أَصْحَابَهُ فِي هَذَا الْوَضْعِ، فَأَعْلَنَ كِبَارُ المُهَاجِرِينَ مُوَافَقَتَهُمْ عَلَى الْخُرُوجِ لِمُهَاجَمَةِ قُرَيْشٍ، أَمَّا الْأَنْصَارُ فَلَمَّا شَاوَرَهُمْ فِي أَمْرِ قِتَالِ قُرَيْشٍ، أَظْهَرُوا لَهُ طَاعَتَهُمْ، وَقَالُوا: "اِمْضِ يَا رَسُولَ اللهِ لِمَا أَرَدْتَ فَنَحْنُ مَعَكَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بَالْحَقِّ لَوِ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ"، وَفِي هَذَا الصَّدَدِ يَقُولُ ابْنُ مَسْعُودٍ(ﷺ): "شَهِدْتُ مِنَ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ مَشْهَدًا لَأَنْ أَكُونَ صَاحِبهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ أَتَى النَّبِيّ(ﷺ) وَهُوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: لَا نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ

فَرَأَيْت النَّبِيّ(ﷺ) أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ"، ثُمَّ قَالَ(ﷺ): "سِيرُوا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ وَأَبْشِرُوا فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللهِ لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ".

فَتَابَعَ الْمُسْلِمُونَ سَيْرَهُمْ حَتَّى إِذَا مَا وَصَلُوا إِلَى أَدْنَى مَاءٍ مِنْ بَدْرٍ، رَأَى الرَّسُولُ(ﷺ) أَنْ يَنْزِلَ بِهَذَا الْمَكَانِ، فَسَأَلَهُ الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ(رضي الله عنه): "يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزِلَ، أَمَنْزِلاً أَنْزَلَكَهُ اللهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَهُ، وَلَا نَتَأَخَّرَ عَنْهُ، أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟" قَالَ: "بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ"، فَأَشَارَ عَلَيْهِ الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ(رضي الله عنه) أَنْ يَمْضِيَ بَالمُسْلِمِينَ عَنْ هَذَا الْمَنْزِلِ حَتَّى يَنْزِلَ بِهِمْ فِي مَكَانٍ قَرِيبٍ مِنْ الْمَاءِ، فَاسْتَحْسَنَ الرَّسُولُ هَذَا الرَّأْيَ، وَنَزَلَ بَالْمُسْلِمِينَ فِي الْجِهَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْوَادِي الَّذِي تَقَعُ فِيهِ بَدْرٌ، فِي لَيْلَةِ الْجُمْعَةِ السَّابِعِ عَشْرَ مِنْ رَمْضَان.

أَمَّا قُرَيْشٌ فَنَزَلَتْ –كَمَا أَشَرْنَا– فَي ثَنَايا التِّلَالِ الْغَرْبِيَّةِ، بَالعدوة القصوى، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ ﴾ (سُورَةُ الْأَنْفَال: آيَة ٤٢).

وَتَزَامَنَ نُزُولُ أَمْطَارِ السَّمَاءِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ مَطَرًا غَزِيرًا فِي الْجِهَةِ الَّتِي عَسْكَرَتْ فِيهَا قُرَيْشٌ، أَمَّا الْمَوْقِعُ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ الْمُسْلِمُون فَنَزَلَتْ بِهِ رَذَاذًا.

كَمَا تَوَافَقَ ذَلِكَ مَعَ اسْتِخْدَامِ المُسْلِمِينَ لِلْإِبِلِ، فَنُزُولُ الْمَطَرِ الْخَفِيفُ فِي الْجِهَةِ الَّتِي يُعَسْكِرُونَ فِيهَا لبد الْأَرْضِ وَسَاعَدَ عَلَى مَسِيرِ إِبِلِهِمْ، أَمَّا قُرَيْشٌ فَكَانَ مَعَهَا عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْخَيْلِ، فَغَزَارَةُ الْمَطَرِ مِنَ النَّاحِيَةِ الَّتِي عَسْكَرَتْ فِيهَا بَلَلَ الْأَرْضِ، مِمَّا عَرْقَلَ مَسِيرَ خَيْلِهَا، فَكَانَتْ الْأَمْطَارُ إِشَارَةً بِأَنَّ قُوَى الطَّبِيعَةِ تُسَانِدُ المُسْلِمِينَ وَتُحَارِبُ مَعَهُمْ.

كَمَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ مَعَ قِلَّةِ عَدَدِهِمْ يَسُودُهُمُ النِّظَامُ، فَقَدْ صَفَّ الرَّسُولُ(ﷺ) أَصْحَابَهُ حِينَ أَخَذَ يَتَهَيَّأُ لِلْمَعْرَكَةِ، فَجَعَلَهُمْ فِي ثَلَاثَةِ أَلْوِيَةٍ: لِوَاءُ المُهَاجِرِينَ وَيَحْمِلُهُ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ(ﷺ)، وَلِوَاءُ الْخَزْرَجِ مَعَ الْحُبَابِ بْنِ الْمُنْذِرِ(ﷺ)، وَلِوَاءُ الْأَوْسِ مَعَ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ(ﷺ)، أَمَّا قُرَيْشٌ فَلَمْ يَكُنْ لَهَا قِيَادَةٌ عُلْيَا تُشْرِفُ عَلَى تَنْظِيمِ صُفُوفِهَا، كَذَلِكَ اتَّخَذَ الرَّسُولُ(ﷺ) الْوَضْعَ الْأَحْسَنَ بَاسْتِدْبَارِهِ الرِّيحَ، وَجَعَلَ تُرَابَهَا فِي وَجْهِ الْعَدُوِّ، كَمَا جَعَلَ الشَّمْسَ خَلْفَهُ حَتَّى لَا تُوَاجِهَ عُيُونَ جُنْدِهِ، أَمَّا قُرَيْشٌ فَاسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسَ.

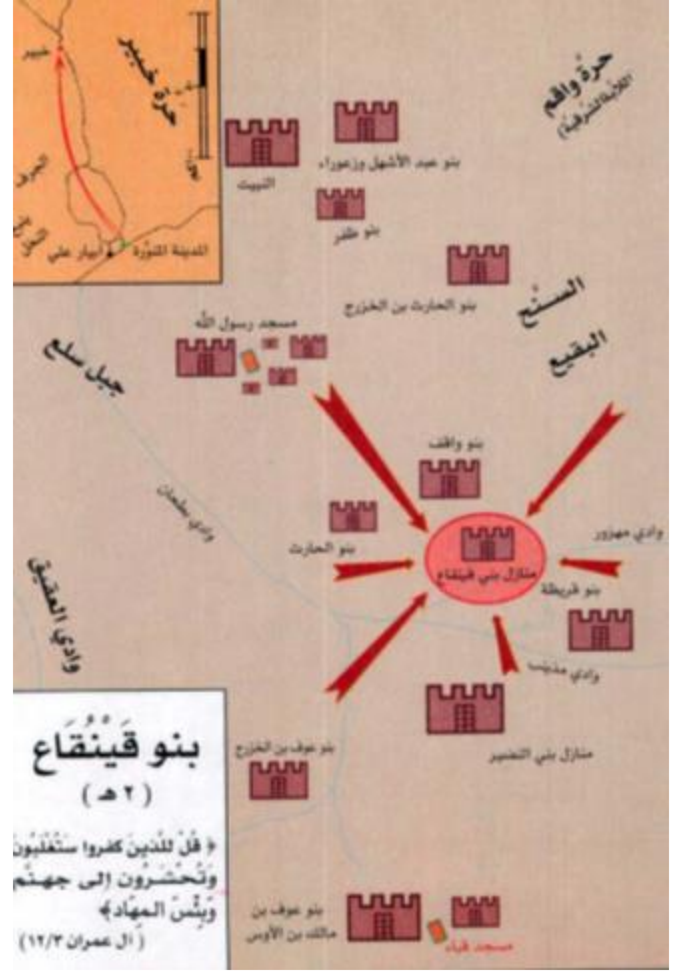
بَدَأَتِ الْمَوْقِعَةُ عَلَى شَكْلِ مُبَارَزَةٍ فَرْدِيَّةٍ، بِطَلَبٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَخَرَجَ ثَلَاثَةُ فِتْيَةٍ مِنْ الْأَنْصَارِ، إِلَّا أَنَّ قُرَيْشًا طَلَبَتْ أَنْ تَكُونَ الْمُبَارَزَةُ مَعَ أَبْنَاءِ عُمُومَتِهِمْ مِنَ المُهَاجِرِينَ، فَاخْتَارَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) خُرُوجَ عُبَيْدَةَ بْنِ الْحَارِثِ(ﷺ) وَحَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ(ﷺ) وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ(ﷺ)، فَبَارَزَ عُبَيْدَةُ(ﷺ) عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَبَارَزَ حَمْزَةُ(ﷺ) شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَبَارَزَ عَلِيٌّ(ﷺ) الْوَلِيدَ بْنَ عُتْبَةَ، فَأَمَّا حَمْزَةُ(ﷺ) وَعَلِيٌّ(ﷺ) فَلَمْ يُمْهِلَا خِصْمَيْهِمَا وَقَتْلَاهُمَا، وَأَمَّا مُبَارَزَةُ عُبَيْدَةَ(ﷺ) وَعُتْبَةَ فَقَدْ أَصَابَ كُلٌّ مِنْهُمَا الْآخِرَ، فَكَرَ حَمْزَةُ(ﷺ) وَعَلِيٌّ(ﷺ) بِسَيْفَيْهِمَا عَلَى عُتْبَةَ، فَأَجْهَزَا عَلَيْهِ، وَحَمِلَا عُبَيْدَةَ(ﷺ) وَهُوَ جَرِيحٌ، وَمَاتَ شَهِيدًا.

ثُمَّ اشْتَبَكَ الْفَرِيقَانِ فِي قِتَالٍ شَدِيدٍ انْكَسَرَ فِيهِ المُشْرِكُونَ، وَعَمدُوا إِلَى الْفَرَارِ لَا يَلون عَلَى شَيْءٍ، وَانْتَهَتِ الْمَعْرَكَةُ بِنَصْرِ المُسْلِمِينَ وَهَزِيمَة قُرَيْشٍ هَزِيمَةً نَكْرَاءَ، بَعْدَ أَنْ قُتِلَ مِنْ أَشْرَافِهَا وَسَادَاتِهَا سَبْعُونَ رَجُلًا، وَتَمَّ أَسْرُ سَبْعِينَ آخَرِينَ.

أَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَقَدْ اسْتُشْهِدَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةَ عَشْرَ رَجُلًا، فَقَامَ الرَّسُولُ(ﷺ) وَالصَّحَابَةُ بِدَفْنِهِمْ فِي مَوَاضِعِ اسْتِشْهَادِهِمْ، أَمَّا قَتْلَى قُرَيْشٍ فَدَفَنُوهُمْ فِي لَحْدٍ وَاحِدٍ احْتَفَرَ لَهُمْ فِي مَكَانِ الْمَعْرَكَةِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ مَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ مَعْرَكَةُ بَدْرٍ مِنْ إِحْرَازِ المُسْلِمِينَ النَّصْرَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَمْثَالَهُمْ مِنَ الْقُرَشِيِّينَ، يَجْعَلُنَا نُؤَكِّدُ أَنْ غَزْوَةَ بَدْرٍ إِحْدَى مُعْجِزَاتِ الرَّسُولِ(ﷺ)، وَفِي آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ، فَفِيهَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ نَاصَرُوا الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ حَتَّى انْتَصَرُوا عَلَى قُرَيْشٍ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ (سُورَةُ الْأَنْفَالِ: آيَة ٩).

أَمَّا الْأَسْرَى فَبَعْضُهُمْ قُتِلَ، وَالْبَعْضُ قَبِلَ الرَّسُولُ(ﷺ) أَخْذَ الْفِدْيَةِ مِنْهُ، وَالْبَعْضُ الْآخَرُ مِمَّنْ لَيْسَ لَدَيْهِ مَالٌ عَتَقَهُ رَسُولُ الرَّحْمَةِ(ﷺ)، وَقَدْ جَعَلَ الرَّسُولُ(ﷺ) فِدَاءَ الرَّجُلِ مَا بَيْنَ الْأَلِفِ دِرْهَمٍ وَأَرْبَعَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ. وَكَانَ فِي الْأَسْرَى مَنْ يُجِيدُ الكِتَابَةَ وَيَعْجَزُ عَنْ دَفْعِ الْفِدَاءِ، عَلَى حِينَ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مَنْ يَعْرِفُهَا؛ فَجَعَلَ الرَّسُولُ فِدَاءَهُمْ أَنْ يُعَلِّمُوا أَوْلَادَ الْأَنْصَارِ الْكِتَابَةَ، فكَانَ كُلُّ أَسِيرٍ يُعَلِّمُ عَشْرَةً مِنَ الْغِلْمَانِ الْكِتَابَةِ يُخْلِي سَبِيلَهُ.



غَزْوَةُ بَنِي قَيْنُقَاع:

لَمَّا قَدمَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) الْمَدِينَةَ كَانَ فِيهَا مِنْ أَحْيَاءِ الْيَهُود: بَنُو قَيْنُقَاع، وَبَنُو النَّضِيرِ، وَبَنُو قُرَيْظَةَ، وَكَانَ نُزُوحُهُمْ إِلَيْهَا أَيَّامَ بختنصر الْبَابِلِيِّ حَوَالَيْ سَنَةِ ٥٨٦ق.م الَّذِي اسْتَوْلَى عَلَى الشَّامِ، وَهَدَمَ مَا كَانَ بِهَا مِنْ مُتَعَبَّدَاتِهِمْ، عِقَابًا لَهُمْ عَلَى عُتُوِّهِمْ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادِهِمْ.

وَقِيلَ إِنَّ هِجْرَةَ الْيَهُودِ إِلَى الْحِجَازِ: خَيْبَرَ وَمَا جَاوَرَهَا، وَيَثْرِب وَمَا قَرُبَ مِنْهَا، إِنَّمَا كَانَ سَنَةَ ٧٠م، وَقَدْ سَكَنَ بِجِوَارِهِمْ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ قَبِيلَتَا الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَكَانَ الْيَهُودُ أَصْحَابَ ثَرْوَةٍ

وَمَالٍ وَزُرُوعٍ، وإِنْ لَمْ يَكُونُوا أَصْحَابَ بَأْسٍ وَقُوَّةٍ كَالْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، فَمِنْ ثَمَّ عَاشُوا كَالْأَتْبَاعِ لَهُمْ، صَاغِرِينَ مُسْتَذَلِّينَ، وَكَانَ الْيَهُودُ أَهْلَ كِتَابٍ، وَيَعْلَمُونَ صِفَات رَسُولِ اللهِ (ﷺ) الْمُنْتَظَرِ فِي تَوْرَاتِهِمْ، فَكَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ قَبْلَ البِعْثَةِ بَالرَّسُولِ الَّذِي سَيُبْعَثُ، وأَنَّهُمْ سَيَتْبَعُونَهُ وَيَأْخُذُونَ بِثَأْرِهِمْ مِنْهُمْ، إِلَّا أَنَّهُمْ مَا لَبِثُوا بعْدَ بِعْثَةِ الرَّسُولِ(ﷺ) أَنْ جَحدُوا رِسَالَتَهُ وَكَفَرُوا بِهِ عِنَادًا وبَغْيًا وَحَسَدًا لِلْعَرَبِ.

وَلَمَّا كَانَ الْيَهُودُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شَعْبُ اللهِ الْمُخْتَارِ، وَأَنَّ النُّبُوَّةَ لَا تَكُونُ إِلَّا فِيهِمْ، فَقَدْ عَادَوا الْإِسْلَامَ، وَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا الْقَلِيلُ، أَمْثَالُ: عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَّامٍ، وَأَهْلِهِ وعمته، ومُخَيريق.

وَقَدْ نَافَقَ بَعْضُهُمْ وَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ خِدَاعًا وَمضارة لِلْمُسْلِمِينَ –كَمَا قَدَّمْنَا– وَأَمَّا الْغَالِبِيَّةُ فَقَدْ نَاصَبُوا الْإِسْلَامَ الْعَدَاءَ، وَبِخَاصَةٍ بَعْدَ انْتِصَارِ بَدْرٍ، وَكَانَ الْيَهُودُ قَدْ بَدَأَ تَذَمُّرُهُمْ قَبْلَهُ –قَبْلَ انْتِصَارِ بَدْرٍ– وَشَرَعُوا فِي وَضْعِ الدَّسَائِسِ لِتَفْرِيقِ وَحْدَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَوْلَا عَهْدُ الْمُوَادَعَةِ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لَوَقَعَ الصِّدَامُ؛ لِذَا فَمَا كَادَ الْمُسْلِمُونَ يَعُودُونَ مِنْ انْتِصَارِ بَدْرٍ، حَتَّى بَدَأَتْ طَوَائِفُ الْيَهُودِ تَسْتَخِفُّ بِالنَّصْرِ زَاعِمِينَ أَنَّ أَهْلَ بَدْرٍ لَقوا مِنْ لَا خِبْرَةَ لَهُمْ بِفُنُونِ الْحُرُوبِ، وَلَئِنْ وَقَعَتْ بَيْنَ الْيَهُودِ وَبَيْنَ المُسْلِمِينَ الْحَرْبُ فَسَيْعِرِفُ المُسْلمُونَ خِبْرَاتِ الْيَهُودِ الْقِتَالِيَّةِ، فَرَأَى الرَّسُولُ(ﷺ) أَنْ يَعِظَهُمْ بِالْحُسْنَى، فَجَمَعَ يَهُودَ بَنِي قَيْنُقَاعِ فِي سُوقٍ لَهُمْ، ثُمَّ قَالَ: "يَا مَعْشَرَ يَهُود، احْذَرُوا مِنَ اللهِ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ بِقُرَيْشٍ مِنَ النِّقْمَةِ وأَسْلَمَوا، فَإنكم قَدْعرفتم أني نبي مرسل، تجدُون ذَلِكَ فِي كتابكم وعهد الله إليكم".

فَقَالَوا: "يَا مُحَمَّدُ لا يغرَّنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بَالحروب فَإصبت منهم فرصة، أما والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن النَّاس"[1]، فَإنزل الله(ﷻ) فِي شإِنَّهُمْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٢ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ

(١) يَعْنُونَ أَنَّهُمْ أَهْلُ الْخِبْرَةِ فِي الْحُرُوبِ.

كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ ﴾ (سورة آل عمران: آية ١٢- ١٣).

ثُمَّ تَمَادَوْا فِي شَرِّهِمْ، وَلَمْ يَعْبَأوا بَالتَّقَالِيدِ الْعَرَبِيَّةِ أَوِ الْقِيَمِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، فَرَاوَدُوا امْرَأَةً عَرَبِيَّةً جَاءَتْ إِلَى سُوقِ بَنِي قَيْنُقَاع لِتَبِيعَ بِضَاعَتَهَا عَلَى كَشْفِ وَجْهِهَا، فَأَبَتْ، فَأَقْدَمَ الصَّائِغُ الَّتِي كَانَتْ تَجْلِسُ عِنْدَهُ عَلَى عَقْدِ طَرَفِ ثَوْبِهَا إِلَى ظَهْرِهَا، بِدُونِ أَنْ تَشْعُرَ، فَلَمَّا قَامَتِ انْكَشَفَتْ عَوْرَتُهَا، فَضَحِكُوا مِنْهَا، فَاسْتَغَاثَتْ، فَوَثَبَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ كَانَ بِالسُّوقِ عَلَى الصَّائِغِ الْيَهُودِيِّ فَقَتَلَهُ، فَتَكَاثَرَ الْيَهُودُ عَلَى الْمُسْلِمِ فَقَتَلُوهُ، فَاسْتَصْرَخَ أَهْلُ الْمُسْلِمِ الْمُسْلِمِينَ، فَغَضِبَ الْمُسْلِمُونَ وَوَقَعَ الشَّرُّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْيَهُودِ، ثَأْرًا لِلْعِرْضِ وَلِلدَّمِ.

عِنْدَئِذٍ لَمْ يَجِدْ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) أَمَامَهُ إِلَّا غَزْوَهُمْ بَعْدَ أَنْ نَقَضُوا الْعَهْدَ بِهَذِهِ الْفِعْلَةِ، فَأَرْسَلَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) وَأَخْبَرَهُمْ بِنَقْضِ الْعَهْدِ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ امْتِثَالًا لِلْآدَابِ الْقُرآنِيَّةِ، الَّتِي تَنُصُّ عَلَى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (سُورَةُ الْأَنْفَالِ: آية ٥٨).

ثُمَّ حَاصَرَهُمْ خَمْسَ عَشَرَةَ لَيْلَةً حَتَّى أَقَرُّوا بِخُضُوعِهِمْ، فَاسْتَشَارَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) كِبَارَ الصَّحَابَةِ فَأَشَارَوا بِقَتْلِهِمْ، وَكَانَ لَهُمْ حَلِيفَانِ: الْأَوَّلُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ الْمُنَافِقُ، وَالْآخَرُ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ(ﷺ)، فَأَمَّا الْأَخِيرُ فَقَدْ تَبَرَّأَ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ مِنْهُمْ، وَقَالَ: "يَا رَسُولَ اللهِ، أتَوَلَّى اللهَ وَرَسُولَهُ وَأَبْرَأُ مِنْ حِلْفِ هَؤُلَاءِ الكُفَّارِ وَوِلَايَتِهِمْ"، وَأَمَّا الْمُنَافِقُ ابْنُ أُبَيٍّ فَقَالَ: "يَا مُحَمَّدُ أَحْسِن فِي موالي" و"إني اخشى الدوائر"، فَأَعْرَضَ عَنْهُ الرَّسُولُ(ﷺ)، فَكَرَّرَ مَقَالَتَهُ، وَالرَّسُولُ يُعْرِضُ عَنْهُ" حَتَّى قَبِلَ شفَاعَتَهُ فِيهِمْ عَلَى أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَلَهُمْ نِسَاؤُهُمْ وَذُرِّيَّتُهُمْ، وَلِلْمُسْلِمِينَ أَمْوَالُهُمْ.

وَبِنَاءً عَلَى هَذَا أَوْكَلَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) إِلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ(ﷺ) إِجْلَاءَهُمْ، وَأَمْهَلَهُمْ ثَلَاثَ لَيَالٍ، فَشَدُّوا رِحَالَهُمْ إِلَى أَذْرعات عَلَى حُدُودِ الشَّامِ، وَبِذَلِكَ كَفَى اللهُ المُسْلِمِينَ شَرَّ شَوْكَةٍ مِنَ الشَّوْكَاتِ الثَّلَاثِ الَّتِي كَانَتْ فِي ظُهُورِهِمْ وَقْتَئِذٍ. وَكَانَ ذَلِكَ فِي شَوَّالٍ عَامَ ٢هـ، وَقِيلَ بَلْ كَانَ فِي أَوَائِلِ عَام ٣هـ.

غَزْوَةُ أُحُدٍ، شَوَال سنة ٣هـ:

لَمْ تَهْدَأْ قُرَيْشٌ وَلَمْ تَسْتَقِرّ بَعْدَ هَزِيمَتِهَا فِي بَدْرٍ، وَوطدت الْعَزْمَ عَلَى الِانْتِقَامِ مِنَ الرَّسُولِ(ﷺ) وَالْمُسْلِمِينَ، وَجَمَعَ أَبُو سُفْيَانَ حَوَالَي ثَلَاثَةَ آلَافٍ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْأَحَابِيشِ[1] وَسَارَ مُتَّجِهًا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَخَرَجَتْ مَعَهُمْ نِسَاؤُهُمْ. وَلَمَّا عَلِمَ الرَّسُولُ(ﷺ) بِمَسِيرِ قُرَيْشٍ اسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ: فَأَشَارَ بَعْضُهُمْ بَالِاعْتِصَامِ بَالْمَدِينَةِ وَكَانَ هَذَا مِنْ رَأْيِ الرَّسُولِ(ﷺ) كَمَا وَافَقَهُ فِي الرَّأْيِ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ، إِلَّا أَنَّ أَغْلَبَ شُبَّانِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَمْ يَشْهَدُوا غَزْوَةَ بَدْرٍ أَرَادُوا الْخُرُوجَ وَمُلَاقَاةَ الْمُشْرِكِينَ فَقَبِلَ الرَّسُول(ﷺ) رَأْيَ الْأَغْلَبِيَّةِ، وَمِنْ ثَمَّ سَارَ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– وَقْتَ السَّحَرِ فِي أَلْفٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَبَعْدَ أَنْ تَقَدَّمَ الْمُسْلِمُونَ مَرْحَلَةً كَبِيرَةً مِنَ الطَّرِيقِ، رَجِعَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ بْنِ سَلُولٍ بِثُلُثِ الْجَيْشِ، وَقَالَ: "عَصَانِي وَاتَّبَعَ الْوِلْدَانَ"، وَكَادَتْ تَحل الْفِتْنَةُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (سُورَةُ آل عِمْرَان: آية ١٢١-١٢٢).



وَعِنْدَمَا وَصَلَ الرَّسُولُ(ﷺ) إِلَى جَبَلِ أُحُدٍ نَصَبَ مُعَسْكَرَهُ عَلَى سَطْحِ الْجَبَلِ الْمُوَاجِهِ لِلْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ، وَهُنَا تَظْهَرُ عَبْقَرِيَّةُ الرَّسُولِ(ﷺ) الْحَرْبِيَّةُ،

(١) الْأَحَابِيشُ: هُمْ بَنُو الْمُصْطَلَقِ، وَبَنُو هَذْلٍ بْنِ خزيمَةَ، تَحَالَفُوا عِنْدَ حُبَيْشٍ وَهُوَ جَبَلٌ بِمَكَّةَ فَسُمّوا بِهِ، وَقِيلَ سُمّوا أَحَابِيشَ لِاجْتِمَاعِهِمْ مِنَ التَّحْبِيشِ وَهُوَ التَّجَمُّع.

فَقَدْ حَصَّنَ مَوَاقِعَ جَيْشِهِ، وَاحْتَمَى بِالْجَبَلِ وَوَضَعَ الرَّمَاةَ فِي أَعْلَاهُ لِيَحْمُوا ظَهْرَ الْجَيْشِ، وَأَوْصَى (ﷺ) الرُّمَاةَ أَلَّا يَتَخَلُّوا عَنْ مَوَاقِعِهِمْ، سَوَاءً أَنْتَصَرَ الْمُسْلِمُونَ أَمْ انْهَزَمُوا.

وَبَدَأَتِ الْمَعْرَكَةُ عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ بَالمبَارَزَةِ، وَتَزَعَّمَ المُشْرِكِينَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، كَمَا كَانَ عَلَى رَأْسِ فُرْسَانِهِمْ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ، ثُمَّ دَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ فَانْتَصَرَ الْمُسْلِمُونَ بَادِىَء ذِي بِدْءٍ، إِلَّا أَنَّهُمْ عِنْدَمَا رَأَوْا تَقَهْقُرَ الكُفَّارِ لَمْ يَتَذَكَّرِ الرُّمَاةُ نَصِيحَةَ الرَّسُولِ(ﷺ) بِالْبَقَاءِ فِي أَمَاكِنِهِمْ، فَتَخَلَّوا عَنْهَا، وَأَسْرَعُوا يَجْمَعُونَ الْأَسْلَابَ وَالْغَنَائِمَ، وَانْتَهَزَ خَالِدٌ بْنُ الوَلِيدِ هَذِهِ الْفُرْصَةَ، وَاسْتَوْلَى عَلَى مَوْقِعِ الرُّمَاةِ وَأَثْخَنَ ظُهُورَ المُسْلِمِينَ مِنْ خَلْفِهِمْ، فَاخْتَلَطَ الْأَمْرُ عَلَى المُسْلِمِينَ وَاضْطَرَبَتْ أَحْوَالُهُمْ وَاخْتَلَّ نِظَامُهُمْ.

ثُمَّ صَاحَ ابْنُ قميئة المُشْرِكُ قَائِلًا: "أَلَّا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَتَخَاذَلَ الْمُسْلِمُونَ وَدَبَّ الْيَأْسُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَعَلَى رَأْسِهِمْ أَنَسٌ بْنُ النَّضْرِ(ﷺ) صَاحَ يَقُولُ: "مَاذَا تَصْنَعُونَ بِالْحَيَاةِ مِنْ بَعْدِهِ؟ فَمُوتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ"، وَالْتَفَّ الصَّحَابَةُ حَوْلَ الرَّسُولِ(ﷺ) يَصُدُّونَ عَنْهُ سِهَامَ المُشْرِكِينَ، وَكَانَ عَلَى رَأْسِهِمْ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ(ﷺ) الَّذِي تَلَقَّى حَوَالَي الْأَرْبَعِينَ سَهْمًا. وَهَكَذَا اسْتَبْسَلَ كَثِيرٌ مِنَ المُسْلِمِينَ فِي الدِّفَاعِ عَنِ الرَّسُولِ(ﷺ)، وَشَجَّ رَأْسَ الرَّسُولِ (ﷺ) وَكُسِرَتْ رُبَاعِيَّتُهُ الشَّرِيفَةُ.

وَانْخَدَعَ الكُفَّارُ بَإِشَاعَةِ مَوْتِهِ(ﷺ)، فَوَقَفَتِ الْمَعْرَكَةُ بَعْدَ أَنِ اسْتُشْهِدَ مِنَ المُسْلِمِينَ حَوَالَي السَّبْعِينَ رَجُلًا، مِنْهُمْ: مُصْعَبٌ بْنُ عُمَيْرٍ(ﷺ) حَامِلُ رَايَةِ المُسْلِمِينَ فِي الْمَعْرَكَةِ، وَحَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ(ﷺ) –عَمُّ الرَّسُولِ(ﷺ)– الَّذِي قَتَلَهُ وَحْشِيٌّ الْحَبَشِيُّ بِتَحْرِيضٍ مِنْ هِنْدٍ بِنْتِ عُتْبَةَ، الَّتِي كَانَتْ قَدْ وَعَدَتْ وَحْشِيًّا بِالْعِتْقِ إِذَا هُوَ تَمَكَّنَ مِنْ حَمْزَةَ(ﷺ)، وَلَمْ تَكْتَفِ هِنْدٌ بِقَتْلِ حَمْزَةَ(ﷺ) بَلْ بَقَرَتْ بَطْنَهُ وَأَخَذَتْ كَبِدَهُ فَلاكتها حَتَّى إِذَا عَجِزَتْ عَنْ أَكْلِهَا لَفَظَتْهَا.

وَيُرْوَى عَنْ وَحْشِيٍّ هَذَا أَنَّهُ قَالَ: "وَاللهِ إِنِّي لَأَنْظُرُ لِحَمْزَةَ يَهدُّ النَّاسَ بِسَيْفِهِ مَا يُبْقِي شَيْئًا يَمُرُّ بِهِ، مِثْلَ الْجَمَلِ الْأَوْرَقِ، إِذْ قَدْ تُقَدِّمُنِي إِلَيْهِ سِبَاعٌ، فَقَالَ حَمْزَةُ(ﷺ): "هَلُمَّ يَا ابْنَ مُقَطَّعَةِ الْبُظُورِ[1]. فَضَرَبَهُ ضَرْبَةً فَكَأَنَّمَا أَخْطَأَ رَأْسَهُ، وَهزَزْتُ حَرْبَتِي حَتَّى إِذَا

(١) فِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ أُمَّ سِبَاعِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى كَانَتْ خَتَّانَةً بِمَكَّةَ.

رَضِيتُ مِنْهَا دَفَعْتُهَا عَلَيْهِ فَوَقَعَتْ فِي ثُنَّتِهِ[1] حَتَّى خَرَجَتْ مِنْ بَيْنِ رِجْلَيْهِ، فَأَقْبَلَ نَحْوِي فَغُلِبَ، فَوَقَعَ وَأَمْهَلْتُهُ حَتَّى إِذَا مَاتَ جِئْتُ فَأَخَذْتُ حَرْبَتِي، ثُمَّ تَنَحَّيْتُ إِلَى الْعَسْكَرِ وَلَمْ يَكُنْ لِيَ بشَيْءٍ حَاجَةٌ غَيْرُه".

وعَنْ الْبَرَاءِ(ﷺ)، قَالَ: لَقِينَا الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ وَأَجْلَسَ النَّبِيّ(ﷺ) جَيْشًا مِن الرُّمَاةِ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللهِ وَقَالَ: "لَا تَبْرَحُوا إِنْ رَأَيْتمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِم فَلَا تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُعِينُونَا"، فَلَمَّا لَقِينَا هَرَبُوا حَتَّى رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ فِي الْجَبَلِ رَفَعْنَ عَنْ سُوقِهِنَّ قَدْ بَدَتْ خَلَاخِلُهُنَّ فَأَخَذُوا يَقُولُونَ: الْغَنِيمَةَ، الْغَنِيمَةَ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: عَهِدَ إِلَيَّ النَّبِيُّ(ﷺ) أَنْ لَا تَبْرَحُوا فَأَبَوْا، فَلَمَّا أَبَوْا صُرِفَ وُجُوهُهُمْ فَأُصِيبَ سَبْعُونَ قَتِيلًا، وَأَشْرَفَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ فَقَالَ لَا تُجِيبُوهُ فَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ قَالَ: لَا تُجِيبُوهُ، فَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ؟ فَقَالَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ قُتِلُوا فَلَوْ كَانُوا أَحْيَاءً لَأَجَابُوا، فَلَمْ يَمْلِكْ عُمَرُ نَفْسَهُ، فَقَالَ: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْكَ مَا يُخْزِيكَ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: اعْلُ هُبَلُ، فَقَالَ النَّبِيّ(ﷺ): "أَجِيبُوهُ"، قَالُوا مَا نَقُولُ؟ قَالَ: "قُولُوا اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ"، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ، فَقَالَ النَّبِيّ(ﷺ): "أَجِيبُوهُ"، قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: "قُولُوا اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ"، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ وَالْحَرْبُ سِجَالٌ".

وَعَادَ الرَّسُولُ(ﷺ) إِلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانَت هَذِهِ أَوَّلَ هَزِيمَة مُنيَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ، إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ دَرْسًا قَاسِيًا عَلَّمَهُمْ كَيْفَ يُحَافِظُونَ عَلَى مَوَاقِفِهِمْ وَلَا يَنْصرِفُونَ إِلَى جَمْعِ الْأَسْلَابِ، كَمَا أَنَّ هَذِهِ الغَزْوَةَ كَشَفَتْ عَنِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ ظَهَرَ السُّرُورُ عَلَى وُجُوهِهِمْ مِثْلُهُمْ مِثْلُ: الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ.

غَزْوَة بَنِي النَّضِيرِ:

كَانَ يَهُودُ بَنِي النَّضِيرِ مِمَّنْ عَاهَدُوا رَسُولَ اللهِ(ﷺ)، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَفُوا بَالْعَهْدِ وَهَمُّوا بِقَتْلِ رَسُولِ اللهِ(ﷺ)، ذَلِكَ أَنَّ أَحَدَ المُسْلِمِينَ قَتَلَ رَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي عَامِرٍ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عِلْمٌ

(١) الثُنَّة: بَيْنَ السُرَّةِ وَالْعَانَةِ.

بِأَنَّ لَهُمَا عَهْدًا مَعَ رَسُول اللهِ(ﷺ)، فَرَأَى (ﷺ) أَنْ يَدْفَعَ الدِّيَّةَ لِأَهْلِهِمَا، وَرَأَى الاسْتِعَانَةَ بِبَنِي النَّضِيرِ فِي دَفْعِ الدِّيَّةِ نَظَرًا لِوُجُودِ عَهْدٍ بَيْنَ بَنِي النَّضِيرِ وَبَنِي عَامِرٍ.

فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) يَسْتَعِينُهُمْ فِي دَفْعِ الدِّيَّةِ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، فَأَظْهَرَ الْيَهُودُ تَجَاوُبًا ظاهريًّا، فَنَاجَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا: إِنَّكُمْ لَنْ تَجِدُوا الرَّجُلَ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ حاله هذه"، ثُمَّ اتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَصْعَدَ أَحَدُهُمْ عَلَى الْبَيْتِ الَّذِي قَعَدَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) بِجِوَارِ جِدَارِهِ، وَيُلْقِيَ عَلَيْهِ صَخْرَةً بِنِيَّةِ قَتْلِهِ.

وَأَتَى رَسُولَ اللهِ (ﷺ) خَبَرُ تَدْبِيرِهِمْ مِنَ السَّمَاءِ، فقَامَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) وَرَجِعَ إِلَى الْمَدِينَةِ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَصْحَابَهُ بِعَزْمِ الْيَهُودِ السَّابِقِ، وَمِنْ ثَمَّ أَرْسَلَ (ﷺ) إِلَيْهِمْ يَأْمُرُهُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْ جِوَارِهِ، وَأَمْهَلَهُمْ عَشرَةَ أَيَّامٍ، وَإِلَّا حَاقَ بِهِمُ الْهَلَاكُ، فَأَيْقَنَ الْيَهُودُ أَنَّ اللهَ(ﷻ) أَخْبَرَ رَسُولَهُ(ﷺ) بِتَدْبِيرِهِمْ، وَأَنْجَاهُ مِنْهُمْ، وَصَارُوا مُتَحَيِّرِينَ لَا يَدْرُونَ مَا يَفْعَلُونَ.

وَبَيْنَمَا هُمْ فِي حيرَتِهِمْ، جَاءَهُمْ رُسُلُ أَهْلِ النِّفَاقِ (عَبْدُ اللهِ ابْنُ أُبَيٍّ بْنِ سَلُولٍ وَأَتْبَاعُهُ) أَنِ اثْبُتُوا، وَتَمَنَّعُوا، فَإِنَّا لَنْ نُسَلِّمَكُمْ، إِنْ قُوتِلْتُمْ قَاتَلْنَا مَعَكُمْ، وَإِنْ أُخْرِجْتُمْ خَرَجْنَا مَعَكُمْ، فَقَوِيَتْ قُلُوبُ الْيَهُودِ، وَأَرْسَلُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ(ﷺ) بِإِعْلَانِهِمْ

نَقْضَ الْعَهْدِ مَعَهُ، وَرَفْضِهِمْ الْخُرُوجَ، وَفِي ذَلِكَ نَزَلَ قَوْلُ رَبِّ الْعِزَّةِ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ (سورة الحشر: آية ١١- ١٢).

فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) المُسْلِمِينَ بِالتَّهَيُّؤِ لِلْقِتَالِ، وَسَارَ إِلَيْهِمْ (ﷺ) فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ مِنَ الْعَامِ الرَّابِعِ لِلْهِجْرَةِ، وَحَاصَرَهُمْ سِتَّ لَيَالٍ، وَقِيلَ: خَمْسَ عَشَرَةَ لَيْلَةً، ثُمَّ أَمَرَ بِقَطْعِ نَخِيلِهِمْ وَإِحْرَاقِهِ، لِتَسْرِيعِ اسْتِسْلَامِهِمْ، فَقُطِعَتْ، فَجَزِعُوا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ (سُورَةُ الْحَشْرِ: آيَة ٥). وَقَذَفَ اللهُ(ﷻ) فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، وَعَبَثًا انْتَظَرَ الْيَهُودُ نَصرَ الْمُنَافِقِ ابْنِ أُبَيٍّ وَأَتْبَاعِهِ، لَكِنَّهُمْ خَذَلُوهُمْ، عَنْدَهَا أَيْقَنُوا أَنَّ حُصُونَهُمْ لَا تَمْنَعُهُمْ مِنْ سُوءِ الْمَصِيرِ، فَسَأَلُوا الرَّسُولَ(ﷺ) أَنْ يُؤَمِّنَهُمْ عَلَى دِمَائِهِمْ، وَيُجليهم، عَلَى أَنْ يَكُونَ لَهُمْ مَا تَحْمِلُهُ إِبِلُهُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، دُونَ السِّلَاحِ.

فَصَالَحَهُمْ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) عَلَى الْجَلَاءِ، وَعَلَى أَنَّ لِكُلِّ ثَلَاثَةٍ مِنْهُمْ بَعِيرًا يَحْمِلُونَ عَلَيْهِ مَا شَاؤُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ، فَصَارُوا يُخَرِّبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ، لِيَحْمِلُوا أَكْبَرَ قَدْرٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَلِكَيْ لَا ينتفع بها الْمُسْلِمُون. فَخَرَجَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ إِلَى خَيْبَرَ، وَفَرِيقٌ آخَرُ إِلَى أذرعات بِالشَّامِ، قِيلَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ (سُورَةُ الْحَشْرِ: آيَة ٢). كَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ حَشْرٍ فِي الدُّنْيَا إِلَى الشَّام وَاللّهُ أَعْلَمُ، وَتَرَكُوا وَرَاءَهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ مَغَانِمَ كَثِيرَةً مِنْ غِلَالٍ، وَسِلَاحٍ، وَعقار.

وَلَمَّا كَانَ الْمُسْلِمُونَ قَدْ أَخَذُوهَا مِنْ دُونِ قِتَالٍ، فَكَانَتْ فيئًا، مِنْ حَقِّ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) التَّصَرُّفِ فِيهَا، وَقَدْ قَسَّمَهَا عَلَى المُهَاجِرِينَ دُونَ الْأَنْصَارِ، بَعْدَ اسْتِقْطَاعِ جُزْءٍ

خُصِّصَ لِذَوِي الْقُرْبَى، وَالْفُقَرَاءِ، وَبِذَلِكَ أَغْنَى اللهُ(ﷻ) المُهَاجِرِينَ وَأَزَالَ فَاقَتَهُمْ، وَلَمْ يَأْخُذْ مِنَ الْفيءِ مِنَ الْأَنْصَار إِلَّا أَبُو دجانة، وَسَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، وَالْحَارِثُ بْنُ الصّمة، فَقَدْ شَكوا فَقْرًا، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِسْلَامُ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ إِلَّا رَجُلانِ فَاحْتَفَظُوا بِأَمْوَالِهِمَا.

وَبِإِجْلَاءِ بَنِي النَّضِير أَرَاحَ اللهُ المُسْلِمِينَ مِنْ شَوْكَةٍ ثَانِيَةٍ مِنَ الشَّوْكَاتِ الثَّلَاثِ، الَّتِي كَانَتْ فِي ظُهُورِهِمْ وَقْتَئِذٍ، وَكَانَتْ تَقض مَضَاجِعَهُم.

غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ (شَوَّال عَام ٥هـ):

تَلَاقَتْ أَحْقَادُ قُوَى الشَّرِّ، فَهَا هِيَ قُرَيْشٌ تَسْعَى لِلْقَضَاءِ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَالْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي ذَاقَتِ الْهَزِيمَةَ عَلَى يَدِ الْمُسْلِمِينَ، وَالْيَهُودُ يَكْتَوُونَ بِنَارِ الْغِلِّ وَبِخَاصَّةٍ بَنُو قَيْنُقَاع وَبَنُو النَّضِيرِ، الَّذِينَ أَجْلَاهُمْ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) عَنْ دِيَارِهِمْ بَالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، كُلُّ هَؤُلَاءِ



تَلَاقَتْ أَحْقَادُهُمْ مِنْ أَجْلِ الْقَضَاءِ عَلَى دِينِ التَّوْحِيدِ، فكَانَتْ غَزْوَةُ الْأَحْزَابِ.

وَتَكَفَّلَ الْيَهُودُ بِمَهمَّةِ تَأْلِيبِ بَاقِي الْقُوَى، وَعَلَى رَأْسِهِمْ حيي بْنُ أَخْطَبَ، فَقَدِمُوا قُرَيْشًا وَدَعَوْهُم لِحَرْبِ رَسُولِ اللهِ(ﷺ)، وَقَالُوا: "سَنَكُونُ مَعَكُمْ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُ"، فَاسْتَجَابَتْ قُرَيْشٌ، وَحَرَّضُوهُمْ عَلَى مُوَاصَلَةِ مَسَاعِيهِمْ السَّوْدَاءِ، فَطَافُوا عَلَى بَنِي مُرَّةَ، وَبَنِي فَزَارَةَ، وَبَنِي أَشْجَعَ، وَسليم، وَبَنِي أَسد، وَبَنِي سَعْدٍ، وَكُلِّ مَنْ لَهُ ثَأْرٌ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ.

وَوَصَلَ الْأَمْرُ بِالْيَهُودِ أَنْ فَضَّلُوا الْوَثَنِيَّةَ عَلَى دِينِ الْحَقِّ، فَلَمَّا خَاطَبَهُمُ أَهْلُ قُرَيْشٍ قَائِلِينَ: "يَا مَعْشَرَ يَهُود، إِنَّكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ...أَفَدِينُنَا خَيْرٌ أَمْ دِينُهُ؟"، فَأَجَابُوهُمْ: "بَلْ دِينُكُمْ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ، وَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْهُ"، لِهَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ الْكَرَاهِيَةِ

وَصَلَتْ بِالْيَهُودِ وَهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ تَفْضِيلِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ(ﷻ)، وَلَقَدْ ذَكَرَ اللهُ(ﷻ) هَذَا الْمَوْقِفَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ (سورة النساء: الآيات ٥١– ٥٢).

وَتَجَمَّعَتِ الْأَحْزَابُ لِقِتَالِ رَسُولِ اللهِ(ﷺ)، وَالْمُسْلِمِينَ، فَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ فِي أَرْبَعَةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، الَّذِي تَرَأَّسَ الْقِيَادَةَ الْعَامَّةَ لِلْأَحْزَابِ، وَيَحْمِلُ لِوَاءَهُمْ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ وَالَّذِي قُتِلَ أَبُوهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَهُوَ يَحْمِلُ ذَاتَ اللِّوَاءِ، وَخَرَجَتْ غطفَان فِي أَلْفِ مُقَاتِلٍ، وَخَرَجَ بَنُو مُرَّةَ فِي أَرْبَعمائَةِ مُقَاتِلٍ، وَخَرَجَتْ بَنُو سليم فِي سَبْعِمِائَةٍ، وَهَكَذَا تَحَزَّبَتِ الْأَحْزَابُ حَتَّى صَارُوا عَشَرَةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ.

وَوَصَلَ نَبَأُ هَذَا الْجَمْعِ لرَسُولِ اللهِ(ﷺ)، فَاسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ، الَّذِينَ رَفَضُوا فِكْرَةَ الْخُرُوجَ للِقَاءِ هَذَا الْعَدَدَ، وَفَضَّلُوا التَّحَصُّنَ بِالْمَدِينَةِ، وَبَعْدَ مُوَافَقَةِ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) عَلَى هَذَا الرَّأْيِ، ظَهَرَتْ مُشْكِلَةُ كَيْفِيَّةِ تَحْصِينِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، فَأَشَارَ سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ(ﷺ) عَلَى رَسُولِ اللهِ(ﷺ) بِحَفْرِ خَنْدَقٍ فِي شَمَالِ الْمَدِينَةِ، وَهِيَ عَوْرَةُ الْمَدِينَةِ، لَا يَسْتَطِيعُ الْمُهَاجِمُونَ النَّفَاذَ إِلَى دَاخِلِ الْمَدِينَةِ إِلَّا مِنْهَا، إِذْ إِنَّ بَقِيَّةَ مَدَاخِلِ الْمَدِينَةِ ضَيِّقَةُ الْمَسَالِكِ، وَشِبْهُ مُحَصَّنَةٍ بِالْمَنَازِلِ وَالنَّخِيلِ، وَلَا يُمْكِنُ النَّفَاذُ مِنْهَا إِلَّا لِعَدَدٍ قَلِيلٍ مِنْ الْمُهَاجِمِينَ.

وَمِنْ ثَمَّ شَرَعَ الْمُسْلِمُونَ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ، ومَعَهُمْ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) يَحْمِلُ التُّرَابَ بِنَفْسِهِ، وَقَدْ جَعَلَ لِكُلِّ عَشْرَةٍ مِنْهُمْ أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا، حَتَّى تَمَكَّنُوا مِنْ حَفْرِ الْخَنْدَقِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، رُغْمَ تَخَاذُلِ الْمُنَافِقِينَ، وَتَسَلُّلِهِمْ إِلَى مَنَازِلِهِمْ وَتَرْكِ الْحَفْرِ.

بَعْدَ إِتْمَامِ الْحَفْرِ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) وَمَعَهُ ثَلَاثَةُ آلَافِ مُسْلِمٍ مُجَاهِدٍ، وَحَمَلَ لِوَاءَ المُهَاجِرِينَ زَيْدٌ بْنُ حَارِثَةَ(ﷺ)، وَحَمَلَ لِوَاءَ الْأَنْصَارِ سَعْدٌ بْنُ عُبَادَةَ(ﷺ)، وَجَعَلَ النِّسَاءَ والْأَطْفَالَ فَوْقَ الْحُصُونِ، وَأَسْنَدَ ظَهْرَ الْجَيْشِ إِلَى جَبَلِ سَلْع، وَجَعَلَ الْخَنْدَقَ حَاجِزًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ.

وَأَقْبَلَ الْأَحْزَابُ وَهُمْ يَرْجُونَ لِقَاءَ المُسْلِمِينَ بِأُحُدٍ، فَجَاوَزُوهَا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَإِذَا بِهِمْ أَمَامَ خَنْدَقٍ، فَدُهِشَ الْعَرَبُ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَهْدٌ بِهَذَا النَّوْعِ مِنْ وَسَائِلِ الدِّفَاعِ، وَعَسْكَرَتْ قُرَيْشٌ حَوْلَ الْخَنْدَقِ، وَعَسْكَرَتْ غطفَان وَمَنْ تَبِعَهَا بِمَكَانٍ آخَرَ، وَاكْتَفُوا بِالتَّرَامِي بِالسِّهَامِ وَالنِّبَالِ عِدَّةَ أَيَّامٍ، وَأَيْقَنُوا أَنَّ أَمَامَهُمْ أَيَّامٌ طِوَالٌ فِي هَذَا الْجَوِّ البَارِدِ الْمُنْذِرِ بِالْمَطَرِ وَالْعَوَاصِفِ.

وَتَسَلَّلَ حيي بْنُ أَخْطَبَ حَتَّى أَتَى كَعْبٌ بْنُ أَسَدٍ كَبِيرُ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَأَخَذَ يَحُثُّهُ عَلَى نَقْضِ عَهْدِ بَنِي قريظة مَعَ رَسُولِ اللهِ(ﷺ)، وَمَا زَالَ يَحُثُّهُ حَتَّى اسْتَجَابَ لِنِدَاءِ يَهُودِيَّتِهِ، وَمَزَّقَ بَنُو قريظة صَحِيفَةَ الْعَهْدِ مَعَ الرَّسُولِ(ﷺ)، إِلَّا بَنِي سعنة: أسد، وأسيد، وثعلبة، فَإِنَّهُمْ خَرَجُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ(ﷺ) وَوَفُّوا بِعَهْدِهِمْ.

فَلَمَّا وَصَلَ خَبَرُ نَقْضِ بَنِي قريظة لِعَهْدِهَا مَعَ الرَّسُولِ(ﷺ)، عَظُمَ الْبَلَاءُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَقَدْ أَتَاهُمُ الْعَدُوُّ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَمِنْ أَسْفَلِ مِنْهُمْ، وَزَادَ عَلَيْهِمْ سُمُّ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ تَهَامَسُوا بَيْنَ الصُّفُوفِ بِقَوْلِهِمْ: "كَانَ مُحَمَّدٌ يَعِدُنَا كُنُوزَ كِسْرَى وَقَيْصَر، وَأَحَدُنَا لَا يَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْغَائِطِ!!".

وَعَزَمَ الْبَعْضُ عَلَى الرُّجُوعِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَاسْتَأْذَنُوا الرَّسُولَ(ﷺ) بِحُجَّةِ أَنَّ بُيُوتَهُمْ مَكْشُوفَةٌ، وَغَيْرُ حَصِينَةٍ، فَأَذِنَ لَهُمْ، كَمَا أَرْسَلَ (ﷺ) مِائَتَيْ رَجُلٍ ثُمَّ أَتْبَعَهُمْ بِثَلَاثِمِائَةٍ لِحِمَايَةِ الْمَدِينَةِ خَوْفًا عَلَى النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ مِنْ غَدْرِ يَهُودِ بَنِي قريظة، وَهَكَذَا تَضَاءَلَ عَدَدُ الْجَيْشِ الْوَاقِفِ لِلدِّفَاعِ أَمَامَ الْخَنْدَقِ.

وَقَدْ شَجَّعَ نَقْضُ عَهْدِ بَنِي قريظة وَطُولَ الْمقَامَ مِنْ دُونِ قِتَالٍ أَمَامَ الْخَنْدَقِ بَعْضَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى اقْتِحَامِ الْخَنْدَقِ، فَأَجْبَرُوا خُيُولَهُمْ عَلَى عُبُورِ الْخَنْدَقِ مِنْ مِنْطَقَةٍ ضَيِّقَةٍ، وَتَمَكَّنُوا مِنْ ذَلِكَ، مِنْهُم عَمْرُو بْنُ عَبْدِ ودّ، وَعِكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَكَانَ غمرو بن عبد ودّ، مِنْ أَشْجَعِ فُرْسَانِ الْعَرَبِ، وَقَدْ قَاتَلَ فِي بَدْرٍ حَتَّى أُصِيبَ إِصَابَةً بَالِغَةً، وَلَمْ يَشْهَدْ أُحُدًا؛ لِذَا حَضَرَ الْخَنْدَقَ وَقَدْ وَضَعَ عَلَامَةً دِلَالَةً عَلَى تَحَدِّي الْمُبَارِزِينَ، فَلَمَّا اقْتَحَمَ الْخَنْدَقَ هَتَفَ: هَلْ مِنْ مُبَارِزٍ؟ فَخَرَجَ لَهُ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ(رضي الله عنه)، وَقَالَ لَهُ: يَا عَمْرُو إِنَّكَ كُنْتَ عَاهَدْتَ الله لَا يَدْعُوكَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى إِحْدَى خلتين إِلَّا أَخَذْتَهَا مِنْهُ، قَالَ: أَجَلْ، قَالَ: فَإِنِي أَدْعُوكَ إِلَى اللهِ وَرَسُولِه وَإِلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: لَا حَاجَةَ لِي بِذَلِكَ، فَقَالَ: فَإِنِي أَدْعُوكَ إِلَى النِّزَالِ، قَالَ لَهُ: لِمَ يَا ابْنَ أَخِي فَوَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَكَ؟ فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ(رضي الله عنه) لَكِنِّي وَاللهِ أُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَكَ، فَتَنَازَلَا وَتَقَاتَلَا، فَقَتَلَهُ عَلِيٌّ(رضي الله عنه)، فَخَرَجَتْ خَيْلُ الْبَاقِينَ مُنْهَزِمَةً حَتَّى خَرَجَتْ مِنْ ذَاتِ ثَغْرَةِ الْخَنْدَقِ.

ثُمَّ سَاقَتِ الْأَقْدَارُ نُعيم بْنَ مَسْعُودِ الْأَشْجَعِي –وَهُوَ مِنْ غطفَان– إِلَى رَسُولِ اللهِ(ﷺ) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي قَدْ أَسْلَمَتُ، وَقَوْمِي لَا يَعْلَمُونَ إِسْلَامِي، فَمُرْنِي بِأَمْرِكَ حَتَّى أُسَاعِدَكَ". فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) (واللهُ أَعْلَمُ بِصَحِيحِ اللَّفْظِ): "أَنْتَ رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَاذَا عَسَى أَنْ تَفْعَلَ؟ وَلَكِنْ خذِّل عَنَّا مَا اسْتَطَعْتَ، فَإِنَ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ".

فَتَوَّجَه نُعَيمٌ إِلَى بَنِي قُرَيْظة وَقَالَ لَهُمْ: "يَا بَنِي قريظة تَعْرِفُونَ ودِّي لَكُمْ، وَخَوْفِي عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي مُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاكْتمُوهُ عَنِّي، قَالُوا: "نَعَمْ لَسْتَ عِنْدَنَا بِمُتَّهَمٍ"، فَقَالَ: "قَدْ رَأَيْتمْ مَا وَقَعَ بِبَنِي قَيْنُقَاع والنضير، وَإِنَّ قُرَيْشًا وَغطفَانَ لَيْسُوا مِثْلَكُمْ، فَهُمْ إِذَا رَأَوْا فُرْصَةً انْتَهَزُوهَا وَإِلَّا انْصَرَفُوا لِبِلَادِهِمْ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتُسَاكِنُونَ الرَّجُلَ –يُرِيدُ الرَّسُولَ(ﷺ)– وَلَا طَاقَةَ لَكُمْ بِحَرْبِهِ وَحْدَكُمْ، فَأَرَى أَنْ لَا تَدْخُلُوا فِي هَذِهِ الْحَرْبِ حَتَّى تَسْتَيْقِنُوا مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطْفَان إِنَّهُمْ لَنْ يَتْرُكُوكُمْ وَيَذْهَبُوا إِلَى بِلَادِهِمْ، بَأَنْ تَأْخُذُوا مِنْهُمْ

رَهَائِنَ سَبْعِينَ شَرِيفًا مِنْهُمْ يَكُونُونَ بِأَيْدِيكُمْ ثِقَةً لَكُمْ عَلَى أَنْ تُقَاتِلُوا مَعَهُمْ مُحَمَّدًا حَتَّى تُنَاجِزُوه".

ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى قُرَيْشٍ وَقَالَ لَهُمْ: "أَنْتُمْ تَعْرِفُونَ وِدِّي وَمَحَبَّتِي إِيَّاكُمْ، إِنِّي مُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاكْتُمُوهُ عَنِّي، فَقَالُوا: "نَفْعَلُ"، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ بَنِي قريظة قَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، وَقَدْ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ أَنَّا قَدْ نَدِمْنَا عَلَى فِعْلِنَا، فَهَلْ يُرْضِيكَ أَنْ نَأْخُذَ لَكَ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطْفَانَ جَمْعًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ، وَنُعْطِيكَهُمْ فَتَضْرِب بِأَعْنَاقِهِمْ، ثُمَّ نَكُونُ مَعَكَ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُمْ".

ثُمَّ خَرَجَ إِلَى غطفان فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ غطفان إِنَّكُمْ أَصْلِي وَعَشِيرَتِي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَلَا أَظُنُّكُمْ تَتَّهِمُونَنِي، قَالُوا: "صَدَقْتَ مَا أَنْتَ عِنْدَنَا بِمُتَّهَمٍ"، قَالَ لَهُمْ: "فَاكْتمُوا عَنِّي"، قَالُوا: "نَفْعَلُ"، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِ لقُرَيْشٍ.

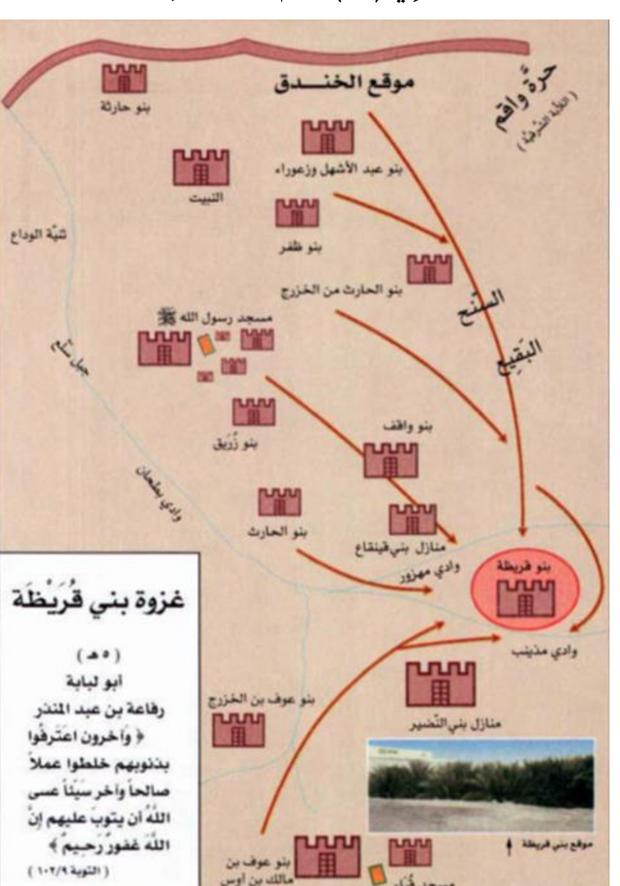
فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ سَبْتٍ أَرْسَلَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى بَنِي قريظة فَقَالُوا لَهُمْ: "إِنَّا لَسْنَا بِدَارِ مقَامَ، قَدْ هَلَكَ الخف وَالْحَافِرُ (الْإِبِلُ وَالْخُيُولُ) فَاغْدُوا لِلْقِتَالِ حَتَّى نُنَاجِزَ مُحَمَّدًا، وَنُفْرَغَ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ، فَرَدَّ الْيَهُودُ: "إِنَّ اليَوْمَ يَوْمُ السَّبْتِ، وَلَمْ يُصِبْنَا مَا أَصَابَنَا إِلَّا مِنَ التَّعَدِّي فِيهِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا نُقَاتِلُ مَعَكُمْ حَتَّى تُعْطُونَا رُهُنًا مِنْ رِجالِكُمْ..."، فَلَمَّا وَصَلَ الرَّدُّ قَالُوا: "وَاللهِ إِنَّ الَّذِي حَدَّثَكُمْ نُعَيمٌ لَحَقٌّ!! فَأَرْسلُوا إِلَى بَنِي قريظة: إِنَّا وَاللهِ لَا نَدْفَعُ إِلَيْكُمُ رَجُلًا وَاحِدًا مِنْ رِجَالِنَا، فَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْقِتَالَ فَاخْرُجُوا وَقَاتِلُوا، فَقَالَت قريظة: "إِنَّ الَّذِي ذَكَرَ لَكُمْ نُعَيمٌ بْنُ مَسْعُودٍ لَحَقٌّ!! فَأَرْسلُوا إِلَى قُرَيْشٍ وغطفَان: أَنَّا لَا نُقَاتِلُ مَعَكُمْ حَتَّى تُعْطُونَا الرَّهَائِنَ... وَهَكَذَا تَفَرَّقَتْ كَلِمَةُ الْأَحْزَابِ.

ثُمَّ جَاءَ نَصْرُ اللهِ(ﷻ) فَأَرْسَلَ عَلَى الْأَحْزَابِ رِيحًا شَدِيدَةً فِي لَيْلَةٍ شَاتِيَةٍ بَارِدَةٍ، فَاقْتَلَعَتْ خِيَامَهُمْ، وَأَطْفَأَتْ نِيرَانَهُمْ، فَامْتَلَأَتْ قُلُوبُهُمْ رُعْبًا.

فَتَنَادَى الْأَعْرَابُ بِالرَّحِيلِ، وَظَنُّوا أَنَّ المُسْلِمِينَ قَدْ هَاجَمُوهُمْ مُسْتَغِلِّينَ تَدْمِيرَ الرِّيَاحِ لِمُعَسْكَرِهِمْ، فَرَكِبَتْ قُرَيْشٌ رِحَالَهَا وَرَحَلَتْ، فَلَمَّا عَرَفَتْ غطفَان حَازَتْ حذوها. وَبِذَلِكَ أَزَالَ اللهُ(ﷻ) الْكَرْبَ، وَنَصرَ جُنْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ.

غَزْوَةُ بَنِي قُرَيْظَة:

عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ(ﷺ) يَوْمَ الأَحزَابِ: "لاَ يُصَلينَ أَحَدٌ العَصرَ إلا فِي بَنِي قُرَيظَة" فَأَدْرَكَ بَعضُهُمُ الْعَصْرَ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ بَعضُهُمْ: "لاَ نُصَلِّي حَتَّى نَأتِيَهَا"، وَقَالَ بَعضُهُمْ: "بَلْ نُصَلِّي، لَم يُرِدْ مِنا ذَلِكَ"، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ(ﷺ) فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنهُمْ.



وَسَبَبُ الغَزْوَةِ –كَمَا قَدَّمْنَا– هُوَ نَقْضُهُمُ الْعَهْدَ مَعَ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) فِي أَصْعَبِ الظُّرُوفِ، أَثْنَاءَ حِصَارِ الْأَحْزَابِ لِلْمَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ، فَحَاصَرَهُمْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، فَلَمَّا اشْتَدَّ عَلَيْهِم الْحِصَارُ، أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَنْ أَنْزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ(ﷺ)، فَوَافَقُوا، فَرَدَّ الرَّسُولُ(ﷺ) الْحُكْمَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ(رضي الله عنه)، وَكَانَ قَدْ أُصِيبَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ.

غَزْوَةُ الْحُدَيْبِيَةِ وَبُنُودُهَا:

بَلَغَ اشْتِيَاقُ المُسْلِمِينَ لِزِيَارَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ذُرْوَتَهُ، فَقَدْ مَضَى نَحْوَ سِتِّ سِنِينَ مُنْذُ أُخْرِجُوا مِنْ مَكَّةَ، وَزَادَ اشْتِيَاقُهُمْ نَتِيجَةً لِرُؤْيَا رَآهَا رَسُولُ اللهِ(ﷺ) –وَرُؤْيَاهُ حَقٌّ– أَنَّ المُسْلِمِينَ يَدْخُلُونَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَهُمْ وَمُقَصرين؛ لِذَا عَزَمَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) عَلَى الْخُرُوجِ إِلَى مَكَّةَ مُعْتَمِرًا، فَخَرَجَ مَعَهُ زهاء أَلْفٍ وَأَرْبعمِائَةٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ

وَالْأَعْرَابِ –بِنَاءً عَلَى أَرْجَحِ الْأَرْقَامِ– وَسَاقَ مَعَهُ الهَدْيَ سَبْعِينَ بَعِيرًا حَتَّى يُدْرِكَ أَهْلُ قُرَيْشٍ أَنَّهُ لَا يَنْوِي حَرْبًا، بَلْ خَرَجَ مُعْظَمًا لِلْبَيْتِ زَائِرًا لَهُ.

وعِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى قَرْيَةِ عسفان بَلَغَهُ خُرُوجُ قُرَيْشٍ وَتَعَسْكُرُهُمْ قُرْبَ مَوْقِعِهِ، لِمَنْعِهِ مِنْ دُخُولِ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ، فَسَلَكَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) بِالْمُسْلِمِينَ طَرِيقًا وَعِرًا خَرَجُوا مِنْهُ بَعْدَ مَشَقَّةٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) لِلْمُسْلِمِينَ: "قُولُوا، نَسْتَغْفِرُ اللهَ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ"، فَقَالَوهَا، فَقَالَ(ﷺ): "وَاللهِ إِنَّهَا لَلْحِطَّةِ الَّتِي عُرِضَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمْ يَقُولُوهَا"، ثُمَّ سَلَكُوا طَرِيقًا انْتَهَى بِهِمْ إِلَى ثَنِيَّةِ الْمرّار قُرْبَ الْحُدَيْبِيَةِ.

وَفِي هَذَا الْمَكَانِ بَرَكَتْ نَاقَةُ رَسُولِ اللهِ(ﷺ)، فَزَجَرُوهَا فَلَمْ تَقُمْ، فَقَالَوا: خلأت القصواء –أَيْ حرنت–، فَقَالَ(ﷺ): "مَا خلأت القصواء، وَمَا هُوَ بخُلُقلها، وَلَكِنْ حَبسها حَابِسُ الْفِيلِ عَنْ مَكَّةَ، وَاللهِ لَا تَدْعُونِي قُرَيْشٌ اليَوْمَ إِلَى خُطَّةٍ يسألوني فِيهَا صِلَةَ الرَّحِمِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا"، فَنَزَلَ النَّاسُ مِنْ رَكْبِهِمْ، وَكَانَ الْوَادِي جَافًّا، فَأَخْرَجَ الرَّسُولُ(ﷺ) سَهْمًا أَعْطَاهُ رَجُلًا، فَنَزَلَ بِهِ فِي بِئْرٍ وَغَرَسَهُ فِيهِ فَفَاضَ مِنْهُ الْمَاءُ، حَتَّى ارْتَوَى الْمُسْلِمُونَ، وَشَرِبَتْ دَوَابُّهُمْ.

نَمَى إِلَى قُرَيْشٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ(ﷺ) لا يُرِيدُ حَرْبًا، وَتَوَافَقَ هَذَا مَعَ إِدْرَاكِهَا قُوَّةَ الْمُسْلِمِينَ، فَأَرْسَلَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ(ﷺ) مَنْ يُفَاوِضُهُ طَمْعًا فِي صَدِّ المُسْلِمِينَ عَنِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَلِلْوُقُوفِ عَلَى مَدَى قُوَّةِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ قُرْبٍ.

فَأَرْسَلُوا بَدِيلَ بْنِ وَرَقَةَ ثُمَّ مِكْرِزًا بْنَ حَفْصٍ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يُخْبِرُ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) رَسُولَ قُرَيْشٍ أَنْ لَمْ يَأْتِ لِلْقِتَالِ بَلْ جَاءَ لِزِيَارَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَكُلَّمَا عَادَ رَسُولُهُمْ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرَهُمْ بِخَبَرِ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) كَانَ رَدُّهُمْ: "وَإِنْ جَاءَ لَا يُرِيدُ قِتَالًا فَوَاللهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّهُ دَخَلَهَا عَلَيْنَا عُنْوَةً"، ثُمَّ أَرْسَلُوا حلَيْس بْنَ عَلْقَمَةَ سَيِّدَ الْأَحَابِيشِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ): "إِنَّ هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَأَلَّهُونَ، فَابْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَرَاهُ، فَلَمَّا رَأَى الْهَدْيَ، رَجِعَ إِلَى قُرَيْشٍ وَلَمْ يَصِلْ إِلَى رَسُولِ اللهِ(ﷺ) إِعْظَامًا لَمَّا رَأَى، وَحَاوَلَ إِقْنَاعَ قُرَيْشٍ بِصِدْقِ نِيَّةَ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) فَانْتَهَرُوهُ.

ثُمَّ تَوَالَتْ رُسُلُهُمْ مَرَّةً أُخْرَى، فَأَرْسَلُوا عروة بْنَ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّ، فَلَمَّا عَادَ، قَالَ لِقُرَيْشٍ: "يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنِّي قَدْ جِئْتُ كِسْرَى فِي مُلْكِهِ، وَقَيْصَرًا فِي مُلْكِهِ، وَالنَّجَاشِيِّ فِي مُلْكِهِ، وَإِنِّي وَاللهِ مَا رَأَيْتُ مُلْكًا فِي قَوْمِهِ قَطّ مِثْلَ مُحَمَّدٍ فِي أَصْحَابِهِ... وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فقبلوها..."، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: "لَا تَتَكَلَّمْ بِهَذَا، وَلَكِنْ نَرُدُّهُ عَامَنَا هَذَا وَيَرْجِعُ مَنْ قَابَلَ".

وَهُنَا رَأَى رَسُولُ اللهِ(ﷺ) أَنْ يُرْسِلَ رَسُولًا مِنْهُ إِلَيْهِمْ، لِاحْتِمَالِ عَدَمِ نَقْلِ رُسُلِهِمْ إِلَيْهِمْ كَامِلَ الْخَبَرِ، فَأَرْسَلَ فِي الْبِدَايَةِ خراش بْنَ أُمَيَّةَ الْخُزَاعِي، لَكِنَّهُمْ اسْتَبَدَّ بِهِمُ الحُمْقُ فَعَقَرُوا بَعِيرَهُ وَكَادُوا يَقْتُلُونَه لَوْلَا تَدَخُّلُ الْأَحَابِيشِ وَمَنَعَهُمْ لَهُمْ.

ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانِ(رضي الله عنه) فَلَقِيَهُ أَبَان بْنُ سَعِيدٍ فَأَجَارَهُ، حَتَّى بَلَغَ رِسَالَة رَسُول اللهِ(ﷺ)، وَقَالُوا لِعُثْمَانَ(رضي الله عنه): "إِنْ شِئْتَ أَنْ تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فَطُفْ"، فَقَالَ(رضي الله عنه): "مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ حَتَّى يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ اللهِ(ﷺ)!!"._ثُمَّ قَدمَ سُهَيْلٌ وَتَفَاوَضَ مَعَ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) حَوْلَ شُرُوطِ الصُّلْحِ، ثُمَّ دَعَا عَلِيًّا بْنَ أَبِي طَالِبٍ لِيَكْتُبَ صِيغَةَ الصُّلْحِ.

فَكَانَتْ بُنُودُ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ:

١-وَضْعُ الْحَرْبِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وقُرَيْشٍ عَشْرَ سِنِينَ.

٢-مَنْ أَتَى رَسُولَ اللهِ(ﷺ) مِنْ قُرَيْشٍ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَلِيَهُ رَدُّهُ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ جَاءَ قُرَيْشًا مِمَّنْ مَعَ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) لَمْ يَرُدُّوهُ عَلَيْهِ.

٣-مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ... فَدَخَلَتْ خُزَاعَةُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ(ﷺ)، وَدَخَلَتْ بَنُو بَكْرٍ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ.

٤-أَنْ يَرْجِعَ الرَّسُولُ(ﷺ) وَأَصْحَابُهُ مِنْ دُونِ أَدَاءِ العُمْرَةِ هَذَا الْعَامَ، فَإِذا كَانَ الْعَامُ التَّالِي خَرَجَ عَنْهَا المُشْرِكُونَ، فَيَدْخُلُهَا الْمُسْلِمُونَ وَيُقِيمُونَ بِهَا ثَلَاثًا لَيْسَ مَعَهُمْ مِنَ السِلَاحِ إِلَّا السُّيُوفُ فِي أَغْمَادِهَا.

قَبِلَ الرَّسُول(ﷺ) هَذِهِ الشُّرُوطَ رُغْمَ إِجْحَافِهَا بِالْمُسْلِمِينَ، لِأَنَّهُ يَصْدَعُ بِأَمْرِ اللهِ(ﷻ) وَإِلْهَامِهِ، مَعَ الْيَقِينِ بِأَنَّ اللهَ(ﷻ) لَنْ يُضَيِّعَهُ أَبَدًا، وَوَافَقَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ(ﭬ) وَبَعْضُ الصَّحَابَةِ، فِي حِينِ أَنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَأَى أَنَّ فِي هَذِهِ الشُّرُوطِ إِجْحَافًا، وَمِنْهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ(ﭬ).

ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللهِ(ﷺ) أَصْحَابَهُ لِأَنْ يَقُومُوا وَيَنْحَرُوا ويحلقوا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَمَا قَامَ أَحَدٌ بِسَبَبِ الْحُزْنِ الَّذِي اعْتَلَاهُم لِهَذِهِ الشُّرُوطِ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) إِلَى زَوْجَتِهِ أُمِّ المُؤْمِنِينَ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فَقَصَّ عَلَيْهَا، فَأَشَارَتْ عَلَيْهِ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أُخْرُجْ، ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ بِكَلِمَةٍ حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنك، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقُكَ"، فَفَعَلَ(ﷺ) مَا أَشَارَتْ بِهِ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَامَ المُسْلِمُونَ وَنَحَرُوا، وَحَلَقُوا، وَقَصروا.

مُكَاتَبَةُ المُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ وَدَعْوَتُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ:

فِي الْعَامِ السَّادِسِ مِن الْهِجْرَةِ وَبَعْدَ عَقْدِ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ، وَالتَّخَلُّصِ مِنْ خَطَرِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ تَوَجَّهَ نَظَرُ الرَّسُولِ(ﷺ) إِلَى خَارِجِ بِلَادِ الْحِجَازِ، لِنَشْرِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ، وَكَانَتْ كُتُبُ الرَّسُولِ(ﷺ) إِلَى حُكَّامِ وَمُلُوكِ الدُّوَلِ مَخْتُومَةً بِخَاتِمَةٍ، وَخَرَجَ بِهَا سِتَّةُ أَنْفَارٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ وَذَلِكَ فِي الْمُحَرَّمِ سَنَةَ سَبْعٍ هِجْرِيَّة.

غَزْوَةُ خَيْبَر عَامَ ٧هـ:

ظَلَّ الْخَطَرُ قَائِمًا مِنْ جَانِبِ فُلُولِ الْيَهُودِ الْمُنْهَزِمَةِ، وَالَّتِي تَجَمَّعَتْ شَمَالَ الْمَدِينَةِ عِنْدَ خَيْبَر، وَأَخَذَتْ تَسْعَى لِتَأْلِيفِ جَبْهَةٍ يَهُودِيَّةٍ كُبْرَى، تَتَأَلَّفُ مِنْهُمْ، وَمِنْ يَهُودِ

خَيْبَر، وتيماء، وَوَادِي الْقُرَى، وَفدك، كَيْ يَنْقَضُّوا عَلَى الْمَدِينَةِ؛ لِذَلِكَ رَأَى رَسُولُ اللهِ(ﷺ) بَعْدَ أَنْ أَمِنَ خَطَرَ قُرَيْشٍ بِعَقْدِ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ، أَنْ يَأْمَنَ أَيْضًا جَانِبَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ.

لِذَا تَأَهَّبَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) لِلْخُرُوجِ إِلَيْهِمْ فِي عَامِ ٧هـ وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ بِالتَّهَيُّؤِ لِلْغَزْوِ، وَأَعْلَنَ بَيْنَهُمْ أَلَّا يَخْرُجَ مَعَهُ إِلَّا كُلُّ رَاغِبٍ فِي الْجِهَادِ، ثُمَّ اتَّجَهَ إِلَى خَيْبَرٍ، وَمَعَهُ نَحْوَ أَلْفٍ وَأَرْبَعُمِائَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ فِي الْحُدَيْبِيَة.

كَانَ يَهُودُ خيبر مِنْ أَقْوَى الطَّوَائِفِ الْيَهُودِيَّةِ بَأْسًا، وَأَوْفَرِهَا مَالًا، وَأَكْثَرِهَا سِلَاحًا، وَأَعْظَمِهَا تَدْرِيبًا عَلَى الْقِتَالِ، وَكَانَتْ خَيْبَر مُقَسَّمَةً إِلَى ثَلَاثِ مَنَاطِقَ حَرْبِيَّةٍ هِيَ:



غزوة خَيْبَـر
و فَدَك و وادي القُرَى
المحرّم ٧ هـ

١-مِنْطَقَةِ النطاة: وَبِهَا حِصْنُ نَاعِمٍ، وَحِصْنُ قَلْعَةِ الزُّبَيْرِ، وَحِصْنُ النِّزَارِ.

٢-مِنْطَقَةِ الشق: وَبِهَا حِصْنُ الصَّعْبِ بْنِ مُعَاذٍ، وَحِصْنُ أبي.

٣-مِنْطَقَةُ الْكَتِيبَة: وبِهَا حِصْنُ الْقمُوص، وَحِصْنُ الْوَطِيحِ، وَحِصْنُ السَّلَالِمِ.

كَانَ يَهُودُ خَيْبَرٍ يُقِيمُونَ بِهَذِهِ الْحُصُونِ، وَلَمْ يَدُرْ بِخَاطِرِهِمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ(ﷺ) سَيَغْزُوهُمْ لِمِنْعَتِهِمْ، وَوَفْرَةِ سِلَاحِهِمْ، لَكِنَّ رَسُولَ اللهِ(ﷺ) مَا لَبِثَ أَنْ نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ لَيْلًا

عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْهُمْ، بِحَيْثُ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَضُمُّوا إِلَيْهِمْ حُلَفَاءَهُمْ، وَعِنْدَمَا تَأَهَّبَ الْيَهُودُ فِي الصَّبَاحِ لِقَصْدِ مَزَارِعِهِمْ؛ فُوجِئُوا بِوُجُودِ المُسْلِمِينَ أَمَامَهُمْ، فَذَعَرُوا، وَوَلُّوا هَارِبِينَ إِلَى حُصُونِهِمْ، ثُمَّ دَارَتْ رَحَى الْمَعْرَكَةِ، وَهَاجَمَ الْمُسْلِمُونَ حُصُونَ الْيَهُودِ حِصْنًا بَعْدَ حِصْنٍ، وَتَمَكَّنُوا مِنْ فَتْحِ بَعْضِهَا عُنْوَةً، كَمَا أَخَذُوا الْبَعْضَ الْآخَرَ صُلْحًا.

وَمِنَ الْحُصُونِ الَّتِي فَتَحَهَا الْمُسْلِمُونَ عُنْوَةً: حِصْنُ الشق، والنطاة، وَحِصْنُ ناعم، وَحِصْنُ الصَّعْبِ بْنِ مُعَاذٍ؛ وَاسْتَوْلَى الْمُسْلِمُونَ عَلَى حُصُونِ الوطيح، والكتيبة، وَالسَّلَالِمِ صُلْحًا.

أَصْبَحَتْ الْحُصُوْن الَّتِي فُتِحَتْ عُنْوَةً مِلْكًا لِلْمُسْلِمِينَ، أَمَّا مَا أُخِذَ صُلْحًا، فَقَدْ اتَّفَقَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) مَعَ أَصْحَابِهَا عَلَى أَنْ يَبْقُوا بِالْأَرْضِ يَزْرَعُونَهَا مُنَاصَفَةً، النِّصْفُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَالنِّصْفُ الْآخَرُ لِلْيَهُودِ.

وَلَمَّا سَمِعَ أَهْلُ فدك، بِتِلْكَ الْمُعَامَلَةِ الْحَسَنَةِ الَّتِي عَامَلَ بِهَا رَسُولُ اللهِ(ﷺ) أَهَالِي حُصُونِ خَيْبَر، أَرْسَلُوا إِلَيْهِ يَطْلُبُونَ الصُّلْحَ، فَصَالَحَهُمْ، وَصَارُوا يُعْطُونَهُ نِصْفَ غَلَّةِ أَرْضِهِمْ، وَأَصْبَحَتْ فدك خَالِصَةً لَهُ لِأَنَّ المُسْلِمِينَ لَمْ يَقِفُوا عَلَيْهَا بِخَيْلٍ، وَلَا رِكَابٍ، أَمَّا مَغَانِمُ خَيْبَرٍ فَقُسِّمَتْ عَلَى أَهْلِ الْحُدَيْبِيَةِ، ثُمَّ عَرَجَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) عَلَى وَادِي الْقُرَى، فَدَعَا أَهْلَهَا إِلَى الْإِسْلَامِ، فَامْتَنَعُوا عَنْ ذَلِكَ، وَقَاتَلُوا، فَفَتَحَهَا رَسُولُ اللهِ(ﷺ) عُنْوَةً، وَعَامَلَهُمْ أَيْضًا عَلَى نَحْوِ مَا عَامَلَ أَهْلَ خَيْبَر، أَمَّا يَهُودُ تيماء فَقَدْ بَادَرُوا بِمُصَالَحَةِ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) فَصَالَحَهُمْ عَلَى أَنْ يَدْفَعُوا الْجِزْيَةَ.

عُمْرَةُ الْقَضَاءِ ذِي الْقِعْدَةِ عَام ٧هـ:

مَرَّ الْعَامُ بَعْدَ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْتَعِدُّوا لِلذِّهَابِ إِلَى مَكَّةَ لِيَزُورُوا الْبَيْتَ الْحَرَامَ، وَقَدْ لَبَّى جَمْعٌ غَفِيرٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، وَبِخَاصَّةٍ

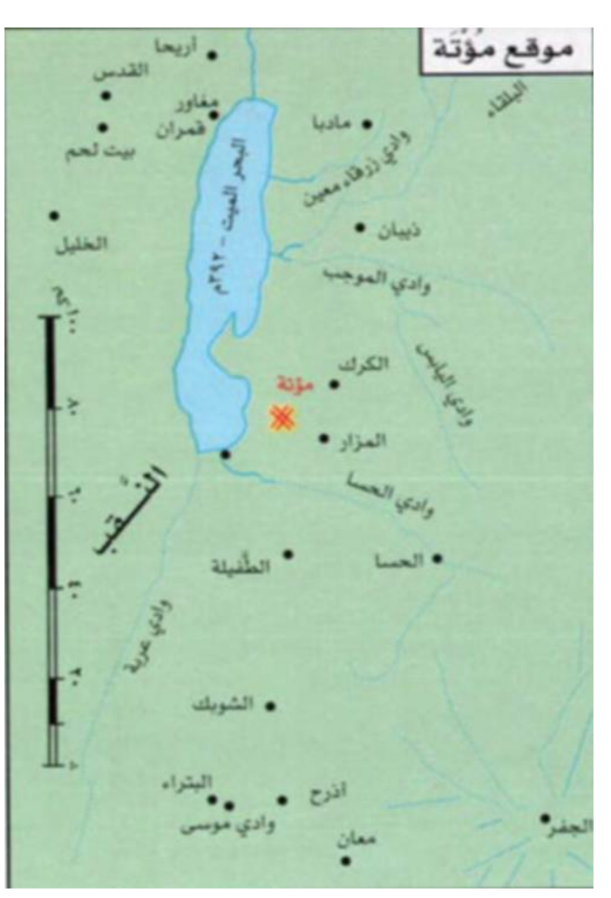
الْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ كَانُوا يَتَمَنُّونَ هَذَا اليَوْمَ مُنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ، فَقَدْ ظَلُّوا سَنَوَاتٍ سَبْعًا بَعِيدِينَ عَنْ مَكَّةَ، أَمَّا الْأَنْصَارُ فَقَدْ كَانُوا يَودُّونَ زِيَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَا كَانَتْ لَهُمْ تِجَارَةٌ مَعَ قُرَيْشٍ، وَمَكَّةَ، وَبَلَغَ عَدَدُ المُسْلِمِينَ قَرَابَةَ الْأَلْفَيْنِ، وَلَمْ يَحْمِلُوا مَعَهُمْ إِلَّا سُيُوفَهَمْ، وَقَدْ احْتَاطَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) خَوْفًا مِنْ غَدْرِ الكُفَّارِ؛ فَجَهَّزَ مِائَةَ فَارِسٍ.

سَارَ هَذَا الْجَمْعُ الْكَبِيرُ مِنَ الْمَدِينَةِ مُتَّجِهًا إِلَى مَكَّةَ لِقَضَاءِ الْعُمْرَةِ، وَعِنْدَمَا عَلِمَتْ قُرَيْشٌ بِمَقْدَمِ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) وَصَحْبِهِ تَنْفِيذًا لِصُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ، خَرَجَتْ مِنْ مَكَّةَ وَضَرَبَتْ خِيَامَهَا عَلَى التِّلَالِ الْمُجَاوِرَةِ، وَاتَّجَهَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى مَكَّةَ، يَحِف كبَار الصَّحَابَةِ بِنَاقَةِ رَسُولِ اللهِ(ﷺ)، وَعِنْدَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ نَادَوْا جَمِيعًا: "لَبَيْكَ لَبَيْكَ"، وَكَانَ لِهَذِهِ الْمُظَاهَرَةِ الْكُبْرَى أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي نُفُوسِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ جَاءَوا رَسُولَ اللهِ(ﷺ) مُسْلِمِينَ. وَقَدْ طَافَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) وَالمُسْلِمُونَ بَالْكَعْبَةِ، وَعِنْدَمَا أَتَمُّوا طَوَافَهُمْ، انْتَقَلُوا إِلَى الصَّفَا، ثُمَّ نَحَرُوا الهدي، وَقَامَ بِلَالٌ مُؤَذِّنُ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) وَأَذَّنَ لِلظُّهْرِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي مِنْ فَوْقِ الْكَعْبَةِ، وَأَقَامَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) بِمَكَّةَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، زَارَ فِيهَا الْمُهَاجِرُونَ دُورَهُمْ، وَتَزَوَّجَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) بَآخِرِ زَوْجَاتِهِ السَّيِّدَةِ مَيْمُونَةَ وَهِي شَقِيقَةُ زَوْجَةِ الْعَبَّاسِ.

مَعْرَكَةُ مُؤْتَةَ ٨هـ:

كَانَ شَمَالُ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ هُوَ الْمَنْفَذَ الطَّبِيعِيَّ لِانْتِشَارِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ، وَقَدْ أَدْرَكَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) ضَرُورَةَ ضَمِّ بَقَايَا دُوَلِ عَرَبِ الْغَسَاسِنَةِ إِلَى دَوْلَتِهِ، وَفَكّ حِلْفَهُمْ مَعَ الرُّومِ، وَتَبْلِيغَهُم رِسَالَةَ الْإِسْلَامِ.

وَكَمَا سَبَقَ أَنْ قَدَّمْنَا كَانَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) قَدْ أَرْسَلَ الْحَارِثَ بْنَ عُمَيْرٍ الْأَزْدِيَّ، فَنَزَلَ مُؤْتَةَ إِلَى صَاحِبِ بُصْرَى، فَاعْتَرَضَهُ شرحبيل ابْنَ عَمْرٍو الْغَسَّانِي –كَانَ عَامِلًا عَلَى الْبِلِقَاء مِنْ أَرْضِ الشَّامِ مِنْ قِبَلْ قيص– وَضَرَبَ عُنُقَهُ، وَكَانَ قَتْلُ السُّفَرَاءِ وَالرُّسُلِ مِنْ أَشْنَعِ الْجَرَائِمِ، وَيُسَاوِي بَلْ يَزِيدُ عَلَى إِعْلَانِ الْحَرْبِ، فَاسْتَاءَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) مِن هَذِهِ الْفِعْلَةِ الشَّنْعَاءِ، وَدَعَا المُسْلِمِينَ إِلَى التَّأَهُّبِ لِلْحَرْبِ؛ فَسَارَعُوا إِلَى تَلْبِيَةِ دَعْوَتِهِ، وَتَجْهِيزِ جَيْشٍ قُوَامُهُ ثَلَاثَةُ آلَافِ مُقَاتِلٍ.



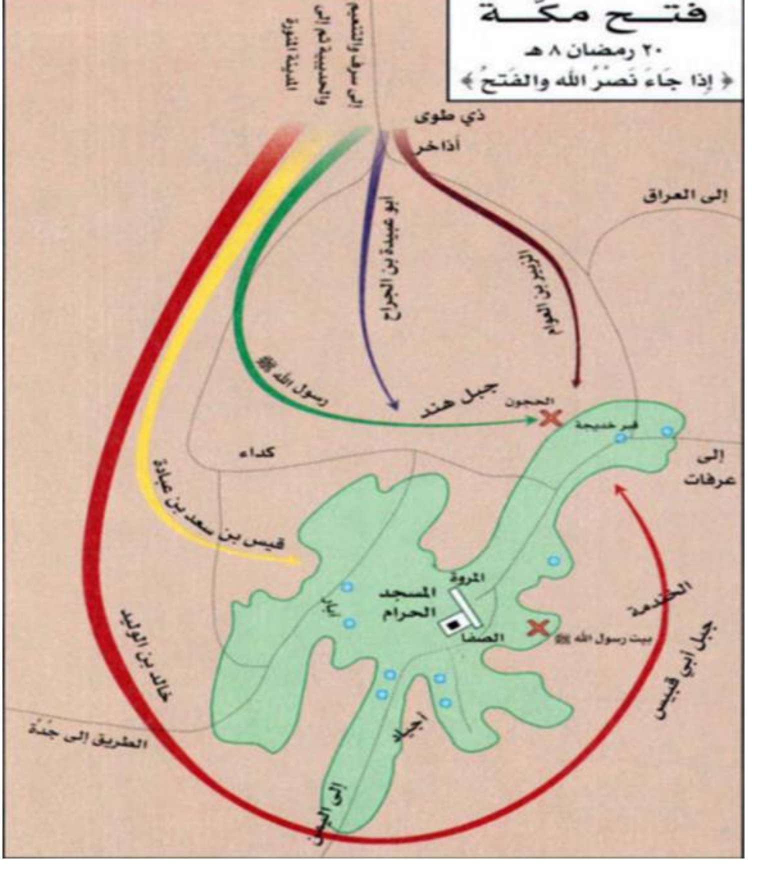
تَهَيَّأَ الْجَيْشُ لِلْخُرُوجِ إِلَى مُؤْتَةَ فِي جَمَادَى الْأُولَى –أَوِ الْآخِرَةِ– مِنْ عَامِ ٨هـ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) مُوَدِّعًا لَهُمْ حَتَّى بَلَغَ ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ، ثُمَّ أَوْصَاهُمْ .

سَارَ جَيْشُ المُسْلِمِينَ حَتَّى بَلَغَ بَلْدَةً تُسَمَّى: "مُعان" مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، وَهُنَاكَ بَلَغَهُمْ أَنَّ هِرَقْلَ نَزَلَ بِمَكَانَ يُقَالُ لَهُ: "مَآب" فِي مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ الرُّومِ، وَمَعَهُ مِنْ قَبَائِلِ بهراء، وَوَائِلٍ، وَبَكْرٍ، ولخم، وَجذَامٍ مِائَةُ أَلْفٍ، عِنْدَئِذٍ أَخَذُوا يُفَكِّرُونَ فِيمَا يَفْعَلُونَهُ، فَلَمْ يَدْخُلْ فِي حِسَابِهِمْ لِقَاءُ جَيْشٍ بِمِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ الضَّخْمِ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْبَعِيدَةِ، وَأَرَادُوا أَنْ يَكْتُبُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ(ﷺ) لِيَبْعَثَ إِلَيْهِمْ مَدَدًا، أَوْ يَأْمُرَهُمْ بِالْعَوْدَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، لَكِنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ رَوَاحَةَ(رضي الله عنه) شَجَّعَهُمْ عَلَى الْمُضِيِّ فِي الْقِتَالِ.

فَتَغَلَّبَتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْحَمَاسَةُ، وَعَزَمُوا عَلَى الْمُضِيِّ إِلَى الْمَعْرَكَةِ، فَمَضُوا إِلَى بَلْدَةِ مُؤْتَةَ، وَدَارَتِ الْمَعْرَكَةُ، وَاشْتَبَكَ الْفَرِيقَانِ فِي قِتَالٍ شَدِيدٍ حَتَّى قُتِلَ زَيْدٌ بْنُ حَارِثَةَ(ﷺ)، فَخَلَفَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ(ﷺ) فِي الْقِيَادَةِ، فَمَا لَبِثَ أَنْ اسْتُشْهِدَ فَخَلَفَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ(ﷺ) فَقُتِلَ، فَوَلَّى الْمُسْلِمُون عَلَيْهِمْ خَالِدًا بْنَ الوَلِيدِ(ﷺ)، الَّذِي بَذَلَ جُهْدَهُ فِي إِنْقَاذِ بَقِيَّةِ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ، وَنَجَحَ فِي الاِنْسِحَابِ بِالْجَيْشِ دُونَ خَسَائِرَ كَبِيرَةٍ بَعْدَ أَنْ قَامَ بِتَعْدِيلِ صُفُوفِ جَيْشِهِ، لِيَظْهَرَ لِلْعَدُوِّ أَنَّ مَدَدًا جَدِيدًا قَدْ وَصَلَ إِلَيْهِ، وَعَادَ خَالِدٌ(ﷺ) بِمُعْظَمِ الْجَيْشِ سَالِمًا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأَطْلَقَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) لَقَبَ: "سَيْفُ اللهِ الْمَسْلُولُ".

فَتْحُ مَكَّة ٨هـ- اِكْتِمَالُ الْوَحْدَةِ الْعَرَبِيَّةِ:

فِي الْعَامِ الثَّامِنِ لِلْهِجْرَةِ، لَاحَظَتْ قُرَيْشٌ هَذِهِ الْقُوَّةَ الْمُتَنَامِيَةَ لِلْمُسْلِمِينَ، وَبِخَاصَّةٍ حِينَ أَتَى رَسُولُ اللهِ(ﷺ) مَكَّةَ مُعْتَمِرًا عُمْرَةَ الْقَضَاءِ فِي ذِي الْقِعْدَةِ مِنْ سَنَةِ ٧هـ، تَنْفِيذًا لِشُرُوطِ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ.



وَكَانَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) وَالمُسْلِمُونَ بَعْدَ انْتِهَائِهِمْ مِنْ أَدَاءِ عُمْرَةِ الْقَضَاءِ، يَتَطَلَّعُونَ إِلَى يَوْمٍ يَسْتَطِيعُونَ فِيهِ أَنْ يَأْتُوا إِلَى مَكَّةَ بِسَلَامٍ، وَبِخَاصَّةٍ بَعْدَ فَرْضِ الْحَجِّ عَلَيْهِمْ بَعْدَ هَذِهِ الْعُمْرَةِ.

تَزَامَنَ هَذَا مَعَ نَقْضِ قُرَيْشٍ لِشَرْطٍ مِنْ شُرُوطِ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ، عِنْدَمَا ثَارَ الشَّرُّ بَيْنَ بَنِي بَكْرٍ (حِلْفُ قُرَيْشٍ)، وَخُزَاعَةَ (حِلْفُ الْمُسْلِمِينَ)، فَتَنَاسَتْ قُرَيْشٌ صُلْحَ الْحُدَيْبِيَةِ وَشُرُوطَهُ، وَمِنْ ثَمَّ تَعَاوَنَتْ مَعَ حُلَفَائِهَا مِنْ بَنِي بَكْرٍ فِي تَأْدِيبِ وَمُهَاجَمَةِ خُزَاعَةَ، وَقَتَلُوا مِنْهُمْ حَوَالَيْ عِشْرِينَ رَجُلًا.

لِذَا فَبِمُجَرَّدِ مَا تَوَاتَرَ إِلَى أَسْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ قُرَيْشًا نَقَضَتِ الْعَهْدَ بِعَوْنِ حُلَفَائِهَا مِنْ بَنِي بَكْرٍ ضِدَّ حُلَفَاءِ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) مِنْ قَبِيلَةِ خُزَاعَةَ، حَتَّى تَهَيَّأَ الْمُسْلِمُونَ لِفَتْحِ مَكَّةَ، لِأَنَّ مَا فَعَلَتْهُ قُرَيْشٌ، وَحُلَفَاؤُهَا كَانَ نَقْضًا صَرِيحًا لِلْعَهْدِ، وَقَدْ رَأَى رَسُولُ اللهِ(ﷺ) أَنَّ مَا قَامَتْ بِهِ قُرَيْشٌ لَا مُقَابِلَ لَهُ إِلَّا فَتْحُ مَكَّةَ، وَضَمَّهَا إِلَى الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

نَدِمَتْ قُرَيْشٌ عَلَى مَا أَقْدَمَتْ عَلَيْهِ، فَاسْتَقَرَّ رَأْيُ شُيُوخِهَا عَلَى أَنْ يَبْعَثُوا أَبَا سُفْيَان بْنَ حَرْبٍ إِلَى الْمَدِينَةِ، لِيُفَاوِضَ رَسُولَ اللهِ(ﷺ) فِي تَجْدِيدِ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ، وَمَدِّ أَجَلِهِ، وَعِنْدَمَا دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَمَدَ إِلَى مُقَابَلَةِ ابْنَتِهِ أُمِّ حَبِيبَةَ، فَلَمَّا ذَهَبَ لِيَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) طَوَتْهُ عَنْهُ، وَأَغْلَظَتْ لَهُ الْقَوْلَ، لِأَنَّهُ كَانَ عَلَى دِينِ الْكُفْرِ، فَمَضَى لِمُقَابَلَةِ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) وَكَلَّمَهُ، فَلَمْ يُجِبْهُ، فَحَاوَلَ أَنْ يَسْعَى إِلَى كِبَارِ الصَّحَابَةِ أَمْثَالَ: أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعَلِيٍّ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ– حَتَّى يَتَوَسَّطُوا لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ(ﷺ)، فَأَبَوْا جَمِيعًا، فَعَادَ أَبُو سُفْيَان إِلَى مَكَّةَ، كَمَا خَرَجَ مِنْهَا خَالِيَ الْوِفَاضِ دُونَ تَجْدِيدِ الصُّلْحِ؛ بَعْدَ فَشَلِهِ فِي مَسَاعِيهِ.

خَرَجَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَان مِنَ السَّنَةِ الثَّامِنَةِ لِلْهِجْرَةِ عَلَى رَأْسِ جَيْشٍ كَبِيرٍ، يَضُمُّ المُهَاجِرِينَ، وَالْأَنْصَارَ، وَمَنْ لَحِقَ بِهِمْ مِنْ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ، مِثْلَ: أَسْلَمَ، وغفَار، ومزينة، وجهينة، وَأَشْجَع، وَقَدْ بَلَغَ قُوَامُ هَذَا الْجَيْشِ عَشَرَةَ آلَافِ جُنْدِيٍّ، مِنْ بَيْنِهِمْ مِائَتَا فَارِسٍ، سَارَ بِهِمْ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) قَاصِدًا مَكَّةَ.

عَلَى الصَّعِيدِ الْآخَرِ كَانَتْ قُرَيْشٍ تَتَوَقَّعُ قُدُومَ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) إِلَيْهَا بَيْنَ الْحِينِ وَالْآخَرِ، وَرُغْمَ ذَلِكَ لَمْ تُجَهِّزْ لَهُ قُوَّتَهَا، لِأَنَّهَا رَأَتْ أَنَّهُ لَا مَفَرَّ مِنَ الِاسْتِسْلَامِ الَّذِي يَحْفَظُ لَهَا كَرَامَتَهَا.

وَفِي الطَّرِيقِ إِلَى مَكَّةَ الْتَقَى رَسُولُ اللهِ(ﷺ) بِبَعْضِ كِبَارِ رِجَالِ قُرَيْشٍ الَّذِينَ خَرَجُوا لِمُلَاقَاتِهِ قَبْلَ دُخُولِ مَكَّةَ، لِيُعْلِنُونَ لَهُ دُخُولَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ، وَكَانَ عَلَى رَأْسِهِمْ: أَبُو سُفْيَان بْنُ حَرْبٍ(ﷺ)، وَالْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ(ﷺ).

عِنْدَمَا أَسْلَمَ أَبُو سُفْيَان فِي حَضْرَةِ رَسُولِ اللهِ(ﷺ)، كَرَّمَهُ رَسُولُ اللهِ(ﷺ)، وَرَفَعَ مِنْ مَكَانَتِهِ، وَمَنَحَهُ أَمَانًا عَامًّا لِأَهْلِ قُرَيْشٍ مَفَادُهُ: "مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَان فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ"، فَهَرَعَ أَبُو سُفْيَان إِلَى مَكَّةَ، وَخَاطَبَ قَوْمَهُ قَائِلًا: "يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، وَيْلَكُمْ لَا تَغُرَّنَّكُمْ هَذِهِ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَكُمْ فِيمَا لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ. مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَان فَهُوَ آمِنٌ". قَالُوا: "قَاتَلَكَ اللهُ وَمَا تُغْنِي عَنَّا دَارُكَ؟ فَقَالَ: "وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ". فَتَفَرَّقَ النَّاسُ إِلَى دُورِهِمْ وإِلَى الْمَسْجِدِ".

اتَّخَذَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) حَذَرَهُ عِنْدَمَا اقْتَرَبَ مِنْ مَكَّةَ، فَقَسَّمَ الْجَيْشَ إِلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ، وَجَعَلَ كُلًّا مِنْهَا يَدْخُلُ مِنْ جِهَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، لِيَقْضِيَ عَلَى مَا يُمْكِنُ أَنْ يُصَادِفَهُ مِنْ مُقَاوَمَةٍ، وَبِالْفِعْلِ فَقَدْ دَخَلَ الْمُسْلِمُونَ مَكَّةَ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يُلَاقُوا سِوَى مُقَاوَمَةٍ بَسِيطَةٍ عِنْدَ أَحَدِ مَدَاخِلِهَا، قَادَهَا بَعْضُ شَبَابِ قُرَيْشٍ وَعَلَى رَأْسِهِمْ: عِكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلٌ بْنُ عَمْرٍو، لَكِنَّ خَالِدًا بْنَ الوَلِيدِ(ﷺ) مَا لَبِثَ أَنْ قَضَى عَلَيْهَا، وَانْتَهَتْ هَذِهِ الْمُنَاوَشَاتُ بِدُخُولِ المُسْلِمِينَ مَكَّةَ، وَعَقِبَ دُخُولِ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) مَكَّةَ، تَوَجَّهَ وَحَوْلَهُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْكَعْبَةِ، وَطَافَ بِهَا سَبْعَ مَرَّاتٍ، شُكْرًا للهِ(ﷻ) عَلَى هَذَا الْفَتْحِ الْمُبِينِ، ثُمَّ خَاطَبَ أَهْلُ مَكَّةَ، ثُمَّ سَأَلَهُمْ(ﷺ): "يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ"، قَالُوا: "أَخٌ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ"، قَالَ(ﷺ): "فَاذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ"، ثُمَّ

أَصْدَرَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) عَفْوًا عَامًّا شَمَلَ: عِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ، وَهِنْدَ بِنْتَ عُتْبَةَ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ سَعْدٍ بْنِ أَبِي السَّرْحِ، وَغَيْرَهُمْ، وَانْصَرَفَ يَكْسِرُ الْأَصْنَامَ الَّتِي حَوْلَ الْكَعْبَةِ، وَكَانَ عَدَدُهَا ثَلَاثَمِائَةٍ وَسِتِّينَ صَنَمًا مُرَدِّدًا قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١ ﴾ (سورة الإسراء: آية ٨١).

ثُمَّ أَمَرَ بِلَالًا فَأَذِنَ، وَصَلَّى النَّاسُ بِإِمَامَةِ رَسُولِ اللهِ(ﷺ)، وَفِي اليَوْمِ التَّالِي لِلْفَتْحِ بَعْدَ الظُّهْرِ أَعْلَنَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) حُرْمَةَ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ، وَقَدْ استها فِي خُطْبَةٍ أَلْقَاهَا عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: "إِنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهِيَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَلَمْ تَحِلّ لِيَ إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَجِعَتْ كَحُرْمَتِهَا بَالْأَمْسِ فَلْيُبْلِغْ شَاهِدُكُمْ غَائِبَكُمْ، وَلَا يَحِلُّ لَنَا مِنْ غَنَائِمِهَا شَيْءٌ". ثُمَّ أَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) بَعْضَ سَرَايَاهُ إِلَى ظَوَاهِرِ مَكَّةَ وَضَوَاحِيهَا، لِدَعْوَةِ أَهْلِهَا إِلَى الْإِسْلَامِ، وَالْقَضَاءِ عَلَى مَعَالِمِ الْوَثَنِيَّةِ، وَتَكْسِيرِ الْأَصْنَامِ فِيهَا، فَأَعْلَنَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) بِذَلِكَ لِلْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ جَمِيعِهَا نِهَايَةَ عَهْدِ الْوَثَنِيَّةِ، وَالشِّرْكِ بِاللهِ(ﷻ).

غَزْوَة حُنَيْن شَوَّال عَام ٨هـ:

لَمَّا دَانَتْ قُرَيْشٌ لِحُكْمِ رَسُولِ اللهِ(ﷺ)، فَزِعَتْ هَوَازِنُ وَثَقِيفُ، وَاجْتَمَعَ حَوْلَهُمْ بَنُو سَعْدٍ، وَجشم، وَنَصْرٌ، وَبَعْضُ بَنِي هِلَالٍ، وَتَحَادَثُوا بِقَوْلِهِمْ: "قَدْ فَرَغَ مُحَمَّدٌ لِقِتَالِنَا، فَلْنَغْزُهُ قَبْلَ أَنْ يُغْزُونَا"، فَعَقَدُوا الْعَزْمَ عَلَى الْقِتَالِ، مَا عَدَا كَعْبٍ وَكِلَابٍ مِنْ هَوَازِن، وَوَلُّوا عَلَيْهِمْ مَالِكًا بْنَ عَوْفٍ النَّصْرِيَّ.

فَلَمَّا بَلَغَ رَسُولَ اللهِ(ﷺ) مَا اعْتَزَمُوا عَلَيْهِ خَرَجَ لِمُلَاقَاتِهِمْ، فِي اثْنَيْ عَشْرَ أَلْفًا، هُمْ مَنْ كَانَ مَعَهُ أَثْنَاءَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَانْضَمَّ إِلَيْهِمْ أَلفَانِ مِنْ مسلمة الْفَتْحِ، وَيُقَالُ كَانَ مَعَهُمْ بَعْضُ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، وَالرَّاغِبِينَ فِي الْغَنَائِمِ، بَلْ وَانْضَمَّ لَهُمْ ثَمَانُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رَأْسِهِمْ: سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ، وَيُرْوَى أَنَّ رَسُولَ اللهِ(ﷺ)

أَرْسَلَ إِلَى هَذَا الأَخِيرِ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكٍ فَقَالَ: "يَا أَبَا أُمَيَّةَ أَعِرْنَا سِلَاحَكَ، نَلْقَ بِهِ عَدَوَّنَا غَدًا"، فَقَالَ صَفْوَانُ: "أَغَصْبًا يَا مُحَمَدُ؟"، فَقَالَ(ﷺ): "بَلْ عَارِيَةٌ مَضْمُونَةٌ"، فَأَعَارَهُ مِائَةَ دِرْعٍ. فَلَمَّا كَثُرَ جَمْعُ جَيْشِ الْإِسْلَامِ أَصَابَ بَعْضَهُمُ الْغُرُورُ فَتَنَاجوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: "لَنْ نُهْزَمَ اليَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ".

وَكَانَ مَالِكٌ بْنُ عَوْفٍ قَدْ سَبَقَ جَيْشُ المُسْلِمِينَ إِلَى حُنَيْنٍ، وَتَمَرْكَزَ فِي مَضَايِقِ الْوَادِي، فَلَمَّا أَقْبَلَ جَيْشُ المُسْلِمِينَ فُوجِئُوا بِهُجُومٍ شَامِلٍ مِنْ قَبَائِلِ هَوَازِنَ وَثَقِيفٍ، حَيْثُ أَمْطَرُوهُمْ بِالسِّهَامِ، فَاخْتَلَطَ أَمْرُ الْمُسْلِمِينَ، وَتَفَرَّقُوا مُتَقَهْقِرِينَ، حَتَّى وَصَلَتْ فُلُولُ الْمُنْهَزِمِينَ مِنْهُمُ إِلَى مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ.

وَفِي خِضَمِّ هَذِهِ الاِضْطِرَابَاتِ، انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) فَوْقَ بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ نَحْوَ نَحْرِ الْأَعْدَاءِ، وَثبُتَ مَعَهُ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ آخِذًا بِلِجَامِ بَغْلَتِهِ، وابْنُ عَمِّهِ أَبُو سُفْيَان بْنُ الْحَارِثِ يُنَافِحُ عَنْ رَسُولِ اللهِ(ﷺ)، بِالْإِضَافَةِ إِلَى رَهْطٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْهُمُ: الصِّدِّيقُ، وَعُمَرُ، وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَرَبِيعَةُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَالْفَضْلُ، وَقثم وَلَدَا الْعَبَّاسِ، وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَأَيْمَنُ بْنُ عُبَيْدٍ وَهُوَ ابْنُ أُمِّ أَيْمَنَ رَضِيَ اللهُ عَنْهم، ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) يُنَادِي فِي أَتْبَاعِهِ: "أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِب، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِب"(١).

وَبَعَدْهَا أَمَرَ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ وَكَانَ جَهُورِيَّ الصَّوْتِ أَنْ يُنَادِيَ: "يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، يَا أَصْحَابَ الشَّجْرَةِ، يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقْرَةِ"، فَلَمَّا بَلَغَ نِدَاؤُهُ الفَارُّونَ عَادُوا إِلَى رُشْدِهِمْ، وَأَجَابُوهُ: "لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ" فَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِذَا عَجَزَ عَنْ لَوْيِ عُنُقِ بَعِيرِهِ، لِشِدَّةِ الْفَزَعِ، نَزَلَ عَنْ بَعِيرِهِ، وَمَعَهُ رُمْحُهُ، وَيؤم الصَّوْت، حَتَّى تَكَتَّلُوا حَوْلَ رَسُول اللهِ(ﷺ).

(١) اِنْتَسَبَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) إِلَى جَدِّهِ لِأَنَّهُ كَانَ أَشْهَرَ عِنْدَ الْعَرَبِ، أَمَّا أَبُوهُ فَقَدْ مَاتَ وَهُوَ فِي سِنِّ الشَّبَابِ فَلَمْ يُشْتَهَرْ.

فَأَدَارَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) الْمَعْرَكَةَ، وَوَجَّهَ الْمُقَاتِلِينَ، وَأَرْسَلَ اللهُ(ﷻ) جُنُودًا مِنْ عِنْدَهُ، حَتَّى اشْتَدَّ الْقِتَالُ، وَدَارَتْ الدَّائِرَةُ لِصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ وَانْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ، وَأَنْزَلَ اللهُ(ﷻ) فِي غَزْوَةِ حُنَيْنَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (التوبة: آية ٢٥- ٢٦).

فَلَمَّا تَمَّتِ الْمَوْقِعَةُ أَمَرَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) بِجَمْعِ دُرُوعِ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ الَّتِي كَانَ قَدْ أَعَارَهُ إِيَّاهَا فِي بِدَايَةِ الغَزْوَةِ، فَوَجَدَ أَنَّ بَعْضَهَا قَدْ فَقَدَ، فَعَرَضَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) عَلَى صَفْوَان بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ يَضْمَنَهَا لَهُ، وَلَكِنَّ صَفْوَان نَتِيجَةً لِمُعَاصَرَتِهِ الْغَزْوَةَ مَعَ الرَّسُولِ(ﷺ) رَقَّ قَلْبُهُ، فَأَبَى، وَقَالَ: "أَنَا اليَوْمَ فِي الْإِسْلَامِ أَرْغَبُ"، وَقِيلَ إِنَّهُ أَسْلَمَ بَعْدَ غَزْوَةِ الطَّائِفِ.

كَمَا أَسْلَمَ جَمْعٌ غَفِيْرٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ حِينَ رَأَوْا نَصْرَ اللهِ(ﷻ) لِرَسُولِهِ(ﷺ)، وَإِعْزَازَ دِينِهِ.

<u>غَزْوَةِ الطَّائِف شوال ٨هـ:</u>

ثُمَّ سَارَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) بِقُوَّاتِهِ نَحْوَ الطَّائِفِ، وَكَانَتْ مَدِينَةً مُحَصَّنَةً لَهَا أَبْوابٌ تُغْلَقُ، وَأَسْوَارٌ عَالِيَةٌ، فَصَارَ أَهْلُ الطَّائِفِ يَرْمُونَ الْمُهَاجِمِينَ بِالنبل مِنْ فَوْقِ حُصُونِهِمْ، فَأَصَابُوا العَدِيدَ مِنْهُمْ، وَظَلَّ هَذَا الْحِصَارُ بِضْعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، وَقِيلَ بِضْعَ عَشَرَةَ لَيْلَةً.

وَفِي هَذِهِ الغَزْوَةِ اسْتَخْدَمَ المُسْلِمُونَ أَسَالِيبَ عِدَّةً لِفَكِّ الْحِصَارِ مِنْهَا: الرَّمْيُ بِالْمَنْجَنِيقِ، وَكَانَ هَذَا أُسْلُوبًا قِتَالِيًّا جَدِيدًا عَلَى الْعَرَبِ، وَمِنْهَا: اسْتِخْدَامُ الدَّبَّابَاتِ لِنَقْبِ ثَغْرَةٍ فِي أَسْوَارِ الطَّائِفِ، فَدَخَلَ عَدَدٌ مِنَ المُسْلِمِينَ أَسْفَلَ دَبَّابَةٍ، فقَامَ أَهْلُ الطَّائِفِ بِإِحْمَاءِ قِطَعٍ مِنَ الْحَدِيدِ ثُمَّ أَلْقوهَا عَلَى الدَّبَّابَاتِ فَاشْتَعَلَتْ بِهَا النِّيرَانُ فَفَرَّ جُنُودُ المُسْلِمِينَ مِنْ أَسْفَلِهَا، فَأَصَابَتْهُمْ نبل أَهْلِ الطَّائِفِ.

عِنْدَئِذٍ أَمَرَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) بِقَطْعِ أَشْجَارِ كُرُومِهَا، وَحَرْقِهَا، وَالَّتِي كَانَتْ تُمَثِّلُ ثَرْوَةً لِأَهْلِ الطَّائِفِ، لِتَكُونَ أَدَاةَ ضَغْطٍ عَلَيْهِمْ ، فَلَمَّا شَرَعَ المُسْلِمُونَ فِي تَقْطِيعِهَا، وَحَرْقِهَا، أَرْسَلَ أَهْلُ الطَّائِفِ إِلَى رَسُولِ اللهِ(ﷺ) أَنْ خُذْهَا وَلَا تَحْرِقْهَا أَوِ اتْرُكْهَا للهِ وَلِلرَّحِمِ، فَتَرَكَهَا نَبِيُّ الرَّحْمَةِ.

وَلَمَا طَالَ الحِصَارُ أَمَرَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) بَالرَّحِيلِ، دُونَ أَنْ يَفْتَحَ الطَّائِفَ، وَيَشَاءُ اللهُ أَنْ يَأْتُوا لرَسُولِ اللهِ(ﷺ) طَائِعِينَ مُسْلِمِينَ فِي الْعَامِ التَّالِي مِنْ دُونِ قِتَالٍ.

غَزْوَة تَبُوك رَجَب ٩هـ:

بَعْدَ أَنْ أَتَمَّ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) فَتْحَ مَكَّةَ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ لِلْهِجْرَةِ، عَزَمَ عَلَى الْعَوْدَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَعِنْدَئِذٍ بلَغَهُ أَنَّ الرُّومَ قَدْ تَجَمَّعُوا عَلَى حُدُودِ فِلِسْطِينَ، ومَعَهُمْ بَعْضُ عَرَبِ الشَّامِ، فَعَقَدَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) الْعَزْمَ عَلَى القِيَامِ بِعَمَلٍ حَاسِمٍ، يَقْضِي بِهِ عَلَى الْآثَارِ السَّلْبِيَّةِ الَّتِي خَلَّفَتْهَا غَزْوَةُ مُؤْتَةَ، وَيحد بِهِ تَهْدِيدَ الرُّومِ لِدَوْلَةِ الْإِسْلَامِ.

وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ يُعْلِنُ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) وِجْهَتَهُ لِلْقِتَالِ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ يُخْفِيهَا، وَلَا يُصَرِّحُ بِوِجْهَتِهِ إِلَّا مَا كَانَ فِي غَزْوَةِ تَبُوك، فَأَعْلَنَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) أَنَّهُ سَيَتَوَجَّهُ إِلَى تَبُوك الَّتِي تَبْعُدُ شَمَالَ الْمَدِينَةِ مَسَافَةَ مِائَتَيْنِ وَخَمْسِينَ ميلًا عَلَى حُدُودِ الشَّامِ، وَلَعَلَّ رَسُولَ اللهِ(ﷺ) قَصَدَ مِنْ إِعْلَانِ وِجْهَتِهِ أَنْ يُبَيِّنَ لِلْمُسْلِمِينَ صُعُوبَةَ هَذِهِ الغَزْوَةِ؛ لِكَثْرَةِ مَشَقَّتِهَا، وَقُوَّةِ الْعَدُوِّ الَّذِي سَوْفَ يَقْصِدُهُ، وَحَاجَتِهِ إِلَى تَجْهِيزِ جَيْشِهِ.

بَعَثَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) إِلَى القَبَائِلِ، وَرُؤَسَاءِ الْعَشَائِرِ يَحُثُّهُمْ عَلَى الْخُرُوجِ، وَيُرَغِّبُهُمْ فِي الْجِهَادِ، وَحَضَّ المُسْلِمِينَ عَلَى بَذْلِ الْمَالِ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَسَارَعُوا إِلَى تَلْبِيَةِ طَلَبِهِ، وَأَنْفَقَ الصَّحَابَةُ أَمْوَالًا كَثِيرَةً فِي تَجْهِيزِ هَذَا الْجَيْشِ الَّذِي عُرِفَ بِجَيْشِ العُسْرَةِ، وَكَانَ أَبْرَزُهُمْ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ(رضي الله عنه) الَّذِي أَنْفَقَ فِي إِعْدَادِ الْجَيْشِ نَفَقَةً عَظِيمَةً اسْتَحَقَّ بِهَا دَعْوَةَ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) لَهُ بِقَوْلِهِ: "اللَّهُمّ اِرْضَ عَنْ عُثْمَان فَإِنِّي عَنْهُ رَاضٍ".

وَعَلَى صَعِيدٍ آخَرَ قُوبِلَ نِدَاءُ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) لِلْجِهَادِ بِفُتُورٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَتَثَاقُلٍ مِنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ بِسَبَبِ شِدَّةِ الْحَرِّ، وَمَشَاقِّ السَّفَرِ، فَضْلًا عَنْ تَفْضِيلِهِمْ الْبَقَاءَ إِلَى جِوَارِ ثِمَارِهِمْ الَّتِي طَابَتْ آنَذَاكَ، وَجَاءَ هَؤُلَاءِ يَسْتَأْذِنُونَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) فِي التَّخَلُّفِ عَنِ الْجِهَادِ دُونَ أَنْ يَكُونَ بِهِمْ عِلَّةٌ يَشْكُونَ مِنْهَا، فَنَزَلَ فِيهِمْ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ (سورة التوبة: آية ٣٨).

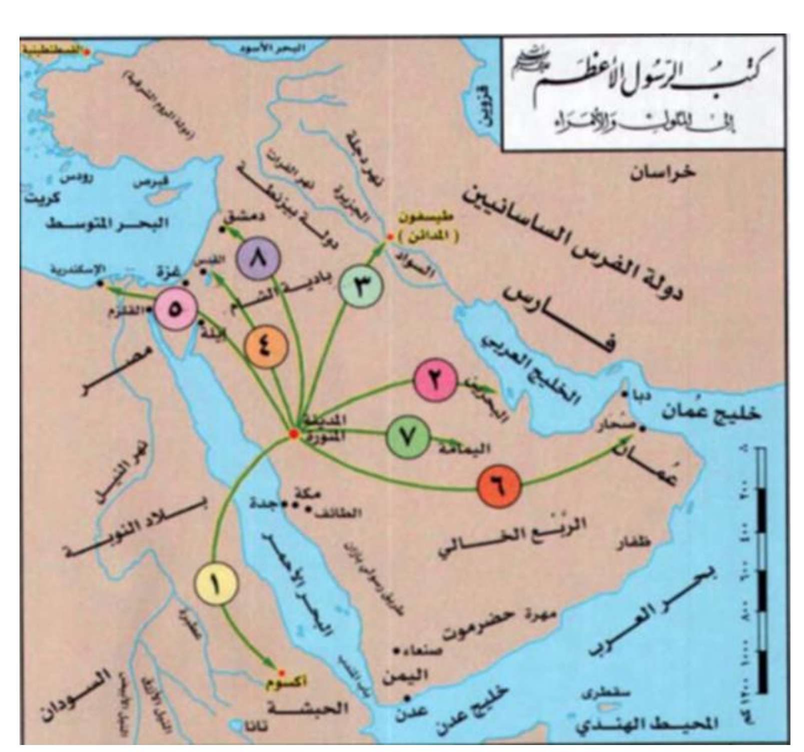
وفِي رَجَب عَامَ ٩هـ تَحَرَّك رَسُولُ اللهِ(ﷺ) إِلَى بِلَادِ الشَّامِ بِصُحْبَةِ ثَلَاثِينَ أَلْفًا مِنَ الْجُنْدِ بَعْدَ أَنْ تَغَلَّبَ عَلَى الصِّعَابِ الَّتِي لَاقَاهَا فِي إِعْدَادِ هَذَا الْجَيْشِ الكَبِير، وَعِنْدَمَا وَصَلَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) إِلَى ثَنِيَّةِ الْوَدَاعِ تَخَلَّفَ عَنْهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ بْنِ سَلُولٍ، وَعَدَدٌ مِنْ أَتْبَاعِهِ-كَعَادَتِهِمْ- وَعَادُوا إِلَى الْمَدِينَةِ.

لَمْ يبَالِ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) بِتَخَلُّفِ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ، وَمَضَى فِي طَرِيقِهِ حَتَّى وَصَلَ تَبُوكَ، فَحَطَّ رِحَالَهُ، وَعَسْكَرَ الْجَيْشُ بِهَا، وَتَجَهَّزَ لِلقَاءِ الْعَدُوِّ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا أَيَّ أَثَرٍ لِقُوَّاتِ الرُّومِ، فَقَدْ أَدْرَكَ أُمَرَاؤُهُمْ قُوَّةَ الْمُسْلِمِينَ؛ فَجَنَحُوا لِلسِّلْمِ، وَمِنْهُمْ أَهْلُ تَبُوكَ الَّذِينَ صَالَحُوا رَسُولَ اللهِ(ﷺ) عَلَى الْجِزْيَةِ. وظَلَّ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) مُقِيمًا فِي تَبُوكٍ عِشْرِينَ لَيْلَةً،

بَعْدَ هَذَا النَّجَاحِ الَّذِي حَقَّقَتْهُ غَزْوَةُ تَبُوك عَادَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) إِلَى الْمَدِينَةِ دُونَ أَنْ يُتَابِعَ السَّيْرَ بِنَفْسِهِ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ، وَاكْتَفَى بتَوْحِيدِ سُلْطَانِهِ السِّيَاسِيِّ فِي شَمَالِ بِلَادِ الْحِجَازِ.

عَامُ الْوُفُودِ ٩هـ:

لَمَّا افْتَتَحَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) مَكَّةَ، وَفَرَغَ مِنْ تَبُوك، وَأَسْلَمَتْ ثَقِيفٌ، وَبَايَعَتْ، ضَرَبَتِ إِلَيْهِ وُفُودُ الْعَرَبِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ فَتْحَ مَكَّةَ، وَإِسْلَامَ قُرَيْشٍ، أَدَّى إِلَى تَغُيُّرِ مَوْقِفِ القَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الأُخْرَى مِن الدِّين الْإِسْلَامِيّ، فَأَدْرَكَتْ أَنَّهُ لَا قِبَلَ لَهَا بِمُحَارَبَةِ رَسُولِ اللهِ(ﷺ)،



وَالْمُسْلِمِينَ، فَأَخَذَتْ وُفُودُهَا تَتَوَافَدُ مِنْ كَافَّةِ الْجِهَاتِ مِنْ دَاخِلِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ قَاصِدَةً الْمَدِينَةَ، لِتُعْلِنَ إِسْلَامَهَا، وَطَاعَتَهَا لِرَسُولِ اللهِ(ﷺ)؛ لِذَا عُرِفَ الْعَامُ التَّاسِعُ لِلْهِجْرَةِ بِعَامِ الْوُفُودِ؛ لِأَنَّ فِيهِ أَرْسَلَتْ أَغْلَبُ قَبَائِلِ الْعَرَبِ إِلَى رَسُولِ اللهِ(ﷺ) وُفُودَهَا لِتُبَايِعَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) يُكَرِّمُ وِفَادَةَ رُسُلِ الْقَبَائِلِ، وَيُحْسِنُ لِقَاءَهُمْ، وَيُعَرِّفُهُمْ شُئُونَ دِينِهِمْ، فَيَعُودُونَ إِلَى قَبَائِلِهِمْ مُشَبَّعِينَ بِنَسَائِمِ الرِّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، مِمَّا أَسْهَمَ فِي نَشْرِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيّ فِي كَافَّةِ رُبُوعِ الْجَزِيرَةِ.

أَوَّلُ هَذِهِ الْوُفُودِ وَفْدُ ثَقِيفٍ، الَّتِي كَانَتْ مُحَاصَرَةً فِي الطَّائِفِ عَقِبَ غَزْوَةِ حُنَيْنٍ، حَيْثُ لَقِيَهُمُ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ(رضي الله عنه) –وَهُوَ مِنْ قَبِيلَةِ ثَقِيفٍ نَفْسِهَا–، ثُمَّ صَحِبَهُمْ إِلَى رَسُولِ اللهِ(ﷺ)، فَاسْتَقْبَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) فِي بشر، وَمَا زَالَ بِهِمْ حَتَّى أَعَلَنُوا

إِسْلَامَهُمْ، وَصحِبَهُمْ فِي عَوْدَتِهِمْ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ(ﷺ) وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ(ﷺ)، وَعَقِبَ وُصُولِهِمْ إِلَى الطَّائِفِ، وَقَدْ حَاوَلُوا سُؤَالَ الرَّسُولِ أَنْ يُؤَخِّرَ هَدْمَ صَنَمِ اللَّاتِ ثَلَاثَ سِنِينَ، فَأَبَى رَسُولُ اللهِ(ﷺ)، فَسَأَلُوهُ أَنْ يَتْرُكَهَا سَنَةً، فَأَبَى رَسُولُ اللهِ(ﷺ)، فَسَأَلُوهُ تَرْكَهَا شَهْرًا، فَأَبَى رَسُولُ اللهِ(ﷺ)، وَيَبْدُو أَنَّ مَا دَعَاهُمْ لِهَذَا خَوْفُهُمْ مِنْ سُفَهَاءِ قَوْمِهِمْ، وَكُرْهِهِمْ مِنْ تَرْوِيعِ قَوْمِهِمْ بِهَدْمِهَا قَبْلَ إِسْلَامِهِمْ؛ لِذَا بَادَرَ الْمُغِيرَةُ(ﷺ) بِتَنْفِيذِ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) وَهَدْمِ اللَّاتِ، وَمِنْ ثُمَّ صَارَتْ ثَقِيفٌ بَعْدَ إِسْلَامِهَا مِنْ أَشَدِّ الْقَبَائِلِ دِفَاعًا عَنِ الْإِسْلَامِ. ثُمَّ تَتَابَعَتْ وُفُودُ الْعَرَبِ عَلَى الْمَدِينَةِ بَقِيَّةَ عَامِ ٩هـ.

عَلَى صَعِيدٍ آخَرَ ظَلَّتْ بَعْضُ القَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ مُحْتَفِظَةً بِدِيَانَتِهَا الْقَدِيمَةِ، وَلَمْ تُعْلِنْ إِسْلَامَهَا بَعْدُ، فَقَرَّرَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) أَنْ يَحْسِمَ أَمْرَهُ مَعَ مَنْ أَعْطَاهُ عَهْدًا مَنْ مُشْرِكِي هَذِهِ القَبَائِلِ، وَكَانَ هَذَا الْعَهْدُ يَتَضَمَّنُ: "أَلَّا يَصُدَّ عَنِ الْبَيْتِ أَحَدٌ جَاءَهُ، وَلَا يَخَافُ أَحَدًا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ"، بِالْإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ فَقَدْ كَانَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ(ﷺ)، وَبَيْنَ فَرِيقٍ مِنْ هَذِهِ القَبَائِلِ عُهُودٌ خَاصَّةٌ لِآجَالٍ مُعَيَّنَةٍ.

رَأَى رَسُولُ اللهِ(ﷺ) أَلَّا يَحُجَّ فِي هَذَا الْعَامِ، حَتَّى يَرُدَّ إِلَى كُلِّ مَنْ عَهِدَ إِلَيْهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَهْدَهُ، كَمَا كَرِهَ الْخُرُوجَ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا إِلَى ذَلِكَ الْحِينِ يَحُجُّونَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ عَرَايَا، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ يُعَظِّمُونَ حُرْمَةَ بَيْتِ اللهِ(ﷻ)، لِذَلِكَ جَعَلَ الرَّسُولُ(ﷺ) أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ(ﷺ) أَمِيرًا عَلَى الْحَجِّ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُخَالِفَ المُشْرِكِينَ فِي مَنَاسِكِ الْحَجِّ، فَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ(ﷺ) عَلَى رَأْسِ ثَلَاثِمِائَةِ رَجُلٍ، وَمَعَهُ عِشْرُونَ بدنة لِتُذْبَحَ هُنَاكَ يَوْمَ النَّحْرِ فِي منى.

وَعَقِبَ خُرُوجِ أَبِي بَكْرٍ(ﷺ) نَزَلَتْ سُورَةُ بَرَاءَة (التَّوْبَة) الَّتِي نَقَضَتِ الْعَهْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَ الرَّسُولِ(ﷺ) وَالمُشْرِكِينَ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) بِهَا مَعَ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ(ﷺ) لِيَقْرَأَهَا عَلَى النَّاسِ، وَهُمْ فِي الْحَجِّ، كَذَلِكَ أَمَرَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) عَلِيًّا بْنَ أَبِي طَالِبٍ(ﷺ) بَأَنْ يُعْلِنَ لِلنَّاسِ فِي يَوْمِ النَّحْرِ أَلَّا يَحُجَّ الْبَيْتَ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِهِ عِرْيَانٌ بَعْدَ عَامِهِ هَذَا، أَدْرَكَتْ هَذِهِ الْقَبَائِلُ الَّتِي وَصَلَ إِلَى مَسَامِعِهَا نِدَاءُ الْحَقِّ أَنَّهُ لَا

فَائِدَةَ مِنْ احت فَإِظها بديانتها، فَأَخَذَتْ وُفُودَهَا تَصِلُ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي الْعَامِ الْعَاشِرِ مِنَ الْهِجْرَةِ، لِتُعْلِنَ إِسْلَامها لِرَسُولِ اللهِ(ﷺ).

حِجَّةُ الْوَدَاعِ ١٠هـ:

لَمَّا اطْمَأَنَّ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) إِلَى بُلُوغِ رِسَالَتِهِ كَافَّةَ أَقْطَارِ الجَزِيرَة، اسْتَقَرَّ رَأْيُهُ عَلَى الْخُرُوجِ لِلْحَجِّ، وَدَعَا المُسْلِمِينَ إِلَى أَدَاءِ هَذِهِ الْفَرِيضَةِ مَعَهُ، فَلَقِيَتْ دَعْوَتُهُ قَبُولًا وَإِقْبَالًا، فَوَفَدَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، يُرِيدُونَ أَنْ يَأْتَمُّوا بِرَسُولِ اللهِ(ﷺ) فِي حِجَّتِهِ.

وَفِي الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ ذِي الْقِعْدَةِ مِنَ السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ لِلْهِجْرَةِ، خَرَجَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) فِي جَمْعٍ كَبِيرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَالْأَنْصَارِ، وَالقَبَائِلِ، إِلَى مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ قَاصِدًا الْحَجَّ، وَقَدْ بَلَغَ عَدَدُ مَنْ خَرَجَ مَعَهُ مَا يقْرُبُ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ، سَاقُوا الهَدي مَعَهُمْ، وَلَمَّا بَلَغُوا ذَا الحليفة أَحْرَمَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) وَالْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا، وَنَادَى رَسُولُ اللهِ(ﷺ) مُلَبِّيًا، والْمُسْلِمُونَ مِنْ وَرَائِهِ، وَعِنْدَمَا وَصَلَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) إِلَى مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ قَامَ بِتَعْلِيمِ النَّاسِ سُنَنَ حَجِّهِمْ، وَأُصُولَ مَنَاسِكِهِمْ، وَهُوَ يَقُولُ: "أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ فَلَعَلَّكُمْ لَا تَلْقُونَنِي بَعْدَ عَامِكُمْ هَذَا".

وَخَطَبَ فِيهِمْ (ﷺ) فَحَمِدَ اللهَ(ﷻ) وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: "أَيُّهَا النَّاسُ، اسْمَعُوا قَوْلِي، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا بِهَذَا الْمَوْقِفِ أَبَدًا، أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، وَكَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا، وَإِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، وَقَدْ بَلَّغْتُ، فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى مَنْ ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا، وَإِنَّ كُلَّ رِبًا مَوْضُوعٌ، ....، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِخْوَةٌ، فَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ مِنْ أَخِيهِ إِلَّا مَا أَعْطَاهُ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ، فَلَا تَظْلِمُنَّ أَنفُسَكُمْ، اللَّهمّ هَلْ بَلَّغْتُ؟"، فَقَالُوا: اللَّهمّ نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ(ﷺ): اللَّهمّ اشْهَدْ".

وَقَدْ سُمِّيَتْ هَذِهِ الْحِجَّةُ بِحِجَّةِ التَّمَامِ أَوْ حِجَّةِ الْبَلَاغِ أَوْ حِجَّةِ الْوَدَاعِ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ(ﷺ) لَمْ يَحُجّ بَعْدَهَا، وَفِي يَوْمِ الْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ خَطَبَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) مِنْ فَوْقِ

جَبَلِ الرَّحْمَةِ خُطْبَةً جَامِعَةً فِي جُمُوعِ المُسْلِمِينَ عُرِفَتْ: بِخُطْبَةِ الْوَدَاعِ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى الْوَحْيَ عَلَى رَسُولِهِ(ﷺ) مُبَشِّرًا بِتَمَامِ رِسَالَتِهِ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: آيَة ٣). وَقَدْ تَلَاهَا رَسُولُ اللهِ(ﷺ) عَلَى المُسْلِمِينَ حِينَ نُزُولِهَا فكَانَ لَهَا أَبْلَغُ الْأَثَرِ فِي نُفُوسِهِمْ.

انتقَالُ رَسُولِ اللهِ (ﷺ) إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى:

بَعْدَ انْتِهَاءِ مَوْسِمِ الْحَجِّ عَادَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) إِلَى الْمَدِينَة المُنَوَّرَة راضيًا مَرْضِيًّا بَعْدَ أَنْ تَأَكَّدَ مِنْ أَنَّهُ أَنْجَزَ مَا أَمَرَهُ اللهُ(ﷻ) بِهِ مِنْ تَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ، إِذْ شَاهَدَ الرَّسُولُ(ﷺ) بِنَفْسِهِ أَثْنَاءَ حَجِّهِ كَيْفَ عَلَتْ رَايَةُ الْإِسْلَامِ؟ وَكَيْفَ انْهَارَ صَرْحُ الْوَثَنِيَّةِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ؟ حَتَّى أَنَّهُ لَمْ يَحْضُرْ مَوْسِمَ الْحَجِّ وَثَنِيٌّ، أَوْ كَافِرٌ مُطْلَقًا.

لَمْ يَمْضِ شَهْرَانِ عَلَى عَوْدَةِ الرَّسُولِ الحَبِيبِ(ﷺ) حَتَّى اعْتَرَاهُ مَرَضُ الْمَوْتِ، فَقَدْ أُصِيبَ الحَبِيبُ(ﷺ) بِوَجَعٍ فِي رَأْسِهِ مُدَّةَ ثَلَاثَةَ عَشْرَ يَوْمًا، وَكَانَ (ﷺ) قَدْ طَلَبَ فِي مَرَضِهِ أَنْ يَكُونَ فِي بَيْتِ أُمِّ الْمُؤْمِنينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَلَمَّا اشْتَدَّ بِهِ المَرَضُ، طَلَبَ الحَبِيبُ(ﷺ) مِنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ(رضي الله عنه) أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ؛ فَصَلَّى بِهِمْ عِدَّةَ أَيَّامٍ.

وَلَمْ يَلْبَثْ أَنِ اخْتَارَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) الِانْتِقَالَ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى، فِي ضُحَى ذَلِكَ اليَوْمِ لِاثْنَتِيْ عَشْرَ لَيْلَةً مَضَتْ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ مِنَ الْهِجْرَةِ الْمُوَافِقِ ٨ يُونْيَة ٦٣٢م، وَهُوَ فِي الثَّالِثةِ وَالسِّتِّينَ مِنْ عُمْرِهِ، بَعْدَ أَنْ بَلَّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ(ﷻ)، وَجَمَعَ شَتَاتَ قَبَائِلِ الْعَرَبِ تَحْتَ رَايَةِ الْإِسْلَامِ. بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا حَبِيبِي يَا رَسُولَ اللهِ.

الجزء الثاني: تاريخ الخلفاء الراشدين

مقدمــة:

أما قبل: حينما شرعت في جمع هذا الجزء من تاريخ الخلفاء الراشدين، أرتأيت إلقاء الضوء على عدد من القضايا الملتبسة لدى كثير من العامة لتوضيحها، لذا فلا يظن القارئ أنه سيجد هاهنا سرد للأحداث التاريخية لحياة الخلفاء وكبار الصحابة وأحوالهم وعباداتهم، ولعل ما دفعني إلى هذا ضيق المساحة المخصصة لتاريخ الخلفاء طبقًا لتوصيف المقرر.

أما بعد: فلم يكن لرسول الله(ﷺ) لقب بصفته رئيسًا للدولة المسلمة الفتية سوى أنه نبي أو رسول وبعد وفاته(ﷺ)، أصبح أبوبكر الصديق(ﷺ) رئيسًا للدولة. فقيل له: (يا خليفة الله! فقال: لست خليفة الله، ولكني خليفة رسول الله)، فكان أبوبكر(ﷺ)، أول من سمي بالخليفة، (ولم نستطيع أن نعرف علي وجه أكيد ذلك الذي اختار لأبي بكر(ﷺ) لقب خليفة رسول الله، ولكنا نعرف أن أبا بكر قد أجازه وارتضاه).

ثم جاء عمر بن الخطاب(ﷺ) كثاني رئيس للدولة الإسلامية، (وهو أول من سمي أمير المؤمنين)، لأنه (لما ولي عمر(ﷺ) قيل : يا خليفة خليفة رسول الله، فقال عمر(ﷺ): هذا أمر يطول كلما جاء خليفة، قالوا: يا خليفة خليفة رسول الله)، وقد كان الفاروق عمر بن الخطاب(ﷺ) يغضب من ذلك، ففي رواية قال رجل لعمر بن الخطاب(ﷺ): يا خليفة الله، قال: خالف الله بك)، فلم يرتض أن يقال له: خليفة خليفة رسول الله، ولا خليفة الله، فهو القائل: (بل أنتم المؤمنون، وأنا أميركم).

وقد اختلف في أصل التسمية، فقيل إن أصل ذلك أن عمر(ﷺ)، بعث إلى عامله بالعراق أن يبعث إليه رجلين عارفين بأمور العراق يسألهما عما يريد، فأنفذ إليه لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم، فقالا: إستأذن لنا على أمير المؤمنين، فقال لهما عمرو بن العاص(ﷺ): أنتما والله أصبتما اسمه، ثم دخل على عمر(ﷺ) فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال: ما بدا لك يا ابن العاص؟ لتخرجن من هذا القول، فقص عليه القصة، فأقره على ذلك. فكان ذلك أول تلقيبه بأمير المؤمنين.

خلافة أبو بكر الصديق(رضي الله عنه)

هو: عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر.. وفهر: هو قريش.

تولى الخلافة: من عام ١١هـ إلى ١٣هـ

مدة خلافته: سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليالى

القضية الأولى: سقيفة بني ساعدة:

في هذه الفترة التي انشغل فيها علي والعباس والفضل رضي الله عنهم بتجهيز رسول الله(صلى الله عليه وسلم) اجتمع بعض الأنصار في سقيفة وسأذكر هذه الراوية من تاريخ الإمام الطبري أولًا من راوية أبو مخنف الكذاب، ثم أذكرها من رواية الإمام البخاري ثم نقارن بين الروايتين، حتى نعرف الزيادات التي أضافها أبو مخنف. ولعل كثيرًا من هذه الزيادات الآن عند الكثيرين أمور مسلمة، ومثل هذا سيأتينا –أيضا– في حادثتي الشورى والتحكيم.

قال الطبري: حدثنا هشام بن محمد عن أبي مخنف، قال: "..... أن النبي(صلى الله عليه وسلم) لما قُبض، اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة، فقالوا: نولي هذا الأمر بعد محمد(صلى الله عليه وسلم) سعد بن عبادة، قام أحدهم فقال: قد دانت لكم العرب بأسيافكم، وتوفي رسول الله(صلى الله عليه وسلم) وهو عنكم راض، وبكم قرير عين، استبدوا بهذا الأمر دون الناس، فأجابه الجميع: أن قد وفقت في الرأي، فقال قائل منهم: فإن أبت مهاجرة قريش نقول: منكم أمير ومنا أمير، فقال سعد بن عبادة: هذا أول الوهن".

ثم بلغ عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) أن بعض الأنصار اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة يقولون: منا أمير ومنكم أمير، فذهب إلي أبي بكر(رضي الله عنه) فأخبره، فقال: "إن أخواننا الأنصار اجتمعوا ويقولون كذا فهلم بنا إليهم". فخرج عمر وأبو بكر فوجدا أبا عبيدة رضي الله عنهم فقالا: معنا، فذهب الثلاثة إلى الأنصار، يقول عمر(رضي الله عنه) فزورت كلامًا في نفسي، فلما أردت أن أتكلم، أشار إليّ أبو بكر: أن أسكت.

فبدأ أبو بكر(رضي الله عنه) فحمد الله(عز وجل) وأثنى عليه، ثم قال: إن الله بعث محمدًا... وذكر خطبة طويلة لأبي بكر، وذكر منها أن المهاجرين أولى بالخلافة. فقال الحباب بن المنذر: "يا معشر الأنصار! إملكوا عليكم أمركم، فإن الناس في فيئكم، وفي ظلكم، ولن يجترئ مجترئ على خلافكم، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم، أنتم أهل العز والثروة، وأولو العدد والمنعة، فإن هم

أبوا عليكم ما سألتموه، فأجلوهم عن هذه البلاد، وتولوا عليهم هذه الأمور، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين، أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب" -يعني أنا أولى بها من غيري- والجذيل المحكك: هو العمود الذي يوضع للإبل التي كان يصيبها الجرب فتتحكك فيه حتى تشفى من الجرب، وعذيقها المرجب: هو عذق النخلة الذي يرجى.

فقال عمر وأبو عبيدة لأبي بكر: أبسط يدك نبايعك، فلما ذهبا ليبايعاه سبقهما إليه بشير بن سعد فبايعه، قال: فقام أسيد بن حضير، وكان أحد النقباء، فقال: "والله لإن وليتها عليكم الخزرج مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة". فقال سعد: "أما والله، لو أن بي قوة ما أقوي على النهوض، لسمعت مني في أقطارها وسككها زئيرًا يجرحك وأصحابك، أما والله، إذن لألحقنك بقوم كنت فيهم تابعًا غير متبوع، احملوني من هذا المكان"، فحملوه فأدخلوه في داره، فترك أيامًا، ثم قال: "أما والله، حتى أرميكم بما في كنانتي من نبلي، وأخضب سنان رمحي، وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي، وأقاتلكم بأهل بيتي، ومن أطاعني من قومي، فكان سعد بعد ذلك لا يصلي بصلاتهم ولا يُجمع معهم، ويحج ولا يفيض معهم بإفاضتهم فلم يزل كذلك حتى هلك أبو بكر رحمه الله.

هذه رواية أبي مخنف لقصة السقيفة، ونورد الآن رواية الإمام البخاري لهذه القصة نفسها ونقارن.

قال البخاري: "...عن عائشة زوج النبي(ﷺ) أن رسول الله(ﷺ) مات.. واجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، فقالوا: منا أمير ومنكم أمير، فذهب إليهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر. وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا أني قد هيأت كلامًا قد أعجبني خشيت ألا يبلغه أبو بكر، ثم تكلم أبو بكر، فتكلم أبلغ الناس، فقال في كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، فقال حُباب بن المنذر: لا والله لا نفعل، منا أمير ومنكم أمير، فقال أبو بكر: لا ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء، هم أوسط العرب دارًا، وأعربهم أحسابًا، فبايعوا عمر أو أبا عبيدة، فقال عمر: بل نبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله(ﷺ) فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس.

هذه رواية الإمام البخاري وهي -كما نرى- مختصرة وقصيرة وهذه حقيقة السقيفة، أما ما زاده أبو مخنف من أن سعد بن عبادة قال: أقاتلكم، وكان لا يصلي معهم، ولا يجمع بجمعتهم ولا يفيض بإفاضتهم، وأن الحباب بن المنذر رد على أبي بكر(ﷺ)، وغير ذلك من زيادات فكل ذلك أباطيل لا تثبت .

فقصة السقيفة لم تستغرق نصف الساعة في ظاهرها، وأنظر. كيف أصبحت الرواية أكبر مما هي عليه؟ وأما ما يتعلق بسعد بن عبادة فقد أخرج أحمد في مسنده، قال: "... فتكلم أبو بكر ولم يترك شيئا أُنزل في الأنصار ولا ذكره رسول الله(ﷺ) من شأنهم إلا وذكره وقال: ولقد علمتم أن رسول الله(ﷺ) قال: "لو سلك الناس واديًا وسلكت الأنصار واديًا، سلكت وادي الأنصار، ولقد علمت يا سعد أن رسول الله(ﷺ) قال: –وأنت قاعد "قريش ولاة هذا الأمر، فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم، فقال له سعد: صدقت نحن الوزراء وأنتم الأمراء".

هذه الرواية أخرجها أحمد في مسنده وهي وإن كانت مُرسلة إلا أنها أقوى بكثير من رواية ذلك الكذاب أبي مخنف، وهذه هي البيعة الخاصة، وتلتها البيعة العامة التي تمت في المسجد بعد دفن جثمان الرسول(ﷺ)، وفيها بايع مسلموا المدينة أبا بكر بالخلافة.

وكان على أبي بكر خليفة رسول الله، والرئيس الجديد للدولة أن يبين سياسته التي سوف يتبعها، فخطب للناس في المسجد وقال لهم: (أيها الناس، إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع أحد منكم الجهاد في سبيل الله فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء أطيعوني ما أطعت الله ورسوله. فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحموكم الله).

وقد أتى اختيار أبي بكر(رضي الله عنه) للخلافة لما له من فضائل، وبما يتفق مع التقاليد العربية القديمة فقد كان أسبق الرجال إلى الإسلام وهو الصديق، وثاني اثنين في غار ثور، وهو الذي اختاره النبي(ﷺ) للصلاة أثناء مرضه، وهو قرشي، ومن أكبر القرشيين سنًا. ويلاحظ أن خلافة أبي بكر قامت على أساس من الشورى والانتخاب على مرحلتين: مرحلة البيعة الخاصة، وهي التي بايع له فيها صفوة المهاجرين والأنصار أو ما عرف بعد ذلك بأهل الحل والعقد، ثم مرحلة البيعة العامة، وهي التي بايع له فيها أهل المدينة كافة. وهذا النظام يضمن عدم استبداد الصفوة أو العامة في اختيار رئيس الدولة كما أنه يجعل كلا منهما رقيبًا على الآخر ومحاسبًا له إذا أساء الاختيار، فاختيار الصفوة للخليفة لا يتم ولا يكون نافذ المفعول إلا بإقرار جماهير الناس وهذه الجماهير لا يمكنها أن ترشح شخص الخليفة إلا من خلال الصفوة.

حركات التمرد ضد أبي بكر الصديق(ﷺ):

أخبرنا غير واحد من المؤرخين القدامى، ومن تابعهم من المؤرخين المحدثين والمستشرقين أن العرب ارتدوا عن الإسلام عقب وفاة النبي(ﷺ) وأن بعضهم ارتد حتى قبل أن يموت النبي(ﷺ)، وأنه بمجرد أن تولى أبو بكر(ﷺ) الخلافة، ارتد العرب عن الإسلام، ولم يثبت عليه إلا أهل مكة والمدينة والطائف، بل إن أهل مكة كادوا أن يرتدوا هم الآخرون لولا التلويح لهم بأن الأمر قد استقر لقريش في المدينة، وأنهم أصبحوا أصحاب الشأن في البلاد فاطمأنوا وثبتوا على الإسلام.

والحقيقة إن إطلاق الكلام على هذا النحو من التعميم خاطئ وبعيد عن الصواب فلم يرتد العرب –هكذا بإطلاق الكلام– عن الإسلام، وإنما ارتد –إذا ما أقررنا بالردة وهو غير صحيح كما سنرى– عدد محدود، وأظهر العصيان الذين تابعوا المتنبئين، والمتمردين على سلطان الخلافة الناشئة، ولم يكن معظم المتنبئين أنفسهم مرتدين، لأنهم لم يكونوا قد أسلموا أصلًا حتى يرتدوا كما أن عدد التابعين لهم من القبائل لا يقاس بعدد القبائل الأخرى التي ظلت ولائها لأبي بكر(ﷺ) بل إن القبائل التي قيل إنها ارتدت، لم يرتد منهم إلا عدد محدود، وجملة المرتدين أو المتمردين بمعنى أصح كان أقل بكثير من عدد العرب الموالين للخلافة فقد كان أكبر جمع للمتمردين في اليمامة، وكان هذا الجمع لايزيد عن عشرة آلاف في حين أن عدد المسلمين من الصحابة فقط كان لا يقل عن مائة وأربعة عشر ألف صحابي وهو عدد لا يشمل إلا أهل المدينة وأهل مكة، هذا غير الأعراب الذين قابلوا النبي ، وغير الذين شهدوا معه حجة الوداع وكان هؤلاء يقدرون بأربعين ألفاً.

وإن دل هذا علي شئ فإنما يدل علي مدي الخطأ في القول بردة العرب عن الإسلام هكذا بإطلاق الكلام وتعميمه ، وربما يرجع السبب في هذا التعميم إلي أن هؤلاء المرتدين – كما قيل – كانوا منتشرين في أكثر من ناحية في شبه جزيرة العرب ، مما أوحي إلي بعض الكتاب والمؤرخين بأن جميع أهل هذه النواحي قد ارتدوا ، وهذا ليس بصحيح . كما أن مفهوم الناس للردة في ذلك الوقت أدي إلي هذا التعميم أيضاً . ذلك أنهم كانوا يرمون بالردة عن الإسلام كل من امتنع عن البيعة لأبي بكر(ﷺ) بالخلافة، وعلى كل من خالفه، أو امتنع عن إعطائه صدقة ماله –أي زكاة ماله– وكل من امتنع عن الجهاد كان يعتبر أيضا مرتدًا، ولابد أن يكون عدد المرتدين كبيرًا إذا ما أطلق لفظ الردة على كل هؤلاء.

ولكن هل كان هؤلاء الناس مرتدين فعلًا ردة تخرج الإنسان عن الملة بما يترتب على ذلك من مفارقة الزوجة المسلمة لزوجها المرتد؟ وخروج أولاده عن ولايته؟ وانعدام التوريث عند الوفاة؟ ودفنه في مقابر غير المسلمين؟

الحقيقة أن ما فعله هؤلاء الذين تمردوا على خلافة أبي بكر(ﷺ) أو لم يعترفوا بهذه الخلافة أو امتنعوا عن دفع الزكاة لعمال الصدقات لا يحمل معنى الردة المخرجة عن الملة لأنهم لم يبدلوا دينهم ولم يعودوا إلى الوثنية، ولكن ما قاموا به يعد من قبيل ارتكاب المعاصي والمخالفات التي أخذت اسم الردة أو الكفر مجازًا لحكمة لا تخفى على أهل الفقه واللغة والمتخصصين، وهي الزجر وبيان عظيم أمر هذه المعصية. زد على ذلك أن الناس كانوا يعيشون عصر النبوة والخلافة الراشدة وكان أي خروج على طاعة خليفة رسول الله أو امتناع عن دفع الزكاة له، يعد عملًا مزلزلًا للكيان السياسي الناشئ.

والحقيقة أن القوم أرادوا أن يحتفظوا بصدقات أموالهم لتوزيعها بين فقرائهم هم أنفسهم مستدلين على ذلك بأن بعض عمال الرسول(ﷺ) كانوا يأخذون الصدقات، ويردونها على فقراء النواحي التي كانوا يجمعونها منها، كما كان يفعل عمرو بن العاص(ﷺ) في عمان، ومعاذ بن جبل(ﷺ) في اليمن، كما أن الناس لم ينكروا الزكاة كفريضة ولكنهم فقط أرادوا توزيعها على فقرائهم ولكن أبا بكر(ﷺ) اجتهد واعتبرها ردة حتى يحمي الدولة من التفكك والتشرذم خاصة بعد أن رفضت بعض النواحي والأقاليم الإعتراف بخلافته.

إذن ما أتى به هؤلاء القوم ممن وصفوا بالمرتدين ليس ردة عن الإسلام، ولكنه ردة عن الدولة، أقصد أنه كان تمردًا سياسيًا وعسكريًا على حكومة أبي بكر الصديق(ﷺ) في المدينة، صحيح أن القلة القليلة ممن وافقوا المتنبئين وساروا في ركابهم يعدون مرتدين ولاخلاف في هذا، ولكن هؤلاء كما قلنا قليل عددهم بالنسبة لأعداد المتمردين من مانعي الزكاة ومن غير المعترفين لأبي بكر(ﷺ) بالخلافة، ومن الخارجين على طاعته. فالأغلبية أتت ما يمثل تمردًا بالمعنى الصحيح لهذا اللفظ وقد أشار إلى ذلك بعض المؤرخين القدامى الذين وصفوهم بأنهم منتقضون أو متمردون، أما الذين وصفهم بالردة: فقد كانوا بعض الأعراب، وقد أشير إليهم في أحيان كثيرة أنهم كافرون ومشركون، على اعتبار أن فيهم من كان على دين الشرك والكفر أصلًا ولم يسلم بعد، لذا فإن من يُشار إليهم من المسلمين وأطلق عليهم لفظ الردة والكفر، فقد عرفنا معنى الردة المقصودة التي أطلقت عليهم، وهي ردة لا تعني إلا العصيان والتمرد على الخليفة.

وقد وجد هذا التمرد صداه بين بعض عشائر الأعراب، خاصة في البوادي وفي أطراف الأقاليم البعيدة عن المدينة، ظنًا منهم أن هذا البعد ربما يحميهم أو يعطيهم الأمل في الاستقلال

بأنفسهم وبلادهم عن سلطان المدينة، وحتى هذه العشائر والقبائل التي تمردت لم يكن هناك إجماع في داخلها أو في داخل الإقليم الواحد على هذا التمرد، فقد كان بعض أفراد القبيلة الواحدة يقف مع أبي بكر (ﷺ)، وبعضهم يقف مع شيخ القبيلة، أو زعيم الإقليم، أو مدعي النبوة.

أسباب تمرد بعض قبائل العرب على حكومة أبي بكر (ﷺ):

١- استمرار التأثر بأخلاق الجاهلية ومثلها عند بعض قبائل العرب فقد كان بعض العرب لا يزالون يصدقون الكهانة والسحر والشعوذة والأكاذيب وهو مما جعل بعضهم يقع في براثن هؤلاء المتنبئين من أمثال طليحة بن خويلد الأسدي، ومسيلمة بن حبيب الحنفي، وسجاح بنت الحارث التميمية، والأسود العنسي، كما أن طاعتهم الشديدة لمشايخ القبائل وهو طبع فطروا عليه منذ آماد بعيدة، جعل بعضهم ينقادون لهؤلاء المشايخ في تمردهم على أبي بكر(ﷺ)، وقد سهل عليهم ذلك أن المثل الأعلى في الإسلام يتناقض تمامًا عنه في الجاهلية، فالطاعة والخضوع في الإسلام لا تكون إلا لله(ﷻ) وليس لشيخ القبيلة والتعصب للقبيلة لا يعترف به الإسلام فالمسلمون إخوة فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح، كما أن الثأر في الإسلام لا يؤخذ بالطريقة الهمجية التي كانت سائدة في الجاهلية فقد أتى الإسلام بالقصاص، وحدد الحدود ونظم الحياة والعلاقات بين الناس وكل هذه الأمور وغيرها كانت تتناقض تمامًا مع مُثُل الجاهلية التي كانت لا تزال تعيش في عقول وقلوب البعض من العرب.

٢- نظرة بعض القبائل للإسلام: كان كثير من القبائل ترى أن الإسلام لم يأت ليقيم دولة وإنما جاء كدين فقط، فقد كانت الجزيرة العربية تموج قبل ظهور الإسلام بالأديان المختلفة: وثنية، ومجوسية، وكتابية، ولم يحاول أصحاب أي دين من هذه الأديان إقامة دولة تفرض سلطانها على الناس؛ ولذلك ليست هناك حاجة –في نظرهم– للخضوع لسلطان أبي بكر(ﷺ)، فقد كان خضوعهم للنبي(ﷺ) وطاعتهم له وحده الذي أعطوه بيعتهم، وهي بيعة لا تربط صاحبها إلا بشخص من أعطيت له وهو النبي(ﷺ)، أما وقد توفي النبي(ﷺ) فلا حاجة لهم في طاعة إنسان لم يستخلفه النبي(ﷺ) ولم يعهد إليه قبل وفاته.

٣- نظرة بعض القبائل لقريش كقبيلة: كبر على بعض القبائل العربية بعد تولية أبي بكر(ﷺ) للخلافة، أن تكون خاضعة لسلطان قبيلة أخرى وهي قريش فذلك يسلبها وجاهتها وحريتها فكان التمرد لاسترداد هذه الحرية، وكان العرب قريبي عهد بالجاهلية، ومن شأن هذه الجاهلية ألا تخضع قبيلة لأخرى إلا نتيجة لقهر عسكري، وقد ظهرت

هذه الروح تمامًا عند بني حنيفة باليمامة، فقد قال لهم زعيمهم مسيلمة بن حبيب الكذاب: "أريد أن تخبروني بماذا صارت قريش أحق بالنبوة والإمامة منكم؟ والله ما هم بأكثر منكم ولا أنجد، وإن بلادكم لأوسع من بلادهم وأموالكم أكثر من أموالهم".

٤- نظرة بعض القبائل للنبي(ﷺ) ولأبي بكر(رضي الله عنه) من بعده كشيخ لقبيلة : كانت بعض القبائل ترى في النبي(ﷺ) وفي أبي بكر(رضي الله عنه) من بعده شيخًا لقبيلة لا قائدًا سياسيًا يتعين على الجميع الخضوع له في نظام يحدد حقوق وواجبات الطرفين: الحاكم والمحكوم، على أساس من الشريعة الإسلامية، وكانت هذه القبائل ترى أيضا أنه على شيخ كل منها أن يقوم بدوره مماثل لدور النبي(ﷺ) أو لدور خليفته حتى يعفيها من هذا الخضوع وتلك التبعية فكان تنبؤ بعض مشايخ القبائل سدًا لحاجة أحست بها قبائلهم التي أعلنت التمرد والعصيان، ومحققًا لأطماع شخصية لهؤلاء المشايخ أنفسهم، فقد لفت نظرهم ذلك النجاح الرائع الذي حققه النبي(ﷺ) في قيام دولة ضمت عرب الجزيرة كلهم وأرادوا أن يتشبهوا به حتى يحققوا مثل هذا النجاح على الأقل في نواحيهم وبلادهم ولذلك أدْعَى بعضهم النبوة أو أدعَى مشاركة النبي(ﷺ) في نبوته، وهم أنفسهم يعلمون أنهم كاذبون، ولما تولى أبو بكر الخلافة رفضوا الدخول في طاعته وقال قائلهم:

أطعنا رسول الله ما كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر

أيورثها بكرًا إذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

وقال بعض عرب كندة وحضرموت صراحة إن "العرب لا تقر بني تيم بن مرة –التي ينتمي إليها أبو بكر الصديق– وتدع سادات البطحاء من بني هاشم إلى غيره.

٥- نظرة بعض القبائل للزكاة وموقفهم من دفعها للصديق: كانت مطالبة القبائل العربية بدفع أموال الصدقات (الزكاة) إلى عمال الصدقات لحملها إلى المدينة، أمرًا لم يألفه العرب من قبل، فرأوا في المطالبة بدفعها ما جعلها وكأنها إتاوة مفروضة عليهم، وكانوا يدفعونها للنبي(ﷺ) وحده، وبعد وفاته رأوا أنه لا مبرر لدفعها لغيره. كما يجب أن نعرف أن هناك فرق بين إخراج الزكاة وبين دفع الزكاة إلى عمال الصدقات لإرسالها إلى المدينة، فهؤلاء المتمردون لم يمانعوا في إخراج الزكاة لمن يستحقها كأحد أركان الإسلام، وإنما مانعوا في دفعها لمندوبي أبي بكر(رضي الله عنه)، أي لعمال الصدقات ورأوا أن تعطى لفقرائهم وذوي الحاجة والمستحقين من أهل البلد نفسه كما سبقت الإشارة، وكان توزيع أموال الزكاة على هذا النحو موجودًا في أيام النبي(ﷺ) نفسه، فالنبي(ﷺ) كان

يبعث على الزكاة السعاة، فيأخذونها من أصحابها ويدفعونها إلى مستحقيها الذين سماهم الله(ﷻ) في القرآن ويرجع الساعي إلى المدينة وليس معه إلا السوط، لا يأتي النبي(ﷺ) بشيء إذا وجد لها -أي لأموال الزكاة- موضعًا يضعها فيه، وهذا هو الأصل الشرعي في إخراج الزكاة إلا إذا رأى الحاكم تحصيلها وتوزيعها بمعرفته.

وأيًا كان الأمر فقد رأى بعض العرب أن في دفع الزكاة لقريش مذلة لهم وحطًا من شأنهم وكبريائهم، ولذلك ليس بغريب أن يطلب بعض الصحابة من أبي بكر(ﷺ) الموافقة على إعفاء القوم من دفع صدقة أموالهم في ذلك العام وهو عام ١١هـ/٦٣٢م لأن الناس حديثو عهد بالإسلام ولم يدخل الإيمان قلوبهم بعد، ولكن أبا بكر(ﷺ) رفض هذا القول بكل شدة.

٦- العصبية القبلية وتأثيرها: لم يحدث أن قبيلة ارتدت عن الإسلام وعادت إلى ديانتها القديمة ولكنها تمردت على أبي بكر(ﷺ) متبعة في ذلك شيخها بدافع العصبية القبلية، وكانت العصبية القبلية هي الدافع وراء تمرد معظم القبائل ضد أبي بكر(ﷺ) فقد رأت هذه القبائل المتمردة أنها لا تقل عن قريش مكانة ولا منزلة إن لم تفقها في العدد والعدة ومظاهر القوة المادية وعليها أن تؤازر شيخها أو زعيمها في طلب الملك والسيادة والسلطان، وتظهر هذه العصبية القبلية واضحة جلية في أقوال بعضهم، وفي تصرفاتهم، وفي تكوينهم الأحلاف ضد أبي بكر(ﷺ) وفي قتالهم لعماله، بل وفي إدعاء بعضهم للنبوة. فعلى سبيل المثال يقول رجل من بني حنيفة لمسيلمة الحنفي الذي أدعى النبوة: "أشهد أنك كذاب، وأن محمدًا صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر". ويقول زعيم غطفان لطليحة بن خويلد الأسدي بعد أن انضم إليه مجددًا حلفًا قديمًا كان يجمع بين أسد وغطفان في الجاهلية: "والله لأن نتبع نبيًا من الحليفين، أحب إلينا من أن نتبع نبيًا من قريش، وقد مات محمد وبقى طليحة".

٧- الرغبة في الملك والسلطان والسيادة والشرف: ذلك أن بعض ملوك العرب وزعمائهم ومشايخهم أرادوا أن يكون لهم سلطان وشرف كبير مثلما صار لأبي بكر(ﷺ) وصرحوا بذلك في وضوح تام. فهذا طليحة بن خويلد الأسدي يقول لأتباعه: ليبلغن مُلْكَنا العراق والشام. وهذا عامر بن الطفيل زعيم بني عامر يطلب من النبي(ﷺ) أن يكون له أهل الوبر، أي بلاد نجد، وأن يكون للنبي(ﷺ) أهل المدر أو السهل أي بلاد الحجاز. وهذا مسيلمة الكذاب زعيم حنيفة باليمامة يرسل إلى النبي(ﷺ) كتابًا يقول فيه: إنه أُشْرِك في الأمر معه أي في نبوته، وأن له نصف الأرض ولقريش نصفها. وهذا الأشعث بن قيس

الكندي يرى أن يستعيد ملكه القديم، ويشير إلى أن قومه من بني كندة ملوك من قبل أن يكون على وجه الأرض قريش ولا أبطحي.

٨- النوازع الشخصية عند بعض مشايخ القبائل: كان بعض المتمردين يتحركون بمقتضى نوازع شخصية، فبعضهم بعد إسلامه لم يصب إمارة أو ولاية مثل غيره، وبعضهم أصبح مسودًا بعد أن كان سيدًا على قومه، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي مثال يمكن أن نضربه على ذلك فقد وفد هذا الشيخ إلى النبي(ﷺ) وأسلم وعاد دون أن يعينه النبي(ﷺ) واليًا أو أميرًا على قومه أو إقليمه زبيد، وكان النبي(ﷺ) قد عين فروة بن مسيك المرادي على مراد وزبيد ومذحج كلها، فلما ظهرت حركة الأسود العنسي تمرد عمرو على فروة، وانضم للأسود الذي عزل فروة عن عمله وولايته، وأعطاها لعمرو. وغير عمرو هذا كان هناك بعض المشايخ الآخرين الذين كان لهم الموقف نفسه.

٩- الرغبة في التخلص من الأبناء باليمن: كان من أسباب التمرد الذي حدث في اليمن أيضا رغبة بعض القبائل في التخلص من الغرباء الذين كانوا يعرفون باسم (الأبناء)، وهم أبناء الفرس الذين كانوا يحكمون اليمن قبيل ظهور الإسلام، وأسلموا وأقرهم النبي(ﷺ) على حكم صنعاء، وبذلك صارت لهم السيادة على صنعاء قبل الإسلام وبعده. واتخذ التخلص منهم طابعًا عنصريًا يتضح من الصدام الذي حدث بينهم وبين الأسود العنسي الذي قتل رأسهم شهر بن باذان عامل الرسول على صنعاء وبعد مقتل الأسود تولى فيروز الفارسي أمر صنعاء بأمر من أبي بكر، فثارت الأحقاد في نفس قيس بن عبد يغوث الذي كان قائد جند الأسود، وساعد فيروزًا والأبناء في التخلص منه، وأثار قيس النعرة العنصرية ضد الأبناء ونجح في طردهم من صنعاء وفر كثير منهم إلى الجنوب.

١٠- تحريض الفرس لبكر بن وائل في البحرين: من العوامل التي ساعدت على ظهور التمرد في الجزء الشرقي من بلاد العرب أطماع الفرس في استعادة نفوذهم وسيطرتهم على هذه الأنحاء وخاصة في بلاد البحرين وعُمان، فأثاروا بعض القبائل ضد القبائل الموالية لأبي بكر(ﷺ)، فأثاروا بكر بن وائل ضد عبد القيس وكلاهما من ربيعة، وكان الحكم في البحرين لعبد القيس قبل الإسلام وبعده، وكانت بكر بن وائل تنافسهم وتحقد عليهم هذه الرياسة، فاستغل الفرس هذه المنافسة، وأعانوا بكر بن وائل وأرسلوا ستة آلاف من جندهم مع المنذر بن النعمان بن المنذر الذي اتفق الفرس وبكر بن

وائل على تعينه ملكًا على البحرين، وتمكنوا فعلًا من تحقيق أهدافهم، وظل الأمر على هذا النحو حتى وصل جيش الخلافة وأعاد الأمر إلى نصابه.

هذه هي أسباب التمرد والعصيان الذي ثار في بعض أنحاء الجزيرة العربية، وعند بعض قبائلها قبيل وفاة الرسول(ﷺ) وغداة مبايعة أبي بكر(رضي الله عنه) بالخلافة، ذلك التمرد الذي لم يكن في مجمله ردة عن الإسلام بقدر ما كان ردة عن السلطان السياسي لدولة الإسلام، كان تمردًا سياسيًا اتخذ مظاهر عديدة وأشكال متباينة منها:

- التنبؤ: فقد تنبأ طليحة بن خويلد الأسدي في بني أسد بنجد، وتنبأ مسيلمة بن حبيب الحنفي الكذاب في بني حنيفة باليمامة، وتنبأ الأسود العنسي في عنس ومذحج في بلاد اليمن، وتنبأت سجاح بنت الحارث التميمية في بني تميم بنجد.

- طرد عمال الخليفة وعزلهم عن أعمالهم مثلما حدث في بعض أنحاء اليمن وحضرموت وكندة.

- عدم دفع أموال الزكاة لعمال الصدقات مثلما حدث في كل الإقاليم التي أعلنت التمرد والعصيان.

- التمرد المسلح والتهديد بالزحف على المدينة وغزوها، كما حدث من عبس وذبيان ومن بقية حلفائها من بني أسد وغطفان وفزارة وطيئ، وكما حدث من سجاح التميمية المتنبئة التي كانت قد وفدت من الجزيرة بالعراق قاصدة غزو أبي بكر(رضي الله عنه).

- تجييش الجيوش والإستيلاء على المدن والسيطرة عليها كما حدث في بعض نواحي البحرين وبعض نواحي عُمان.

- عدم الاعتراف بأبي بكر(رضي الله عنه) خليفة وعدم البيعة له، كما حدث من جميع المتمردين الذين أرادوا أن يكون لهم سلطان في بلادهم بعيدًا عن الخلافة وعن قريش.

- تجديد الأحلاف القديمة لمواجهة أبي بكر(رضي الله عنه) كما حدث من المتمردين في نجد حيث تجدد الحلف القديم الذي كان يجمع أسدًا وغطفان وطيئ في الجاهلية.

- الإستعانة بالأجانب كما حدث في البحرين حيث استعانت بكر بن وائل بالفرس في صراعهم ضد عبد القيس وضد جيوش الخلافة.

وهذه المظاهر تبدو واضحة جلية إذا ما تناولنا هذا التمرد في مناطق بلاد العرب المختلفة ووضحنا موقف أبي بكر(ﷺ) منه (ولقد رأيت أن يكون هذا الجزء الخاص بحروب الردة موضع بحث علمي يقوم به طلابي مع الوضع في الاعتبار أنه جزء من المنهج) .

القضية الثانية: إنفاذ أبي بكر جيش أسامة:

بين هذه الفتنة الحالكة، وفي معترك هذه الحوادث والأنباء بارتداد العرب يتلو بعضها بعضًا قام أبو بكر(ﷺ) بإنفاذ جيش أسامة. ذلك أن رسول الله(ﷺ) كان قد جهز جيشًا لمعاقبة قبائل قضاعة الضاربين في جهات الشام مما يلي مؤتة لمظاهرتهم الروم على جيش المسلمين في غزوة مؤتة، وقد كان أمير الجيش زيد بن حارثة، وقد استشهد في تلك الغزوة، فجهز جيشًا آخر لغزوهم، وقد جعل رسول الله(ﷺ) أمير هذا الجيش أسامة بن زيد وكان عمره ١٨عامًا، وكان تحت لوائه عدد من كبار الصحابة منهم: أبو بكر وعمر، وقد حث رسول الله(ﷺ) على خروج جيش أسامة ولم يقبل فيه مقالة من أراد أن يستبدل به من هو أسن منه، وقد توفي رسول الله(ﷺ) قبل أن يزايل الجيش المدينة فبقي بظاهرها.

خشي المسلمون أن يطمع العرب وأهل النفاق في مسلمي المدينة إذا فضل جيش أسامة وبقي المسلمون بدون حامية قوية ترد عادية الطامعين، فكلموا أبا بكر(ﷺ) في استبقاء جيش أسامة ليكون للمسلمين ردءًا، وقالوا: إن هؤلاء جند المسلمين والعرب قد انتقضت بك، فلا ينبغي أن تفرق جماعة المسلمين عنك. فقال: والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تتخطفني لأنفذت جيش أسامة كما أمر رسول الله(ﷺ).

وأرسل أسامة عمر بن الخطاب(ﷺ) يعرض على أبي بكر(ﷺ) تخلف الجيش عن وجهه، كما عهد بعض المسلمين إلى عمر(ﷺ) أن يخاطب أبا بكر(ﷺ) في أن يولي أمر الجيش من هو أسن من أسامة. فلما أفضي عمر(ﷺ) إلى الخليفة بما حمل من رسالة زيد وجنده أبى إلا المضاء فيما أمر به رسول الله(ﷺ) واشتد علي عمر(ﷺ) حتي أخذ بلحيته وقال له: عدمتك أمك وثكلتك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله(ﷺ) وتأمرني أن أنزعه!

تصور أبو بكر(ﷺ) ما خامر قلوب رجال الجيش وما هو لاصق بنفوسهم من لوثة الجاهلية والأنفة من تأمير من لم تقدمه السن، والاستمساك بعرى التفاضل بالأنساب، والأمور التي وضعها الإسلام. فرأى أن لا يجيبهم إلى طلبهم، وأن يمحو من نفوسهم كل أثر من آثار الكبرياء والتفاضل إلا بالتقوى وصالح العمل، وأن ينوه بقدر زيد حتى يكون للقوم بخليفتهم أسوة

حسنة، ولو أنه أطاع القوم لسن للناس مخالفة أمر رسول الله(ﷺ) ولأطمعهم في أن يطلبوا ما ليس لهم بحق وفي ذلك من المضرة ما لا يُجْهَل.

خرج أبو بكر(ﷺ) حتى وافى الجيش وشيعهم ماشيًا وأسامة راكب، واستأذنه في أن يسمح لعمر(ﷺ) بالبقاء معه بالمدينة ليستعين برأيه، فسمح له بذلك، وقال له أسامة: يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن؟ فقال: والله لا نزلت ولا أركب وما عليّ أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله ؟

كان في عمل أبي بكر(ﷺ) ما حدا القوم على الرضا بإمرة أسامة، إذ رأوه ماشيًا في ركابه غير مفتات عليه في استبقاء عمر دون إذنه، فكان عمله خير هاد لهم.

ومن جهة أخرى رأى أبو بكر(ﷺ) أن التوقف عن إنفاذ الجيش إلى الوجه الذي أعد له يشعر قلوب العرب ضعف المسلمين عن حماية أنفسهم، فيطمع الذي في قلبه مرض، وإن إنفاذه إمضاء لأمر رسول الله(ﷺ)، وتصوير المسلمين في النفوس بصورة القوي الجرئ الذي لم يختلج قلبه خوف ولم يستشعر الوجل.

زود أبو بكر(ﷺ) جيش أسامة نصيحة هذا نصها: "لا تخونوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلًا ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة ولا تعقروا نخلًا، ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا للأكل. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقًا، ثم قال: اندفعوا باسم الله".

سار أسامة وشن الغارة على بلاد قضاعة وأحلافهم وغنم منهم واستمر في بعثة أربعين يومًا ثم عاد، وكان إنفاذ جيش أسامة نهاية الحزم، فقذفت في أعضاد المرتدين حين تسامعوا به، وقالوا: لو لم يكن للقوم قوة لم يقذفوا بجيوشهم يرمون بها من بعد عنهم من القبائل ذات الشوكة، غير أن ذلك لم يثن كثيرًا من المرتدين عن الإنحدار في مهواة الردة التي زلت فيها أقدامهم.

خلافة عمر بن الخطاب(ﷺ)

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر.

تولى الخلافة: من عام ١٣هـ إلى ٢٣هـ

مدة خلافته: عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام

لما اشتد على أبي بكر(ﷺ) مرضه، وأحس بدنو أجله، خاف على المسلمين أن ينتشر أمرهم وتنحل عقدة اجتماعهم بتنازعهم سبل الخلافة، وقد رأى الناس يوم وفاة رسول الله(ﷺ) قد انقسموا فئتين كل منهما يجذب الخلافة إلى حيزه –فكان ذلك حاديًا له على النظر للمسلمين والاحتياط لاجتماع كلمتهم، ولم يشغله ما هو فيه عن النظر في مصلحتهم من بعده، وجمع كلمتهم ولو أن أبا بكر(ﷺ) ترك مركز الخلافة شاغرًا لكان للتصاول عليها مجال، ولشغل المسلمون عن أعدائهم بأنفسهم، وكان وجه التاريخ تغير عما هو عليه اليوم، ولكانت فتنة القوم بالخلافة أنكي وأشد من فتنة الردة، ولعادت فتنة الردة جذعة واتسع الفتق على الرائق.

أدار أبو بكر(ﷺ) عينه في أصحابه يتخير منهم لهذا المنصب رجلًا يكون شديدًا في غير عنف لينًا في غير ضعف، فوجد كثيرًا من أصحاب رسول الله(ﷺ) على ما يجب، غير أن عمر(ﷺ) كان أفضلهم في نفسه وأقربهم إلى الصفة التي يجب أن يكون عليها خليفة المسلمين، وكذلك كان عمر(ﷺ) في نفوس من استشارهم أبوبكر(ﷺ) في أمر الخلافة ومن يليها.

<u>القضية الثالثة:</u> تدوين الدواوين وفرض العطاء

من البديهي أن حاجات الدولة تترقى بترقي العمران وامتداد السلطان. وقد كانت دولة الإسلام في خلافه أبي بكر(ﷺ) وصدرًا من خلافة عمر(ﷺ) في مبادئ الظهور وسذاجة البيئة وعدم اتساع السلطان، ولم يكن لها من الدخل إلا الصدقة التي كانت تؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء، وأما الغنائم والفئ فكانت قليلة، لم تحوج أخماسها التي يبعث بها للمدينة إلى صرف العناية، وترتيب الشؤون الإدارية على أصول الدول المترقية يومئذ كفارس والروم، وإنما كانت العناية منصرفة إلى الشؤون الحرية والفنون العسكرية.

ولما توسع المسلمون بالفتح، وانتشروا في الممالك، وكثرت موارد الدولة، وتبسطت في مناحي العمران، وأخذ يزداد الفيء من الخراج، والجزية، زيادة لا طاقة للخليفة، وأمرائه بضبطها، ولا قِبَل لهم بإحصاء مستحقيها، وتوزيع الأعطيات على أربابها بالعدل إلا بضبطها، وترتيبها على أصول ثابتة، وقيدها في قيود خاصة، دعا عمر(ﷺ) الصحابة واستشارهم في كيفية تدوين الديوان فقال علي بن أبي طالب(ﷺ): تقسم كل سنة ما اجتمع من مال، ولا تمسك منه شيئًا وقال عثمان(ﷺ): أرى مالًا كثيرًا يسع الناس، وإن لم يحصوه حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر، وقال له الوليد بن هشام بن المغيرة: قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانًا، وجندوا جندًا، فدون ديوانًا، وجند جندًا، فأخذ بقوله فدعا عدد من نبهاء قريش فأمرهم بتدوين الديوان ففعلوا، والديوان هو: الدفتر أو مجتمع الصحف، والكتاب يكتب فيه أهل الجيش،

وأهل العطية كما في القاموس، وتوسعوا بمسماه، فأطلقوا على كل دفاتر الحكومة الإدارية وغيرها، ثم على المكان الذي يكون فيه الديوان ديوانًا.

ولما كتبت الدواوين كتب ديوان الشام بالرومية، وديوان العراق بالفارسية، واستمر إلى عهد عبد الملك بن مروان بالشام، والحجاج بن يوسف عامله على العراق، ونقل عبد الملك في الشام الديوان إلى العربية، ونقله الحجاج في العراق إلى العربية.

القضية الرابعة: مقتل عمر (﵁):

بينما المسلمون مغتبطون بما يفتح عليهم من الأمصار، والمدن والممالك شرقي بلاد العرب وغربيها وشماليها، إذ فوجئوا بأمير المؤمنين مضرجًا بدمه في محرابه؛ فتبدل صفوهم كدرًا وسرورهم حزنًا على هذا الخليفة الراشد العادل التقي.

إن رضى الخلائق غاية لا تدرك: فعمر (﵁) وإن كان أرضى بعدله الخالق سبحانه وتعالي، وشمل عدله من قرب منه، ومن نأى عنه من رعيته، ولكن قلوبًا من غير أهل الإسلام كانت مشتملة على مطوية حقد له، مفعمة بالسخط منه.

كان بالمدينة ملك من ملوك الفرس قد أضاع ملكه وتاجه، وعرف المسلمون فيه نكث العهود، والحنث بالمواثيق والأيمان قد جمع إلى ذلك الدهاء، وقد أقام بالمدينة واحدًا من الجمهور لا ميزة له على أحد من الناس، بعد ذلك العز الباذخ والسلطان العظيم، وهو يسمع بالفتح في بلاده الفارسية يعقبه الفتح والنصر يحوزه المسلمون تتبعه الغنائم يحوونها يمنة ويسرة فيودع ذلك قلبه حسرة، وقد كان كثير من الموالي يختلفون إلى ذلك الملك الذي كان فيهم وهو الهرمزان، وقد كان من سبايا فارس رجل يقال له: أبو لؤلؤة عبد المغيرة بن شعبة، وكان حاقدًا على المسلمين صُنْعهم ببلاده، ويتمنى لو جعلهم الله(ﷻ) في نفس واحدة ليتشفى منهم بالقتل دفعة واحدة.

وبينما عمر(﵁) يطوف يومًا في السوق إذْ جاءه فيروز الملقب بأبي لؤلؤة، وكان نصرانيًا، فقال: يا أمير المؤمنين أعدني على المغيرة بن شعبة فإن عليّ خراجًا كثيرًا قال: كم خراجك؟ قال: درهمان في كل يوم، قال: وايش صناعتك؟ قال: نجار، نقاش، حداد، قال: فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال، قد بلغني أنك تقول: لو أردت أن أعمل رحى تطحن بالريح فعلت، قال: نعم، قال: فاعمل لي رحى، قال: لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب، ثم انصرف عنه، فقال عمر(﵁): لقد توعدني العبد آنفًا، ثم انطلق عمر(﵁) إلى منزله، فلما كان من الغد، جاءه كعب الأحبار فقال: يا أمير المؤمنين أعهد فإنك

ميت في ثلاثة أيام؟ قال: وما يدريك؟ قال: أجده في كتاب الله التوراة. فقال عمر (ﷺ): الله إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟ قال: اللهم لا، ولكن أجد صفتك وحيلتك، وإنه قد فني أجلك. وعمر لا يحس وجعًا ولا ألمًا. فلما كان من الغد غدا عليه كعب فقال: يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان. ثم جاءه من غد الغد وقال: ذهب يومان وبقي يوم وليلة، وهي لك إلى صبيحتها، ذلك أن كعبًا رجل يهودي رأى الإسلام يعلو ويتزايد أمره، ولم يقف في سبيل نموه شيء ولا دين في بلاد العرب وخارجها. فأسلم لشيئين. أولهما: أنه رأى اليهودية تضؤل وتضمحل أمام الإسلام في بلاد العرب، والنصرانية ضاغطة عليها في سورية وبقية المملكة الرومانية. والتظاهر بالإسلام يكسبه عزًا لم يكن له في قومه.

ثانيهما: إن الرجل من اليهود أهل الكتاب الأول والعلم أيام جاهلية العرب. والتوراة بلسانه دون لسان العرب. وفي أسفارها من المعميات والألغاز ما لا يمكن أن يفقهه العرب، ولو لقنوا العبرية فهي إذن مجال فسيح للكذب يلقيه إلى المسلمين ليفسد عليهم أمرهم، ويعمي عليهم سبيل الهدي. فهو بذلك أراد أن يضرب عصفورين بحجر. وكذلك كان. فإن الرجل نال بين المسلمين مركزًا عظيمًا، وقد كان كثيرون يرون أن التوراة فيها علم كل شيء، وإنه صادق فيما يخبر به، خاصة بعد أن تحقق قوله في عمر (ﷺ). والرجل قد أفاض على المسلمين ثروة واسعة من الإسرائيليات، وكان هو لا يدرى من حقيقتها شيئًا سوى أنه مبتدعها. وكان يسند كلامه إلى التوراة، والتوراة خالية مما كان يموه به على الناس. وهذه التوراة بين أيدينا نقرؤها وليس فيها شيء مما كان يقوله هذا الرجل لمعاصريه وهو بالأساطير أشبه.

بعد أن تمهد هذا أقول: إن حكاية إخباره بمصرعه على هذا الوجه المروي لو كانت صحيحة، لم يبق عند الواقف عليها شك في أن هذا الرجل كان واقفًا على ما دبره فيروز أبو لؤلؤة من اغتيال عمر (ﷺ)، وأن خطة السير للوصول إلى قتله كان كعب الأحبار عارفًا بها، واقفًا عليها وقوفًا تامًا. وإنما أراد بإخبار عمر (ﷺ) على هذا الوجه، أن تزيد منزلته عند المسلمين وينال الحظوة فيهم، وتكون رواياته وحكاياته أكثر قبولًا. ولو وجد محقق ذكي وعرض عليه أمر كعب الأحبار وما أخبر به عمر (ﷺ) قبل القتل، ما نجا كعب من العقاب ولعد شريكًا للجاني.

كان بالمدينة رجل من نصارى الأنبار، أقدمه سعد بن أبي وقاص ليعلم أبناء المسلمين بالمدينة القراءة والكتابة، اسمه جفينة. وناحية الأنبار كانت تابعة للفرس، فكان يجتمع بالهرمزان، وفيروز أبي لؤلؤة، وقد روى أن عبد الرحمن بن أبي بكر مر بالهرمزان، وأبي لؤلؤة، وجفينة يتناجون وهم جلوس، فلما رأوا عبدالرحمن قاموا فزعًا، فسقط بينهم خنجر له رأسان نصبه في وسطه، وهو الخنجر الذى قتل به عمر (ﷺ) بعد ذلك.

من اجتماع هذه الأحوال والمناسبات أرى أنه لا يكون بعيدًا من الصواب من بعد قتل عمر(ﷺ) نتيجة لمؤامرة واتفاق جنائي غمس يده فيه كل من: الهرمزان، وفيروز أبي لؤلؤة عبد المغيرة بن شعبة، وجفينة الأنباري، كعب الأحبار اليهودي. ولو كان المسلمون في شريعتهم إيجاب العقوبة بالقرائن، ووجد من يحقق مع من بقي منهم بعد مقتل عمر(ﷺ)، لكان من المحتمل جدًا أن يعاقب كل منهم على ذلك الاتفاق الأثيم. لأنهم في ذلك الوقت يعدون من الرعية المسالمين لا الأعداء المحاربين، فليس لهم عذر ولا شبهة عذر في تدبير ذلك الجرم الفظيع.

كيف قتل عمر؟ لما كان الصبح خرج عمر(ﷺ) إلى الصلاة وكان يوكل بالصفوف رجالًا، فإذا استوت جاء فكبر، ودخل أبو لؤلؤة في الناس في يده خنجر له رأسان نصابه في وسطه، فضرب عمر(ﷺ) طعنتين بالخنجر المسموم. فلما وجد عمر(ﷺ) حر السلاح سقط وقال: أفي الناس عبد الرحمن بن عوف؟ قالوا: نعم هو ذا. قال: تقدم فصل، فصلى عبد الرحمن بن عوف وعمر(ﷺ) طريح. ثم احتمل فأدخل داره فدعا عبد الرحمن بن عوف.

ثم نادى عمر(ﷺ) ابنه عبد الله، وقال: أخرج فانظر من قتلني، فقال: يا أمير المؤمنين قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة. فحمد الله تعالى أن لم يقتله رجل سجد لله تعالى سجدة، ثم قال: يا عبد الله ائذن للناس فجعل يدخل عليه المهاجرون والأنصار فيسلمون عليه، فيقول: عن ملأ منكم كان هذا؟ فيقولون معاذ الله.

وقيل إن كعب الأحبار دخل عليه فقال: "الحق من ربك فلا تكونن من الممترين". قد أنبأتك أنك شهيد، فقلت: من أين لي الشهادة وأنا في جزيرة العرب؟ ثم دعى له الطبيب فقال: أي الشراب أحب إليه؟ فجيء له بنقيع التمر فسقاه فخرج على حاله من الجرح، ثم سقاه اثنين فخرج على حاله، فأيقن أنه ميت ولم يجد للقضاء حيلة. وقد توفي عمر(ﷺ) ليلة الأربعاء، لثلاث ليال بقين من ذي الحجة ٢٣هـ، ودفن بكرة يوم الأربعاء في حجرة عائشة مع صاحبيه، بعد أن استأذن عائشة في ذلك عقيب أن طعن، وكانت مدة خلافته عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام. من ابتداء ٢٢ جمادي الثانية ١٣هـ، إلى ٢٦ ذي الحجة ٢٣هـ، وكان عمره حين قتل ٦٣عام كصاحبيه في أشهر الأقوال.

أما أبو لؤلؤة فقد جهد الناس أن يقبضوا عليه، فأصاب منهم ثلاثة عشر رجلًا بجراحات، وأعياهم أمره فجاء رجل من بني تيم وألقى عليه رداء، فلما علم أنه مأخوذ قتل نفسه.

خلافة عثمان بن عفان(ﷺ)

هو: عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، يلتقي مع الرسولﷺ في عبد مناف.

لقب: بذي النورين لأنه تزوج بنت النبي ﷺ رقية، فلما توفيت تزوج أختها أم كلثوم.

تولى الخلافة من ٢٣هـ إلى ٣٥هـ

<u>القضية الخامسة:</u> كيفية تولي عثمان بن عفان(ﷺ) الخلافة:

قصة الشوري: لما طعن عمر(ﷺ)، جعل الخلافة في ستة نفر: عثمان بن عفان، على بن أبي طالب، طلحة بن عبيد الله، الزبير بن العوام، عبدالرحمن بن عوف، سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم.

وقصة الشوري رواها الإمام البخاري في صحيحه حتى نعلم أن التاريخ لا يضيع، فهذا الإمام البخاري روى لنا أعظم قضيتين كثر حولهما الجدل. ولقد ذكر البخاري قصة طويلة في مقتل عمر(ﷺ) حتى وصل إلى أنه قيل لعمر(ﷺ): أوص يا أمير المؤمنين، استخلف. قال: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر، أو الرهط الذين توفي رسول الله(ﷺ) وهو عنهم راض، فسمى: عليا، وعثمان، والزبير، وطلحة، وسعدا، وعبد الرحمن بن عوف. وقال: يشهدكم عبد الله ابن عمر وليس له من الأمر شيء، فإن أصابت الإمرة سعدا فهو ذاك، وإلا فليستعن به أيكم ما أمر، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة.

فلما فرغ من دفنه اجتمعوا رضي الله عنهم، فقال عبد الرحمن(ﷺ): "اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم. فقال الزبير: جعلت أمرى إلى على، وقال طلحة: جعلت أمري إلى عثمان، وقال سعد: جعلت أمرى إلى عبد الرحمن بن عوف. وهكذا تنازل ثلاثة: تنازل طلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص. وأصبح المرشحون إذا ثلاثة: على بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، فقال عبد الرحمن: أيكما تبرأ من الأمر فنجعله إليه، والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه. فأسكت الشيخان.

فقال عبد الرحمن بن عوف: أفتجعلونه إلى، والله على ألا آلو عن أفضلكما قالا: نعم فأخذ بيد أحدهما، فقال لعلي(ﷺ): لك قرابة من رسول الله(ﷺ) والقدم في الإسلام ما قد علمت، فإنه عليك لئن أمرتك لتعدلن، ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطعن. ثم خلا بعثمان فقال له مثل ذلك. فلما

أخذ الميثاق، قال: ارفع يدك يا عثمان فبايعه، وبايع له علي، وولج أهل الدار فبايعوه". هذه رواية البيعة لعثمان(ﷺ) كما في "صحيح البخاري".

وهناك تفصيلات أخرى في الصحيح: أن عبد الرحمن بن عوف جلس ثلاثة أيام يسأل المهاجرين والأنصار، حتى قال(ﷺ): "والله ما تركت بيتًا من بيوت المهاجرين والأنصار إلا وسألتهم فما رأيتهم يعدلون بعثمان أحدًا". أي أن هذا الأمر لم يكن مباشرة في البيعة، وإنما جلس بعد أن أخذ العهد عليهما ثلاثة أيام، ثم بعد ذلك اختار عثمان(ﷺ).

ومن المحزن أننا نرى كتب التاريخ الحديثة التى تتكلم عن حياة الصحابة تعرض عن رواية البخاري، وتأخذ رواية أبي مخنف المكذوبة في تاريخ الطبري. وهذا نصها: لما طعن عمر بن الخطاب قيل له: يا أمير المؤمنين، لو استخلفت، قال من استخلف؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيًا استخلفته، فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيك يقول: إنه أمين هذه الأمة. ولو كان سالم مولي أبي حذيفة حيًا استخلفته، فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيك يقول: إن سالمًا شديد الحب لله. فقال له رجل: أدلك عليه؟ عبد الله بن عمر، فقال: قاتلك الله، والله ما أردت الله بهذا، ويحك كيف استخلف رجلًا عجز عن طلاق امرأته، لا أرب لنا في أموركم، ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، إن كان خيرًا فقد أصبنا منه، وإن كان شرًا فشرعنا آل عمر، بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد، أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافًا لا وزر ولا أجر إني لسعيد، وانظر فإن استخلفت فقد استخلف من هو خير مني (يعني: أبا بكر) وإن أترك فقد ترك من هو خير منى (يعني: رسول اللهﷺ)، ولن يضيع الله دينه. فخرجوا ثم راحوا، فقالوا: يا أمير المؤمنين، لو عهدت عهدًا؟ فقال: قد كنت أجمعت بعد مقالتي لكم أن أنظر فأولي رجلًا أمركم هو أحراكم أن يحملكم على الحق وأشار إلى على، ورهقتني غشية فرأيت رجلًا دخل جنة قد غرسها، فجعل يقطف كل غضة ويانعة، فيضمه إليه ويصبره تحته، فعلمت أن الله غالب أمره ومتوف عمر، فما أريد أن أتحملها حيًا وميتًا.

عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله(ﷺ): "إنهم من أهل الجنة: سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل منهم ولست مدخله، ولكن الستة: علي، وعثمان ابنا عبد مناف، وعبد الرحمن، وسعد خالا رسول الله(ﷺ)، والزبير بن العوام حواري رسول الله(ﷺ)، وابن عمته، وطلحة الخير ابن عبيد الله، فليختاروا منهم رجلًا، فإذا ولوا واليًا فأحسنوا مؤازرته وأعينوه، وإن ائتمن أحدًا منكم فليؤد إليه أمانته. فخرجوا، فقال العباس لعلي: لا تدخل معهم. قال: أكره الخلاف. قال: إذن، ترى ما تكره.

فلما أصبح عمر دعا عليًا، وعثمان، وسعدًا، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، رضي الله عنهم، فقال: إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وقد

قبض رسول الله(ﷺ) وهو عنكم راض، إني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم، ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس، فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذن منها، فتشاوروا واختاروا رجلًا منكم. ثم قال: لا تدخلوا حجرة عائشة، ولكن كونوا قريبًا، ووضع رأسه وقد نزفه الدم.

فدخلوا فتناجوا ثم ارتفعت أصواتهم فقال عبد الله بن عمر: سبحان الله إن أمير المؤمنين لم يمت بعد، فأسمعه فانتبه، فقال: ألا أعرضوا عن هذا أجمعون، فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام وليصل بالناس صهيب، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم، ويحضر عبد الله بن عمر مشيرًا ولا شيء له من الأمر، وطلحة شريككم في الأمر، فإن قدم في الأيام الثلاثة فأحضروه أمركم، وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم. من لي بطلحة؟ فقال سعد بن أبي وقاص: أنا لك به، ولا يخالف إن شاء الله، فقال عمر: أرجو ألا يخالف إن شاء الله، وما أظن أن يلي هذا الأمر إلا أحد هذين الرجلين على، أو عثمان.

فإن ولي عثمان فرجل فيه لين، وإن ولي علي ففيه دعابة، وأحرى به أن يحملهم على طريق الحق. وإن تولوا سعدًا فأهلها هو، وإلا فليستعن به الوالي فإني لم أعزله عن خيانة ولا ضعف، ونعم ذو الرأي عبد الرحمن بن عوف مسدد، رشيد، له من الله حافظ، فاسمعوا منه.

وقال لأبي طلحة الأنصاري: يا أبا طلحة، إن الله(ﷻ) طالما أعز الإسلام بكم، فاختر خمسين رجلًا من الأنصار، فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلًا منهم. وقال للمقداد بن الأسود: إذا وضعتموني في حفرتي، فاجمع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلًا منهم. وقال لصهيب: صل بالناس ثلاثة أيام، وأدخل عليا، وعثمان، والزبير، وسعدا، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة إن قدم، وأحضر عبد الله بن عمر ولا شيء له من الأمر، وقم على رءوسهم، فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلًا وأبي واحد، فاشدخ رأسه، أو أضرب رأسه بالسيف.

وإن اتفق أربعة فرضوا رجلًا منهم، وأبي اثنان فاضرب رءوسهما. فإن رضي ثلاثة رجلًا منهم، وثلاثة رجلًا منهم، فحكموا عبد الله بن عمر، فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلًا منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس.

قلت: هذه رواية أبي مخنف، وفيها مخالفات ظاهرة للرواية الصحيحة التي أخرجها البخاري، ثم فيها زيادات منكرة، منها: استباحة عمر(ﷺ) دماء من قال هو عنهم: "إن رسول الله(ﷺ) مات وهو عنهم راض"!!.

سبحان الله! كيف يستحل عمر(رضي الله عنه) رقاب أولئك الصحابة الأجلة: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم، فهذا يظهر لك كذب هذه الرواية، ثم من سيجرؤ على التنفيذ؟ وهل سيترك؟ إنه التلفيق، ولا شيء غير التلفيق، ثم التلميح بل التصريح بأن عليًا(رضي الله عنه) هو الأحق بالخلافة.

<u>القضية السادسة:</u> عثمان(رضي الله عنه) أحق بالخلافة:

اجتمع الناس على عثمان(رضي الله عنه) وبايعوه، وهو أفضل أصحاب رسول الله(ﷺ) بعد أبي بكر، وعمر رضي الله عنهم؛ لحديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: ما كنا نعدل بعد رسول الله(ﷺ) بأبي بكر أحدًا، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نترك بقية أصحاب رسول الله(ﷺ) لا نفاضل بينهم. وفي رواية أنه قال: وكان رسول الله(ﷺ) يسمعنا ولا ينكره. قال عبد الله بن مسعود(رضي الله عنه) عن بيعة عثمان(رضي الله عنه): ولينا أعلاها ذا فوق.

ولذلك قال كبار أهل السُنّة: من قدم عليًا على عثمان، فقد أزري بالمهاجرين والأنصار؛ وذلك لأن عبد الرحمن بن عوف قال: ما تركت من بيوت المهاجرين والأنصار بيتًا إلا طرقته، فما رأيت أحدًا يعدل بعثمان أحدًا. كلهم يفضلون عثمان.

وبويع عثمان بن عفان بالخلافة بيعة عامة. حتى قيل: "ما كان في القوم أوكد بيعة من عثمان كانت بإجماعهم".

والذي عليه أهل السنة: أن من قدم عليًاَ على أبي بكر وعمر فإنه ضال مبتدع، ومن قدم عليًا على عثمان فإنه مخطئ، ولا يضللونه ولا يبدعونه، وإن كان بعض أهل العلم قد تكلم بشدة على من قدم عليًا على عثمان بأنه قال: من قدم عليًا على عثمان قد زعم أن أصحاب الرسول(ﷺ) خانوا الأمانة؛ حيث اختاروا عثمان على علي رضي الله عنهما.

<u>القضية السابعة:</u> بدء الفتنـة:

بدأت الفتنة في ٣٤هـ، عندما حاول بعض الجهلة أن يخرجوا على عثمان بن عفان(رضي الله عنه)، فأمسك بهم ثم أنبهم على فعلهم وتركهم، ولكنهم لم يصبروا، بل استعدوا أكثر وخرجوا مرة ثانية في ٣٥هـ من ديارهم كأنهم يريدون الحج، ومروا على مدينة رسول الله(ﷺ)، ثم حاصروا أمير المؤمنين عثمان بن عفان(رضي الله عنه) في بيته حتى قتلوه شهيدًا بعد حصار دام أربعين يومًا، ومنع خلالها من كل شيء حتى الصلاة في المسجد.

أسباب الفتنة:

السبب الأول–وهو سبب رئيس– رجل يهودي يقال له: عبد الله بن سبأ:

وقد تسالم المتقدمون على إثبات هذه الشخصية، بل ونسبوا فرقة من الفرق إلى عبد الله ابن سبأ، فسموها السبئية أو السبائية، ونسبوا إليها معتقدات خاصة بها، وممن أنكر هذه المسألة رجل يقال له: مرتضي العسكري، في كتاب له أسماه: "عبدالله بن سبأ وأساطير أخرى". وممن أنكر ابن سبأ– أيضا– طه حسين في كتابه: "على وبنوه" ، وغيرهما.

أما طه حسين فلم يزد على طريقته المعتادة في إنكار اليقينيات والمسلمات كما في كتابه: "في الشعر الجاهلي"؛ حيث أنكر أن إبراهيم وإسماعيل–عليهما السلام– قد بنيا الكعبة، قائلًا: "للقرآن أن يحدثنا عن هذا، ولكن لا يلزم أنه وقع". فهو قد سار على طريقة الشك في كل شيء.

وأما هذا العسكري فحاول أن يلبس على الناس؛ إذ زعم أن طريقته علمية، وأنه جمع الأحاديث والروايات التي ذكرت ابن سبأ، وثبتت عنده أنها من طريق سيف بن عمر، وسيف كذاب؛ فلا وجود إذن لابن سبأ. وهذا باطل من وجوه:

١– جاء عند ابن عساكر من طريق عمار الدهني عن أبي الطفيل، ومن طريق شعبة عن سلمة عن زيد بن وهب ذكر ابن سبأ لما جيء به إلى علي، وليس من طريق سيف بن عمر.

٢– أثبت كثير من مؤرخي الشيعة وجامعي مقالاتهم ومحدثيهم هذه الشخصية في كتبهم:

- فهذا النوبختي في كتابه "فرق الشيعة" بعد أن ذكر أقوال ابن سبأ، قال: وهذه الفرقة تسمي "السبئية" أصحاب عبد الله بن سبأ، وقد توفي النوبختي في القرن الثالث الهجري.

- روى الكشي في كتابه "رجال الشيعة" عن أبي جعفر عليه السلام أن عبدالله بن سبأ كان يدعي النبوة، ويزعم أن أمير المؤمنين عليه السلام هو الله.

وروى روايات أخرى عن جعفر الصادق عليه السلام في ذكر ابن سبأ حتى ذكر أكثر من خمس روايات.

- الصدوق في كتابه "من لا يحضره الفقيه".

- الطوسي شيخ الطائفة.

- المجلسي باقر علوم الأئمة عندهم.

- النوري الطبرسي وغيرهم كثير تركتهم لعدم الإطالة.

٣- وأما أهل السنة: فكل من أرخ هذه الحقبة ذكر ابن سبأ وأثره فيها. على أنه لم ينكر وجود ابن سبأ إلا المتأخرون من كتاب الشيعة، وتابعهم عليه كتاب السنة الذين يجهلون ما يرمي إليه الشيعة في إنكارهم لهذه الشخصية.

وعبدالله بن سبأ هو يماني يهودي أظهر الإسلام، ثم انتهج التشيع لعلي(ﷺ)، وهو الذي تنسب إليه فرقة السبئية الذين قالوا بألوهية علي(ﷺ)، وهم الذين جاءوا لعلي بن أبي طالب(ﷺ)، فقالوا له: أنت هو. قال: ومن هو؟ قالوا: أنت الله. فأمر مولاه قنبرا بأن يحفر حفرة، ويشعل فيها النار، وقال: من لم يرجع عن هذا القول أحرقته بالنار، فأحرق الكثيرين منهم، وفر منهم من فر، ومنهم عبدالله بن سبأ وقيل: إنه قتل، والعلم عند الله تبارك وتعالى.

وأظهر ابن سبأ بعض العقائد اليهودية: كالقول بالرجعة، والوصي، وأن الإمامة تكون في بيت واحد، وغير ذلك.

واستغل الأعراب، فأخذ يشيع عندهم الأكاذيب مدعيًا أن عثمان فعل كذا وكذا، وكتب كتبًا مزورة -هو ومن ساعده- على الزبير، وعلي ، وطلحة، وعائشة، وغيرهم من أصحاب النبي(ﷺ)، ويختمونها بأختامهم المزورة، كلها فيها الإنكار على عثمان(ﷺ) والتذمر من سياسته.

وفي السابق لا توجد أجهزة اتصالات حديثة كما هو الآن، والمتلقون أعراب تأتيهم هذه الأخبار فيقبلون ويصدقون، فصبأ إليه غير واحد من ذوي الشقاق والنفاق، وكان يقول لحديثي السن وقليلي التجربة: عجبًا لمن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمدًا يرجع، وقد قال(ﷻ): (إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ) [القصص: ٨٥] فمحمد أحق بالرجوع من عيسى.

وكان يقول: كان فيما مضى ألف نبي ولكل نبي وصي، وإن عليًا وصي محمد. فاستجاب له ناس في مختلف الطبقات، فاتخذ بعضهم دعاة فهموا أغراضه ودعوا إليها، وآخرون صدقوا قوله فصاروا يدعون إليه عن عماية.

ومن دعاته الذين أسهموا في نشر دعوته: الغافقي بن حرب، عبد الرحمن بن عديس البلوي، كنانة بن بشر، سودان بن حمران، عبد الله بن زيد بن وراقء، عمرو بن الحمق الخزاعي، حرقوص بن زهير، حكيم بن جبلة، قتيرة السكوني، وغيرهم.

وأما تزوير الكتب فقد قال مسروق: قالت عائشة رضي الله عنها: تركتموه –أي: عثمان– كالثوب النقي من الدنس، ثم قربتموه تذبحونه كما يذبح الكبش. فقال لها مسروق: هذا عملك كتبت إلى الناس تأمرينهم بالخروج عليه. فقالت عائشة رضي الله عنها: والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون، ما كتبت لهم سواداً في بياض، حتى جلست مجلسي هذا. قال الأعمش: فكانوا يرون أنه كتب على لسانها.

فكتبت كتب مزورة على ألسنة أصحاب رسول الله(ﷺ)، كلها تذم عثمان بن عفان(رضي الله عنه)، فعبد الله بن سبأ هذا له أتباع في شتي الولايات، وكانوا يرسلون إليه، ويرسل إليهم، ويرسل بعضهم إلى بعض: فعل بنا الوالي كذا بأمر عثمان، وفعل بنا الوالي كذا بأمر عثمان، ذهبنا إلى المدينة ففعل عثمان بنا كذا، وعثمان فعل بأصحاب محمد كذا، وجاءتنا رسالة من الزبير بن العوام، جاءنا خطاب من علي بن أبي طالب، جاءنا كتاب من عائشة، جاءنا كذا، فصار الأعراب الذين لا يفقهون من دين الله تبارك وتعالي إلا الشيء اليسير يتأثرون بهذه الأمور، فغلت على عثمان(رضي الله عنه) القلوب.

السبب الثاني– الرخاء الذي أصاب الأمة الإسلامية:

قال الحسن البصري رحمه الله: قلما يأتي على الناس يوم إلا ويقتسمون فيه خيرًا، حتى إنه ينادي: تعالوا عباد الله، خذوا نصيبكم من العسل، تعالوا عباد الله، خذوا نصيبكم من المال. وذلك لأن الجهاد كان في أوجه في زمن عثمان(رضي الله عنه)، والرخاء من عادته أن يورث مثل هذه الأشياء، وهو التذمر، وعدم القبول؛ وذلك لبطر الناس، وعدم شكرهم.

السبب الثالث: الاختلاف بين طبع عثمان(رضي الله عنه) وطبع عمر(رضي الله عنه):

كان عمر(رضي الله عنه) شديدًا، وكان عثمان(رضي الله عنه) حليمًا رؤوفًا، غير أنه لم يكن ضعيفًا كما يدعي كثير من الناس، بل كان حليمًا؛ ولذلك عندما حاصروه في البيت، قال: أتدرون ما جرأكم على؟ ما جرأكم على إلا حلمي.

وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: والله لقد نقموا على عثمان أشياء لو فعلها عمر ما تكلم منهم أحد. إذن، لماذا نقموا على عثمان؟ لأن عثمان كان يسامح ويترك ويفوت لهم تلك الأخطاء ويعفو(ﷺ) وأرضاه.

السبب الرابع: استثقال بعض القبائل لرئاسة قريش:

القبائل العربية التي دخلت في الإسلام، خاصة تلك التي ارتد بعض رجالها عن دين الله(ﷻ) ثم رجعوا بعد أن قوتلوا، رجع بعضهم إلى الإسلام عن قناعة، وبعضهم من غير قناعة، وبعضهم رجع وفي القلب شيء، أولئك استثقلوا أن تكون الرئاسة دائمًا في قريش، لماذا الرئاسة في قريش؟ ولذلك يقول ابن خلدون: "وجدت بعض القبائل العربية الرئاسة على قريش، وأنفت نفوسهم، فكانوا يظهرون الطعن في الولاة"، ووجدوا في لين عثمان فرصة لذلك. هذه أهم الأسباب، وهناك أسباب أخري أدت إلى تلك الفتنة تركتها مخافة الإطالة.

<u>القضية الثامنة:</u> المآخذ التي أخذت على عثمان(رضي الله عنه):

المآخذ التي أخذت على حكم عثمان(رضي الله عنه):

المأخذ الأول: ولي أقاربه.

من أقارب عثمان(رضي الله عنه) الذين ولاهم؟

أقارب عثمان الذين ولاهم(رضي الله عنه): (معاوية- عبد الله بن سعد بن أبي السرح- الوليد بن عقبة- سعيد بن العاص- عبد الله بن عامر). هؤلاء خمسة ولاهم عثمان(رضي الله عنه)، وهم من أقاربه، وهذا في زعمهم مطعن عليه، فلننظر إلى باقي ولاة عثمان(رضي الله عنه): (أبو موسى الأشعري- القعقاع بن عمرو- جابر المزني- حبيب بن مسلمة- عبدالرحمن بن خالد بن الوليد- أبو الأعور السلمي- حكيم بن سلامة- الأشعث بن قيس- جرير بن عبدالله البجلي- عتيبة بن النهاس- مالك بن حبيب- النسير العجلي- السائب بن الأقرع- سعيد بن قيس- سلمان بن ربيعة- خنيس بن خبيش).

هؤلاء هم ولاة عثمان(رضي الله عنه)، وبنظرة سريعة نجد أن عدد الولاة من أقارب عثمان أقل بكثير من غيرهم، وبخاصة إذا علمنا أن النبي(ﷺ) كان يولي بني أمية أكثر من غيرهم.

والولاة الذين ولاهم النبي(ﷺ) واستعملهم من بني أمية، هم: عتاب بن أسيد، أبو سفيان بن حرب، خالد بن سعيد، عثمان بن سعيد، أبان بن سعيد. هؤلاء خمسة كعدد الذين ولاهم عثمان(رضي الله عنه). ثم

يقال بعد ذلك: إن هؤلاء الولاة لم يتولوا كلهم في وقت واحد، بل كان عثمان(ﷺ) قد ولي الوليد بن عقبة ثم عزله، فولي مكانه سعيد بن العاص فلم يكونوا خمسة في وقت واحد، وأيضا، لم يتوف عثمان(ﷺ) إلا وقد عزل–أيضا– سعيد بن العاص. فعندما توفي عثمان(ﷺ) لم يكن من بني أمية من الولاة إلا ثلاثة، وهم: (معاوية– وعبد الله بن سعد بن أبي السرح– وعبدالله بن عامر بن كريز) فقط.

وهنا أمر يجب التنبه إليه: وهو أن عثمان عزل الوليد بن عقبة، وسعيد بن العاص من الكوفة! الكوفة التي عزل منها عمر سعد بن أبي وقاص، وعزل ابن مسعود. وعزل عثمان منها أبا موسي والوليد، وغيرهما.

الكوفة التي دعا عليّ على أهلها، الكوفة التي غدر أهلها بالحسن بن علي، الكوفة التي نقض أهلها العهد مع مسلم بن عقيل، وأخيرًا وليس آخرًا، الكوفة التي قتل أهلها الحسين بن علي! الكوفة التي لم ترض بوال قط.

إذن، عزل عثمان(ﷺ) لأولئك الولاة لا يعد مطعنًا فيهم، بل مطعنًا في المدينة التي ولوا عليها، ثم هل أثبت هؤلاء الولاة كفاءتهم أولًا؟ ستأتي شهادات أهل العلم في أولئك الولاة الذين ولاهم عثمان(ﷺ).

ثم يقال كذلك: إن علي بن أبي طالب(ﷺ) ولي أقاربه، ولم ينقم عليه أحد ولا ننقم عليه نحن أيضا؛ لأن هذا الأمر –وهو تولية عثمان لأقاربه– الذي ينقمه على عثمان(ﷺ) اثنان: إما سني، وإما شيعي.

فأما الشيعي فيرد عليه بأن: علي بن أبي طالب(ﷺ) ولي أقاربه أيضا، فالأمر سواء؛ فإذا كانت تولية عثمان(ﷺ) لأقاربه تعد مطعنا عليه، فكذلك تولية علىّ لأقاربه لابد أن تكون مطعنا عليه، وإن لم تكن مطعنا على عليّ(ﷺ) فليست بمطعن على عثمان(ﷺ)، بل إن الذين ولاهم عثمان أفضل من الذين ولاهم على بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين باستثناء عبد الله بن عباس(ﷺ).

وأما إذا كان الذي ينكر على عثمان ﷺ سنيًا، فيقال له: أنت بين أمرين اثنين: أحدهما: أن عثمان(ﷺ) ولاهم محاباة لهم، ولم يكونوا أهلًا للولاية. وثانيهما: أن تقول: إن عثمان(ﷺ) كان يظن أنهم يستحقون الولاية ولذلك ولاهم. والأصل إحسان الظن في أمثال عثمان(ﷺ)، ثم بعد ذلك كله ننظر في سير أولئك الولاة الذين ولاهم عثمان(ﷺ).

وهذه شهادات أهل العلم في أولئك الولاة:

الأول: معاوية بن أبي سفيان(ﷺ): لا يختلف أحد من المسلمين في أن معاوية بن أبي سفيان كان من خير الولاة، بل إن أهل الشام كانوا يحبونه حبًا شديدًا رضي الله تبارك وتعالي عنه، وكان عمر بن الخطاب(ﷺ) قد ولاه عليها، وكل الذي فعله عثمان(ﷺ) أنه أبقاه على تلك الولاية، وزاده ولايات أخرى.

ثم هو كاتب للوحي زمن رسول الله(ﷺ)، وكان من خير الولاة وقد قال النبي(ﷺ): "خيار أئمتكم من تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم"، وكان معاوية(ﷺ) كذلك.

الثاني: عبدالله بن سعد بن أبي الشرح: كان من أصحاب رسول الله(ﷺ)، ثم ارتد عن دين الله تبارك وتعالى، ثم بعد ذلك تاب إلى الله جل وعلا، ورجع ليبايع النبي(ﷺ)، فقال عثمان: يا رسول الله بايعه؛ فإنه جاء تائبًا، فلم يبايعه النبي(ﷺ)، ثم كلم النبي(ﷺ) الثانية والثالثة، فمد رسول الله(ﷺ) يده فبايعه، فرجع عما كان عليه، وتاب إلى الله تبارك وتعالى، وكان من خير الولاة، وهو الذي فتح إفريقية. قيل عنه: "لم يتعد، ولا فعل ما ينقم عليه بعد أن أسلم عام الفتح، وكان أحد عقلاء الرجال وأجوادهم". والفتوحات الكثيرة في إفريقية كلها كانت على يده رضي الله عنه.

الثالث: سعيد بن العاص: كان من خيار أصحاب رسول الله(ﷺ)، قيل عنه: "كان أميرًا شريفًا جوادًا، ممدوحًا، حليمًا، وقورًا، ذا حزم وعقل يصلح للخلافة".

الرابع: عبدالله بن عامر بن كريز: هو الذي فتح بلاد كسرى وخراسان، وانتهت دولة فارس في زمن عثمان(ﷺ) على يده، وفتح سجستان وكرمان وغيرهما من البلاد، قيل عنه: "كان من كبار ملوك العرب وشجعانهم وأجوادهم".

الخامس: الوليد بن عقبة: بقي الوليد بن عقبة أميرًا على الكوفة خمس سنين ليس على بيته باب، من يريده يأتي ويكلمه، وكان الناس يحبونه، ولكنهم أهل الكوفة كما يقال.

وقد نُقم على الوليد بن عقبة أمران اثنان: الأول: قالوا: نزل فيه قول الله تبارك وتعالى: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ)[الحجرات : ٦]. على المشهور في كتب التفسير أن هذه الآية نزلت عندما أرسل النبي(ﷺ) الوليد بن عقبة ليجبي صدقات بني المصطلق، فلما انطلق وجدهم قد قدموا عليه

فخاف ورجع إلى النبي(ﷺ)، وقال: إنهم أرادوا قتلي، فغضب النبي(ﷺ) عليهم، وأرسل خالد بن الوليد، ثم أمر النبي(ﷺ) بالتثبت من الأمر عندما أنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية، فلما تبينوا الأمر، قالوا: لم نأت لنقاتل، وإنما جئنا بصدقاتنا لما تأخر علينا رسول رسول الله(ﷺ).

الثاني: قالوا: كان يصلى الفجر وهو سكران، وصلى بهم الفجر أربع ركعات ثم سلم، وقال: أزيدكم؟ فقالوا له: أنت منذ اليوم في زيادة، ثم ذهبوا إلى عثمان(رضي الله عنه) واشتكوه فجلده عثمان(رضي الله عنه) حد الخمر، وقد ثبت في "صحيح مسلم" أن عثمان(رضي الله عنه) جلده في حد الخمر.

أما الأمر الأول: فهو المشهور عند أهل التفسير: أن الوليد بن عقبة هو الذي نزلت فيه هذه الآية، ولكن لا يلزم أن يكون فاسقًا؛ لأن الله تبارك وتعالى إنما أعطى حكمًا عامًا لكل من جاء بخبر، وإن كان الله تبارك وتعالى سماه فاسقًا، فهل يعني هذا أن يظل فاسقًا طوال عمره؟! فالله تبارك وتعالى قال: (وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ)[النور: ٤ ، ٥]. ولو فرضنا أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة، أليست له توبة؟!

أما شربه الخمر: فهذه أولًا علمها عند الله تبارك وتعالي، لا تكذيبًا لصحيح مسلم، فهو قد جلد على الخمر، ولكن هل ثبت عنه أنه شرب الخمر أولًا؟ هذا أمر آخر. فالوليد بن عقبة لما كان واليًا على الكوفة، خرج اثنان من أهل الكوفة إلى عثمان بن عفان(رضي الله عنه) في المدينة، وقالا له: رأينا الوليد بن عقبة صلي بنا الفجر وهو سكران، قال أحدهما: رأيته سكران، وقال الآخر: رأيته يتقيأها. فقال عثمان: ما تقيأها إلا بعد أن شربها؛ فأمر عثمان(رضي الله عنه) بجلد الوليد بن عقبة، ثم عزله عن الكوفة، ولكن شكك بعض أهل العلم في شهادة الشاهدين، لا في صحة القصة. نعم، هو جلد كما في "صحيح مسلم"، ولكن هل كان الشاهدان صادقين أو لا؟

وإن ثبتت، فهذه ليست بمطعن على عثمان(رضي الله عنه)، فقد ثبت عنده أنه شرب الخمر فجلده وعزله، فهل أخطأ عثمان(رضي الله عنه)؟ واقع الأمر أنه لم يخطئ، بل هذه منقبة له(رضي الله عنه)، فقد عزل وجلد قريبه وواليه ولم يحابه، وهل الوليد بن عقبة معصوم؟ ونحن قد ذكرنا في بداية حديثنا أننا لا ندعي العصمة في أصحاب النبي(ﷺ).

فهؤلاء هم ولاة عثمان(ﷺ)، الوحيد الذي يمكن أن طعن فيه هو الوليد بن عقبة، وليس فيه مطعن على عثمان(ﷺ)، وإن كان هناك مطعن، فهو على الوليد بن عقبة نفسه.

المأخذ الثاني: نفي أبي ذر(ﷺ) إلى الربذة:

الرواية التي عند الطبري وغيره من رواية سيف بن عمر: أن معاوية وقع بينه وبين أبي ذر(ﷺ) كلام فأرسل إلى عثمان(ﷺ) أن أبا ذر قد أفسد الناس علينا، فقال له عثمان(ﷺ) أرسله إلى، فأرسله معاوية(ﷺ) إلى عثمان(ﷺ)، فأنبه عثمان(ﷺ) ثم خرج إلى الربذة.

هذه رواية سيف بن عمر. ولقد ذكرنا –من قبل– أن لدينا رواياتنا الصحيحة التي نقبلها، وهنا ما أخرجه البخاري في صحيحه في هذه المسألة: عن زيد بن وهب، قال: مررت بالربذة، فإذا أنا بأبي ذر(ﷺ)، قلت: ما أنزلك هذا المنزل؟ قال: كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في الذين يكنزون الذهب والفضة، فقال معاوية: نزلت في أهل الكتاب. وقلت أنا: نزلت فينا وفيهم، وكان بيني وبينه في ذلك، فكتب إلى عثمان(ﷺ) يشكوني أني أتكلم في هذه المسائل وأثير الناس، فكتب إليّ عثمان(ﷺ) أن أقدم إلى المدينة فقدمتها، فكثر على الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك فذكرت ذلك لعثمان(ﷺ)، فقال عثمان(ﷺ): إن شئت تنحيت فكنت قريبًا. فذاك الذي أنزلني ذاك المنزل، ولو أمروا على حبشيًا لسمعت إذن وأطعت.

فعثمان بن عفان(ﷺ) لم يطرد أبا ذر(ﷺ) إلى الربذة، ولم يرسله معاوية(ﷺ) مهانًا من الشام إلى المدينة، وكل هذا من الكذب عليهم، فهذه قصة أبي ذر(ﷺ) عند البخاري، بل قد ورد أنه لما خرج إلى الربذة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا بلغ البناء سلعاً فاخرج منها".

فهو أمر من نبي الله(ﷺ)، وروي عن النبي(ﷺ) أنه قال: "رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث يوم القيامة وحده"(ﷺ) وأرضاه.

المأخذ الثالث: إعطاء مروان بن الحكم خُمس إفريقية: لم يثبت أن عثمان(ﷺ) فعل هذا، ولو كان فعل هذا فإن المقصود هو خُمس الخُمس، وذلك أن الغنيمة تقسم خمسة أخماس: أربعة فيها للمجاهدين، وخمس يقسم إلى خمسة أخماس، ذكرها الله(ﷻ) في كتابه العزيز: (وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ)[الأنفال: ٤١].

فسهم الله(ﷻ) ورسوله(ﷺ) هو للإمام، يضعه حيث شاء، والذي ذكروه هو أن عثمان(ﷺ) وعد مروان إذا فتح إفريقية فإنه سيهبه خمس إفريقية الخاص به، وقد مر في فتح إفريقية أنه إنما جعله مكافأة لعبد الله بن أبي السرح إذا فتح إفريقية.

المأخذ الرابع: إحراق المصاحف: قدم حذيفة بن اليمان على عثمان(ﷺ)، وأخبره أن الناس قد افترقوا في القرآن، واختلفوا اختلافًا شديدًا، حتى إنه يخشى عليهم من الكفر بالقرآن، فطلب من عثمان(ﷺ) أن يجمع الناس على قراءة واحدة، وأن يجمع القرآن مرة ثانية. فأمر عثمان(ﷺ) بجمع القرآن مرة ثانية، وأمر بإحراق ما خالفه.

والمصاحف التي أحرقها عثمان(ﷺ) فيها أشياء من منسوخ التلاوة، وقد أبقاه بعض الصحابة، وفيها ترتيب السور على غير الترتيب الذي في العرضة الأخيرة، التي عرضها جبريل(ﷺ) على النبي(ﷺ)، وفي بعض المصاحف تفسيرات لبعض الصحابة؛ لذلك أمر عثمان(ﷺ) بإحراق تلك المصاحف، وكتب المصحف الوحيد وفيه القراءات، ولم يلغ القراءات الثابتة عن النبي(ﷺ). وقال بعض أهل العلم: بل ترك حرفًا واحدًا فقط، وهو ما كان على لسان قريش. قيل عن جمعه القرآن وإحراق بقية المصاحف: "تلك حسنته العظمي، وخصلته الكبرى؛ فإنه حسم الخلاف وحفظ الله القرآن على يديه". فهذه منقبة لعثمان، جعلوها من مساوئه ومثالبه(ﷺ) وأرضاه.

المأخذ الخامس: ضرب ابن مسعود حتى فتق أمعاءه وضرب عمار بن ياسر حتى كسر أضلاعه: وهذا كذب، ولو فتق أمعاء ابن مسعود ما عاش، فما فتق أمعاء ابن مسعود ولا كسر أضلاع عمار.

المأخذ السادس: الزيادة في الحِمَى:

كان له (ﷺ) حمي، وقال: "إنما الحِمَي حِمَى الله ورسوله". وقد وضع عمر(ﷺ) حِمَى لإبل الصدقة، وضع لهم أرضًا خاصة لا يرعى فيها إلا إبل الصدقة، حتى تسمن ويستفيد منها الناس، فلما جاء عثمان(ﷺ) وكثرت الصدقات، وسع هذا الحِمَي فنقموا عليه ذلك، حتى قيل له: أرأيت ما حميت من الحِمَى، الله أذن لك أم على الله تفتري؟ فقال عثمان(ﷺ): إن عمر حِمَى الحِمَى قبلي لإبل الصدقة، فلما وليت زادت إبل الصدقة فزدت في الحِمَي. فهل هذا مأخذ؟!

المأخذ السابع: الإتمام في السفرِ: صلى الرسول(ﷺ) في السفر ركعتين، وصلى أبو بكر(ﷺ) في السفر ركعتين، وصلى عمر(ﷺ) في السفر ركعتين، وصلي عثمان(ﷺ) صدرًا من خلافته في السفر ركعتين، ثم أتم في السفر. والجواب هو: أولًا، هذه مسألة فقهية اجتهادية اجتهد فيها

عثمان(ﷺ) فأخطأ، فكان ماذا؟ هذا إذا كان قد أخطأ فعلًا، وهل هذا الأمر يبيح دم عثمان؟ ومن المعصوم غير رسول الله(ﷺ)؟ ثم إن في هذه المسألة خلافًا بين أهل العلم، وأكثر أهل العلم على أن القصر في الصلاة سنة مستحبة، فإذا كان عثمان(ﷺ) فعل شيئًا، فهو أنه ترك المستحب فقط، وفعل الجائز، أو ترك الرخصة وفعل العزيمة.

أما لماذا أتم عثمان؟ فقد قيل لأحد أمرين: الأول: لأنه تأهل-أي: تزوج- في مكة فكان يرى أنه في بلده؛ ولذلك أتم هناك. والثاني: إنه خشي أن يفتن الأعراب ويرجعوا إلى بلادهم فيقصرون الصلاة هناك، فأتم حتى يبين لهم أن أصل الصلاة أربع ركعات، والعلم عند الله تبارك وتعالي. ولما أتمت عائشة في السفر رضي الله عنها، قالوا لعروة: ماذا أرادت عائشة؟ قال: تأولت كما تأول عثمان رضي الله عنهم أجمعين: فالقصد أن عثمان تأول.

المأخذ الثامن والتاسع والعاشر: لم يحضر بدرًا، وفر يوم أحد، وغاب عن بيعة الرضوان: والرد على هذه في "صحيح البخاري: عن عثمان بن موهب، قال: جاء رجل من أهل مصر، فقال: من القوم؟ قالوا قريش. قال: من الشيخ فيكم؟ قالوا : عبدالله بن عمر. فجاء لعبد الله بن عمر، فقال: يا ابن عمر، إني سائلك عن شيء فحدثني عنه: هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد؟ قال: نعم. فقال: تعلم أنه تغيب عن بدر؟ قال: نعم. قال: هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان؟ قال: نعم. فقال المصرى: الله أكبر-يعني: ظهر الحق الذي يريده- فقال له عبدالله بن عمر: تعال أبين لك: أما فراره يوم أحد، فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له؛ كما قال تبارك وتعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ)[آل عمران: ١٥٥].

وأما تغيبه عن بدر، فإنه كان تحته بنت رسول الله(ﷺ)، وكانت مريضة، فقال النبي(ﷺ): "إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه". وأما تغيبه عن بيعة الرضوان، فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعثه الرسول(ﷺ)، وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله(ﷺ) بيده اليمني: "هذه يد عثمان" فقال ابن عمر: اذهب بها الآن معك.

المأخذ الحادي عشر: لم يقتل عبيد الله بن عمر الهرمزان: والمشهور في كتب التاريخ أنه بعدما قتل أبو لؤلؤة المجوسي عمر بن الخطاب(ﷺ)، قتل نفسه لما ألقوا العباءة عليه، فلما أصبح الناس قام عبد الله بن عمر، فقتل الهرمزان، وكان مجوسيًا فأسلم، فلما قيل له، قال: كان مع أبي

لؤلؤة المجوسي قبل مقتل عمر بثلاثة أيام وبينهما الخنجر الذي قتل به عمر، فظن أن الهرمزان مشارك لأبي لؤلؤة في هذه الجريمة، فذهب إليه وقتله.

فعن سعيد بن المسيب، قال: "إن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق(ﷺ) قال حين قتل عمر(ﷺ): قد مررت على أبي لؤلؤة قاتل عمر(ﷺ) ومعه جفينة والهرمزان وهم نجي- أي: يتناجون- فلما بغتهم ثاروا -أي: قاموا- فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصابه وسطه، فانظرونا ما الخنجر الذي قتل به عمر(ﷺ)، فوجدوه الخنجر الذي نعت عبدالرحمن بن أبي بكر، فانطلق عبد الله بن عمر، فلما خرج إليه- أي: الهرمزان- قال: انطلق معي حتى ننظر إلى فرس لي، وتأخر عنه حتى إذا مضى بين يديه علاه بالسيف، قال عبيد الله: فلما وجد حر السيف، قال: لا إله إلا الله.

قال عبيد الله: ودعوت جفينة وكان نصرانيًا من نصارى الحيرة، فلما علوته بالسيف صلب بين عينيه، ثم انطلق عبد الله فقتل ابنه لأبي لؤلؤة صغيرة تدعي الإسلام، وأراد عبد الله ألا يدع سبيًا بالمدينة إلا قتله، فاجتمع المهاجرون الأولون عليه فنهوه وتوعدوه، فقال: والله لأقتلنهم وغيرهم، وعرض ببعض المهاجرين، فلم يزل عمرو بن العاص به حتى دفع إليه السيف.

فلما دفع إليه السيف أتاه سعد بن أبي وقاص(ﷺ) فأخذ كل واحد منهما برأس صاحبه يتناصيان حتى حجز بينهما، ثم أقبل عثمان(ﷺ) قبل أن يبايع له في تلك الليالي حتى واقع عبد الله فتناصيا، وأظلمت الأرض يوم قتل عبد الله جفينة والهرمزان وابنة ابي لؤلؤة على الناس، ثم حجز بينه وبين عثمان(ﷺ).

فلما استخلف عثمان(ﷺ) دعا المهاجرين والأنصار، فقال: أشيروا عليّ في قتل هذا الرجل الذى فتق في الدين، فاجتمع المهاجرون على كلمة واحدة يشايعون عثمان(ﷺ) على قتله، وجل الناس الأعظم مع عبد الله يقولون جفينة والهرمزان أبعدهما الله، لعلكم تريدون أن تتبعوا عمر ابنه؟ فكثر في ذلك اللغط والاختلاف، ثم قال عمرو بن العاص(ﷺ) لعثمان(ﷺ): يا أمير المؤمنين، إن هذا الأمر قد كان قبل أن يكون لك على الناس سلطان، فأعرض عنهم. وتفرق الناس عن خطبة عمرو، وانتهي إليه عثمان(ﷺ)، وودي الرجلان والجارية (أي الدية).

وهنا ثلاثة توجيهات لعدم قتل عبيد الله بالهرمزان: الأول: أن الهرمزان تمالأ مع أبي لؤلؤة على قتل عمر(ﷺ) كما رآهما عبد الرحمن بن أبي بكر؛ وبهذا يكون مستحقًا للقتل، كما قال عمر(ﷺ): "لو تمالأ أهل صنعاء على قتل رجل لقتلتهم به". فهنا يكون دم الهرمزان مباحًا؛ لأنه شارك في قتل عمر.

الثاني: أن النبي(ﷺ) لم يقتل أسامة بن زيد لما تأول في عهده؛ وذلك أنه في إحدى المعارك رأى رجلًا من المشركين قد قتل من المسلمين الكثير، فذهب إليه فلما رأه المشرك فر منه، ثم اختبأ خلف شجرة، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقتله أسامة، فلما بلغ النبي(ﷺ) هذا الأمر، استدعي أسامة فقال: "أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟".

قال: إنما قالها تعوذا– يعني: خائفًا من السيف –فقال النبي(ﷺ): "هلا شققت عن قلبه" يقول: فما زال يرددها على "قتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟!" حتى تمنيت أني لم أسلم إلا الآن.

فالنبي(ﷺ) لم يقم الحد على أسامة؛ لأنه كان متأولًا، فكذلك الحال بالنسبة لعثمان(ﷺ) لم يقم الحد على عبد الله بن عمر؛ لأنه كان متأولًا.

الثالث: قيل: إن الهرمزان لم يكن له ولي، والمقتول الذي لا ولي له وليه السلطان فتنازل عن القتل. وقيل: إن له ولدا يقال له: القامذبان، وأنه تنازل عن دم عبد الله بن عمر.

المأخذ الثاني عشر: زاد الآذان الثاني يوم الجمعة: قال النبي(ﷺ): "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي". وهذه الزيادة من سنة الخلفاء الراشدين، ولا شك أن عثمان(ﷺ) من الخلفاء الراشدين، ورأى مصلحة في أن يزاد هذا الأذان لتنبيه الناس عن قرب وقت صلاة الجمعة بعد أن اتسعت رقعة المدينة، فاجتهد في هذا ووافقه جميع الصحابة، واستمر العمل به لم يخالفه أحد حتى في زمن علي(ﷺ)، وزمن معاوية، وزمن بني أمية، وبني العباس، وإلى يومنا هذا لم يخالفه أحد من المسلمين، فهي سنة بإجماع المسلمين. ثم هو له أصل في الشرع، وهو الأذان الأول في الفجر، فلعل عثمان(ﷺ) قاس هذا الأذان عليه.

المأخذ الثالث عشر: رد الحَكَمَ وقد نفاه الرسول(ﷺ): وهذه الفرية، يرد عليها من ثلاثة أوجه: أولًا: أنها لم تثبت ولا تعرف بسند صحيح. ثانيًا: الحَكَمُ كان من مسلمة الفتح، وكان من الطلقاء، والطلقاء مسكنهم مكة ولم يعيشوا في المدينة، فكيف ينفيه النبي(ﷺ) من المدينة، وهو ليس من أهلها أصلًا. ثالثًا: النفي المعلوم في شريعتنا أقصاه سنة للزاني غير المحصن، ولم يعلم في شرع الله تبارك وتعالي أن هناك نفيًا مدى الحياة، وأي ذنب هذا الذي يستحق به الإنسان أن ينفي مدى الحياة؟ فالنفي عقوبة تعزيزية من الحاكم، فلو فرضنا أن النبي(ﷺ) فعلًا نفاه واستمر منفيًا في حياة النبي(ﷺ)، ثم في خلافة أبي بكر(ﷺ) وعمر(ﷺ)، ثم أعاده عثمان(ﷺ) بعد كم؟ بعد أكثر من خمس عشرة سنة. أين البأس هنا؟ هذا إن صحت، وهي لم تصح، ثم إن النبي(ﷺ) قبل شفاعة عثمان(ﷺ) في عبدالله بن سعد بن أبي السرح، وكان قد ارتد، ولاشك أن الحَكَمْ لم يأت بجرم أعظم من هذا، فكيف يسامح النبي(ﷺ) ذاك ولا يسامح هذا؟!.

وهناك مآخذ أخرى؛ كقولهم إنه صعد إلى درجة رسول الله(ﷺ) في المنبر، فكان النبي(ﷺ) يخطب على الدرجة الثالثة، فلما جاء أبو بكر(ﷺ) نزل إلى الثانية، ولما جاء عمر(ﷺ) نزل إلى الأولى، ولما جاء عثمان(ﷺ) صعد إلى الثالثة، وهكذا استمر الأمر إلى يومنا هذا. وقالوا كذلك كان عمر(ﷺ) يضرب بالدرة، فصار هو يضرب بالسوط. وقالوا آذي أبا الدرداء(ﷺ) من أصحاب النبي(ﷺ)، وغيرها من الأمور التي أكثرها كذب على عثمان(ﷺ).

هذه هي المآخذ على عثمان(ﷺ). ويمكن تقسيمها حسب الجدول الآتي:

أمور مكذوبة	٢ ، ٣، ٥، ١٣
محاسن	٤ ، ٨ ، ١٠
اجتهاد	١ ، ٦ ، ٧ ، ١١، ١٢
أخطاء مغمورة، بل مغفورة	٩

القضية التاسعة: مقتل عثمان بن عفان(ﷺ):

بعد أن أثيرت هذه الأقوال على عثمان(ﷺ) خرج أناس من أهل البصرة، وأناس من أهل الكوفة، وأناس من أهل مصر إلى المدينة في السنة الخامسة والثلاثين من هجرة النبي(ﷺ) يظهرون أنهم يريدون الحج وقد أبطنوا الخروج على عثمان(ﷺ) وأرضاه.

واختلف في أعدادهم؛ فقيل: إنهم ألفان من أهل مصر، وألفان من أهل الكوفة، وألفان من أهل البصرة، وقيل: إن الكل ألفان، وقيل غير ذلك، وليست هناك إحصائية دقيقة، ولكنهم لا يقلون عن ألفين، ولا يزيدون عن ستة آلاف بأية حال من الأحوال.

دخلوا مدينة رسول الله(ﷺ)، وكان أولئك القوم من فرسان قبائلهم جاءوا لعزل عثمان(ﷺ) إما بالتهديد وإما بالقوة، وحاصروا بيت عثمان(ﷺ) في أواخر ذي القعدة، وأمروه أن يخلع نفسه من الخلافة، واستمر الحصار إلى الثامن عشر من ذي الحجة، وهو يوم مقتل عثمان(ﷺ). وقيل: إن الحصار استمر أربعين يومًا وقيل غير ذلك، ولكنه لا يزيد عن الواحد والأربعين يومًا.

لما حوصر عثمان(ﷺ) في بيته ومُنع من الصلاة، بل ومن الماء، فكان يصلي بالناس رجل من أئمة الفتنة حتى إن عبيد الله بن عدي بن الخيار دخل على عثمان(ﷺ)، فقال: يصلى بالناس

إمام فتنة فما تأمرنا؟ قال: "الصلاة أحسن ما يعمل الناس، فإذا أحسن الناس فأحسن معهم، وإذا اساءوا فاجتنب إساءتهم".

وقد دخل بعض أصحاب رسول الله(ﷺ) بيت عثمان(رضي الله عنه)، كلهم يريد الدفاع عنه، وكان من أشهر الذين جلسوا عنده في بيته: الحسن بن علي، الحسين بن علي، عبدالله بن الزبير، أبو هريرة، محمد بن طلحة بن عبيد الله (السجاد)، وعبدالله بن عمر رضي الله عنهم، وقد شهروا سيوفهم في وجه أولئك البغاة الذين أرادوا قتل عثمان(رضي الله عنه). وجاءت أم المؤمنين صفية رضي الله عنها على بغلة يقودها مولاها: كنانة، فلقيها الأشتر، فضرب وجه بغلتها. فقالت: ردوني، لا يفضحني هذا الكلب.

ولكن عثمان(رضي الله عنه) أمر الصحابة بعدم القتال، بل إنه جاء في بعض الروايات أن الذين جاءوا للدفاع عن عثمان(رضي الله عنه) أكثر من سبعمائة من أبناء الصحابة، ولكن حتى هؤلاء السبعمائة لا يصلون إلى عدد أولئك البغاة، على القول بأن أقل عدد أنهم ألفان.

عن عبدالله بن عامر بن ربيعة، قال: كنت مع عثمان(رضي الله عنه) في الدار، فقال أعزم على كل من رأى أن عليه سمعًا وطاعة إلا كف يده وسلاحه.

وعن ابن سيرين، قال: جاء زيد بن ثابت إلى عثمان(رضي الله عنه): فقال: هذه الأنصار بالباب قالوا: إن شئت أن نكون أنصار الله مرتين كما كنا مع النبي(ﷺ) نكون معك. فقال عثمان(رضي الله عنه): أما قتال فلا.

ودخل ابن عمر على عثمان(رضي الله عنه)، فقال عثمان(رضي الله عنه): يابن عمر، انظر ما يقول هؤلاء، يقولون: اخلعها، ولا تقتل نفسك. فقال ابن عمر: إذا خلعتها، أمخلد أنت في الدنيا؟ فقال عثمان: لا قال عبدالله بن عمر: فلا أرى أن تخلع قميصًا قمصكه الله؛ فتكون سُنة، كلما كره قوم خليفتهم أو إمامهم خلعوه. وقال عثمان(رضي الله عنه) لعبيده: كل من وضع سلاحه فهو حر لوجه الله. فهو الذي منع الناس من القتال. ومع هذا؛ فقد حمل أربعة من شبان قريش ملطخين بالدماء محمولين كانوا يدافعون عن عثمان(رضي الله عنه)، وهم: الحسن بن علي، عبدالله بن الزبير، مروان بن الحكم، محمد بن حاطب.

من قتل عثمان؟ بعد أن حوصر عثمان(رضي الله عنه)، تسوروا عليه البيت فقتلوه(رضي الله عنه)، وهو واضع المصحف بين يديه. قيل للحسن البصري– وكان الحسن البصري قد عاش تلك الفترة؛ لأنه من

كبار التابعين: أكان فيمن قتل عثمان(ﷺ) أحد من المهاجرين أو الأنصار؟ فقال: كانوا أعلاجًا من أهل مصر.

ولكن الرءوس معروفة، وهم: كنانة بن بشر، وورومان اليماني، وشخص يقال له: جبلة، وسودان بن حمران، ورجل يلقب بالموت الأسود من بني سدوس. وقيل: مالك بن الأشتر النخعي. هؤلاء كانوا من رءوس الفتنة التي قامت على عثمان(ﷺ). أما من باشر قتله: فالمشهور أنه رجل مصري، يقال له: جبلة.

عن عمرة بنت أرطأة، قالت: خرجت مع عائشة سنة قتل عثمان(ﷺ) إلى مكة، فمررنا بالمدينة فرأينا المصحف الذي قتل وهو في حجره، فكانت أول قطرة قطرت من دمه على أول هذه الآية: (فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ)[البقرة: ١٣٧]، قالت عمرة: فما مات منهم رجل سويًا.

وعن محمد بن سيرين، قال: كنت أطوف بالكعبة فإذا برجل يقول: اللهم اغفر لي، وما أظن أن تغفر لي.

يقول: فتعجبت منه، فقلت: يا عبدالله، ما سمعت أحدًا يقول مثل ما تقول: فقال الرجل: إني كنت قد أعطيت الله عهدًا لإن مكننى من عثمان لأصفعنه، فلما قتل وضع في سريره في البيت، فكان الناس يأتون ويصلون عليه وهو فى بيته، فدخلت أظهر أني أريد الصلاة، فلما رأيت أن البيت ليس فيه أحد، كشفت عن وجهه فصفعته وهو ميت، فيبست يدي. قال ابن سيرين: رأيتها يابسة كأنها عود.

كيف قتل عثمان(ﷺ) ولم يدافع عنه أحد من الصحابة؟

التعليل الأول: أن عثمان(ﷺ) هو الذي عزم عليهم بهذا؛ فأمرهم أن يغمدوا سيوفهم، ونهاهم عن القتال، واستسلم لقضاء الله تبارك وتعالى وقدره. وهذا يدل على أمرين اثنين:

التعليل الأول: شجاعة عثمان(ﷺ).

والثاني: رحمته بأمة محمد(ﷺ)؛ لأنه أدرك أن أولئك أعراب أجلاف وأنهم مفسدون، فرأى أنه لو قاتلهم الصحابة لكانت المفسدة أعظم من قتل رجل واحد، ولربما انتهى الأمر إلى قتل عدد كبير

من الصحابة، وقد يتعدون إلى انتهاك الأعراض، وانتهاب الأموال، فرأى أن المصلحة أن يُقتل هو، ولا يُقتل أحد من أصحاب رسول الله(ﷺ)، ولا تهتك حرمة مدينة رسول الله(ﷺ).

التعليل الثاني: أن عدد الصحابة كان أقل بكثير من عدد أولئك الخوارج، فإن أصحاب رسول الله(ﷺ) كانوا على أربعة أماكن:

المكان الأول: مكة؛ لأن الموسم كان موسم حج، وقد خرج الكثيرون للحج، ولم يكونوا حاضرين.

المكان الثاني: بعض أصحاب النبي(ﷺ) تمصروا الأمصار، عاشوا في الكوفة، والبصرة ومصر، والشام، وغيرها من البلاد.

المكان الثالث: في الجهاد.

المكان الرابع: هم الذين كانوا في المدينة، ولم يكن عددهم مكافئًا لعدد أولئك الخوارج.

التعليل الثالث: أن الصحابة بعثوا أولادهم للدفاع عن عثمان(ﷺ)، وما كانوا يتصورون أن الأمر يصل إلى القتل، وإنما حصار وعناد، وبعد ذلك يرجعون، أما أنهم يتجرءون ويقتلون عثمان بن عفان(ﷺ)، فكان بعض الصحابة لا يرى أن الأمر يصل إلى هذه الدرجة.

وأرجح هذه الأقوال الأول، وهو أن عثمان(ﷺ) هو الذي منعهم من قتال أولئك الخوارج.

خلافة علي بن أبي طالب(ﷺ)

هو: علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ابن عم النبي(ﷺ)، وزوج سيدة نساء العالمين فاطمة بنت النبي(ﷺ)، وأبو السبطين الحسن والحسين عليهما السلام.

تولى الخلافة: من٣٥هـ حتى٤٠هـ

<u>القضية العاشرة:</u> بيعة علي(ﷺ) بالخلافة:

عن محمد ابن الحنفية، وهو محمد بن علي بن أبي طالب(ﷺ)، قال: أتي علي(ﷺ) دار عثمان(ﷺ) وقد قتل، فدخل إلى داره وأغلق بابه عليه، فأتاه الناس فضربوا عليه الباب ، فقالوا: إن هذا الرجل قد قتل، ولابد للناس من خليفة، ولا نعلم أحدًا أحق بها منك.

فقال لهم علي(ﷺ): لا تريدوني؛ فإني لكم وزير، خير لكم مني أمير، فقالوا: لا والله لا نعلم أحدًا أحق بها منك، قال: فإن أبيتم عليّ فإن بيعتي لا تكون سرًا، ولكن أخرج إلى المسجد، فمن شاء أن يبايعني بايعني. فخرج إلى المسجد فبايعه الناس.

وبايعه المهاجرون والأنصار الذين كانوا في المدينة. وقيل: إنه تخلف عن بيعته بعض الصحابة: كسعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عمر، ومحمد بن مسلمة وغيرهم رضي الله عنهم، وقيل: إنه بويع من الجميع، وهذا هو المشهور، إنما تخلف سعد، وابن عمر، ومحمد بن مسلمة عن القتال معه، أما البيعة فقد بايعوه.

قال أحدهم للحسن البصري وكان في المدينة عند مقتل عثمان(ﷺ)، فذكروا أصحاب النبي(ﷺ): يا أبا سعيد، إنما زُرّي بأبي موسي إتباعه عليا، فغضب الحسن حتى تبين في وجهه، فقال: فمن يتبع؟! قتل أمير المؤمنين مظلومًا فعمد الناس إلى خيرهم فبايعوه، فمن يتبع؟! حتى رددها مرارًا.

فأهل السنة مجمعون على أن أفضل الصحابة: أبو بكر، ثم عمر، ثم اختلفوا- كما ذكرنا- في عثمان وعلي رضي الله عنهم، والجمهور على أن عثمان(ﷺ) أفضل من علي(ﷺ)، ثم اتفقوا بعد ذلك على أن علي بن أبي طالب(ﷺ) رابع الخلفاء.

القضية الحادية عشر: أهم الأحداث في خلافة علي(ﷺ):

معركة الجمل سنة (٣٦هـ): لما بويع علي بن أبي طالب(ﷺ)، استأذن طلحة والزبير عليا(ﷺ) في الذهاب إلى مكة فأذن لهما، فالتقيا هناك بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وكان الخبر قد وصل إليها أن عثمان(ﷺ) قد قتل، فاجتمعوا هناك في مكة، وعزموا على الأخذ بثأر عثمان(ﷺ).

فجاء يعلى بن منبه من البصرة، وجاء عبدالله بن عامر من الكوفة، واجتمعوا في مكة على الأخذ بثأر عثمان(ﷺ). فخرجوا من مكة بمن تابعهم إلى البصرة يريدون قَتَلَة عثمان(ﷺ)؛ وذلك أنهم يرون أنهم قد قصروا في الدفاع عن عثمان(ﷺ). وكان علي(ﷺ) في المدينة، وكان عثمان بن حنيف(ﷺ) واليًا على البصرة من قِبَلْ علي بن أبي طالب(ﷺ).

فلما وصلوا إلى البصرة أرسل إليهم عثمان بن حنيف: ماذا تريدون؟ قالوا: نريد قَتَلَة عثمان(ﷺ). فقال لهم: حتى يأتي علي(ﷺ)، ومنعهم من الدخول.

ثم خرج إليهم جبلة، وهو أحد الذين شاركوا في قتل عثمان(ﷺ) فقاتلهم في سبعمائة رجل فانتصروا عليه، وقتلوا كثيرًا ممن كان معه، وانضم كثير من أهل البصرة إلى جيش طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم أجمعين.

خرج على(ﷺ) من المدينة إلى الكوفة، وذلك لما سمع أنه وقع هناك قتال بين عثمان بن حنيف، وهو والي علي(ﷺ) على البصرة، وبين طلحة والزبير وعائشة ومن معهم، فخرج علي(ﷺ) وجهز جيشًا قوامه عشرة آلاف لمقاتلة طلحة والزبير رضي الله عنهم.

وهنا يظهر لنا جليًا أن علي بن أبي طالب(ﷺ) هو الذي خرج إليهم ولم يخرجوا عليه، ولم يقصدوا قتاله كما تدعي بعض الطوائف ومن تأثر بهم، ولو كانوا يريدون الخروج على علي(ﷺ) لذهبوا إلى المدينة مباشرة وليس إلى البصرة. فطلحة، والزبير، وعائشة ومن كان معهم لم يحدث قط أنهم أبطلوا خلافة علي(ﷺ)، ولا طعنوا عليه، ولا ذكروا فيه جرحًا، ولا بايعوا غيره، ولا خرجوا لقتاله إلى البصرة؛ فإنه لم يكن بالبصرة يومئذ. ولذلك قال الأحنف بن قيس: لقيت طلحة والزبير بعد حصر عثمان(ﷺ)، فقلت: ما تأمراني، فإني أراه مقتولًا؟ قالا: عليك بعلي. قال: ولقيت عائشة بعد قتل عثمان في مكة، فقلت: ما تأمريني؟ قالت: عليك بعلي.

مفاوضات قبيل القتال: أرسل علي(ﷺ) المقداد بن الأسود والقعقاع بن عمرو؛ ليتكلما مع طلحة والزبير، واتفق المقداد والقعقاع من جهة وطلحة والزبير من جهة أخرى على عدم القتال، وبين كل فريق وجهة نظره. فطلحة، والزبير يريان أنه لا يجوز ترك قتلة عثمان، وعلي(ﷺ) يرى أنه ليس من المصلحة تتبع قتلة عثمان الآن، بل حتى تستتب الأمور. فقتل قَتَلة عثمان(ﷺ) متفق عليه، والاختلاف إنما هو في متى يكون ذلك؟

وبعد الاتفاق نام الجيشان بخير ليلة، وبات السبئية –وهم قتلة عثمان– بشر ليلة؛ لأنه تم الإتفاق عليهم. وهذا ما ذكره المؤرخون الذين أرخوا لهذه المعركة.

عند ذلك أجمع السبئيون رأيهم على ألا يتم هذا الإتفاق، وفي السحر والقوم نائمون، هاجم مجموعة من السبئيين جيش طلحة والزبير وقتلوا بعض أفراد الجيش وفروا، فظن جيش طلحة أن جيش علي(ﷺ) غدر بهم، فناوشوا جيش علي(ﷺ) في الصباح، فظن جيش علي(ﷺ) أن جيش طلحة والزبير قد غدر، فاستمرت المناوشات بين الفريقين حتى كانت الظهيرة، فاشتعلت المعركة.

محاولات وقف القتال: وقد حاول الكبار من الجيشين وقف القتال، ولكن لم يفلحوا، فكان طلحة يقول: يا أيها الناس، أتنصتون؟ فأصبحوا لا ينصتونه، فقال: أف أف فراش نار، وذبان طمع.

وعلي(رضي الله عنه) يمنعهم ولا يردون عليه، وأرسلت عائشة كعب بن سور بالمصحف لوقف المعركة، فرشقه السبئيون بالنبال حتى أردوه قتيلًا. وذلك أن الحرب والعياذ بالله إذا اشتعلت لا يستطيع أحد أن يوقفها.

وقعة الجمل كانت في سنة ست وثلاثين من الهجرة؛ أي : في بداية خلافة علي(رضي الله عنه)، بدأت بعد الظهر وانتهت قبيل مغيب الشمس من اليوم نفسه. كان مع علي(رضي الله عنه) عشرة آلاف، وأهل الجمل كان عددهم ما بين الخمسة والستة آلاف. وراية علي(رضي الله عنه) كانت مع محمد بن علي بن أبي طالب، وراية أهل الجمل مع عبدالله بن الزبير(رضي الله عنه).

مقتل طلحة والزبير: قتل طلحة والزبير ومحمد بن طلحة؛ أما الزبير فلم يشارك في هذه المعركة ولا طلحة وذلك أنه يروى أن الزبير(رضي الله عنه) لما جاء إلى المعركة لقى علي بن أبي طالب(رضي الله عنه)، فقال له علي(رضي الله عنه): أتذكر أن الرسول(صلى الله عليه وسلم) قال: "تقاتل عليا وأنت ظالم"، فرجع الزبير في ذلك اليوم ولم يقاتل.

فالصحيح أنه لم يقاتل، ولكن هل وقع هذا بينه وبين علي(رضي الله عنه)؟ الله أعلم؛ لأنه ليس للرواية سند قوي، ولكن هي المشهورة في كتب التاريخ. والمشهور أكثر أن الزبير لم يشارك في هذه المعركة، وقتل الزبير غدرًا على يد رجل، يقال له: ابن جرموز.

وقتل طلحة بسهم غير مقصود، والمشهور أن الذي رماه مروان بن الحكم أصابه في قدمه مكان إصابة قديمة فمات منها(رضي الله عنه)، وهو يحاول منع الناس من القتال، ولما انتهت هذه المعركة وقتل الكثير خاصة في الدفاع عن جمل عائشة رضي الله عنها، لأنها كانت تمثل رمزًا لهم، فكانوا يستبسلون في الدفاع عنها. ولذلك بمجرد أن سقط الجمل هدأت المعركة وانتهت، وانتصر علي بن أبي طالب(رضي الله عنه)، وإن كان الصحيح أنه لم ينتصر أحد، ولكن خسر الإسلام وخسر المسلمون في تلك المعركة.

بعد المعركة: لما انتهت المعركة صار علي(رضي الله عنه) يمر بين القتلى فوجد طلحة بن عبيد الله، فقال -بعد أن أجلسه ومسح التراب عن وجهه: عزيز عليّ أن أراك مجندلًا تحت نجوم السماء أبا محمد. وبكى علي(رضي الله عنه)، وقال: "وددت أني مت قبل هذا بعشرين سنة".

وكذلك رأى علي(رضي الله عنه) محمد بن طلحة فبكي، وكان محمد بن طلحة(رضي الله عنه) يلقب بـ"السجاد" من كثرة عبادته. وكل الصحابة بلا استثناء الذين شاركوا في هذه المعركة ندموا على ما وقع.

وابن جرموز هذا دخل على علي(ﷺ) ومعه سيف الزبير، يقول: قتلت الزبير، قتلت الزبير، فلما سمعه علي(ﷺ)، قال: إن هذا السيف طالما فرج الكرب عن رسول الله(ﷺ)، ثم قال: بشر قاتل ابن صفية بالنار. ولم يأذن له بالدخول عليه.

ولما انتهت المعركة، أخذ علي(ﷺ) أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وأرسلها معززة مكرمة إلى مدينة الرسول(ﷺ)، كما أمره(ﷺ)، فعن علي(ﷺ) قال: قال رسول الله(ﷺ): "سيكون بينك وبين عائشة أمر" قال علي(ﷺ): فأنا أشقاهم يا رسول الله، قال: "لا، ولكن إذا كان ذلك، فأرددها إلى مأمنها"، ففعل(ﷺ) ما أمر به رسول الله(ﷺ).

لماذا لم يقتل علي(ﷺ) قتلة عثمان(ﷺ)؟ علي(ﷺ) كان ينظر نظر مصلحة ومفسدة، فرأى أن المصلحة تقتضي تأخير القصاص لا تركه، فأخر القصاص من أجل هذا، كما فعل النبي(ﷺ) في حادثة الإفك، وذلك أنه تكلم في عائشة رضي الله عنها بعض الناس. ومن أشهر من تكلم في عائشة: حسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، ومسطح بن أثاثة، وكان الذي تولي كبره عبد الله بن أبي بن سلول، فصعد النبي(ﷺ) المنبر، وقال: "من يعذرني في رجل وصل أذاه إلى أهلي"– يعني: عبدالله بن أبي بن سلول– فقام سعد بن معاذ، وقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله. إن كان منا معشر الأوس قتلناه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا بقتله. فقام سعد بن عبادة فرد على سعد بن معاذ، وقام أسيد بن حضير فرد على سعد بن عبادة، فصار النبي(ﷺ) يخفضهم. وعلم أن الأمر عظيم، وذلك أنه قبل مجيء النبي(ﷺ) إلى المدينة كان الأوس والخزرج قد اتفقوا على أن يجعلوا عبدالله بن أُبي بن سلول ملكًا عليهم، فله عندهم منزلة عظيمة، وهو الذي رجع بثلث الجيش في معركة أحد، والنبي هنا ترك جلد عبدالله بن أبي بن سلول، لماذا؟ للمصلحة؛ إذ رأى أن جلده أعظم مفسده من تركه.

وكذلك علي(ﷺ) رأى أن تأخير القصاص أقل مفسدة من تعجيله؛ لأن عليا(ﷺ) لا يستطيع أن يقتل قتلة عثمان أصلًا؛ لأنهم غير معروفين بأعيانهم، وإن كان هناك رؤوس للفتنة ولهم قبائل تدافع عنهم، والأمن غير مستتب، ومازالت الفتنة قائمة، ومن يقول إنهم لن يقتلوا عليًا(ﷺ)؟ وقد قتلوه بعد ذلك.

ولذلك لما وصلت الخلافة إلى معاوية لم يقتل قتلة عثمان أيضا، لماذا؟ لأنه صار يرى ما كان يراه علي(ﷺ)؛ كان علي(ﷺ) يراه واقعًا، ومعاوية كان يراه نظريًا، فلما آلت الخلافة إليه رآه واقعًا. نعم، معاوية أرسل من قتل بعضهم، ولكن بقي آخرون إلى زمن الحجاج في خلافة عبدالملك بن مروان حتى قتل آخرهم. المهم أن عليا(ﷺ) ما كان يستطيع أن يقتلهم، ليس عجزًا، ولكن خوفًا على الأمة.

معركة صفين سنة(٣٧هـ): كان معاوية قد امتنع عن المبايعة لعلي(ﷺ) حتى يتم القصاص لعثمان(ﷺ)، فلما انتهي علي(ﷺ) من أهل الجمل، قال: لابد أن يبايع معاوية(ﷺ) الآن، وجهز الجيش لمقاتلة معاوية(ﷺ) أو يبايع، فخرج علي(ﷺ) بجيش قوامه مائة ألف إلى صفين في الشام، فلما سمع معاوية(ﷺ) بخروج علي(ﷺ) إلى قتاله صعد المنبر، وقال: إن عليًا(ﷺ) نهد إليكم في أهل العراق، فما الرأي؟ فضرب الناس بأذقانهم على صدورهم (أي نزلوا رؤسهم لم يرفع أحد طرفه)، فقام ذو الكلاع الحميري، فقال: عليك الرأي وعلينا الفعال، والناس سكوت. وصعد علي(ﷺ) المنبر، فقال بعد أن حمد الله وأثني عليه: إن معاوية(ﷺ) قد نهد إليكم في أهل الشام، فما الرأي؟ فأضب أهل المسجد (أي ارتفعت أصواتهم)، يقولون: يا أمير المؤمنين الرأي كذا.. الرأي كذا. فلم يفهم علي(ﷺ) كلامهم من كثرة من الكلام، وكثر اللغط، فنزل وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

فذاك حال أهل الشام وهذا حال أهل العراق؛ فأهل الشام كانوا أهل طاعة وأهل جلد، وأهل العراق كانوا أهل فوضي، كما سيأتي، وهم الذين –بعد ذلك– قاتلوا عليًا(ﷺ) وقتلوه.

وصل علي(ﷺ) إلى صفين سنة سبع وثلاثين من الهجرة، وذلك في صفر، وكان قتال علي(ﷺ) في صفين والجمل عن رأي رآه واجتهاد تبناه.

فقد أخرج أبو داود في سننه عن قيس بن عباد، قال: قلت لعلي ﷺ: أخبرنا عن مسيرك هذا، أعهد عهده إليك رسول الله ﷺ أم رأي رأيته؟ قال: ما عهد إلى رسول الله شيئًا، ولكنه رأي رأيته.

هل نازع معاوية(ﷺ) علي(ﷺ) الخلافة؟ عن أبي مسلم الخولاني أنه دخل على معاوية(ﷺ)، فقال له: أنت تنازع عليًا، أأنت مثله؟ فقال معاوية(ﷺ): لا والله، إني لأعلم أن عليًا(ﷺ) أفضل وأحق بالأمر، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان(ﷺ) قتل مظلوماً؟ وأنا ابن عمه، وأنا أطلب بدمه، فأتوا عليا(ﷺ) فقولوا له فليدفع إلى قتلة عثمان(ﷺ) وأسلم له الأمور، فأتوا عليا(ﷺ) فكلموه فأبى عليهم ولم يدفع القتلة.

فمعاوية لم يقل إنه خليفة، ولم ينازع عليا(ﷺ) الخلافة قط؛ ولذلك لما تنازعا كما سيأتي وصار التحكيم، وكتب هذا ما عاهد عليه علي أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان قال: لا تكتب أمير المؤمنين، لو بايعتك على أنك أمير المؤمنين ما قاتلتك، ولكن اسمك واسمي فقط، ثم التفت إلى الكاتب، وقال: اكتب اسمه قبل اسمي لفضله وسابقته في الإسلام.

ولم يكن القتال بين علي(ﷺ) ومعاوية(ﷺ) قتالاً بين خليفة وخليفة قط، ولكن القتال سببه أن عليا(ﷺ) يريد أن يعزل معاوية(ﷺ)، ومعاوية(ﷺ) رافض للعزل حتى يقتل قتلة ابن عمه أو يسلمون إليه فلم يكن الموضوع الخلافة كما يشاع.

وكان عدد جيش علي(ﷺ) مائة ألف، وكان عدد جيش معاوية(ﷺ) سبعين ألفاً، وقتل عمار بن ياسر(ﷺ) وكان في جيش علي(ﷺ)، وكان النبي(ﷺ) قد قال لعمار(ﷺ): "يا عمار، ستقتلك الفئة الباغية".

قيل للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: حديث "تقتلك الفئة الباغية"؟ قال: لا أتكلم فيه تركه أسلم، كما قال رسول الله(ﷺ): قتلته الفئة الباغية، وسكت.

مع من كان الحق؟ ذهب جمهور أهل السنة إلى تصويب من قاتل مع علي(ﷺ)، وقد ثبت أن من قاتل عليًا(ﷺ) كانوا بغاة، ومع هذا التصويب فهم متفقون على أنه لا يذم واحد من هؤلاء، بل يقولون: اجتهدوا فأخطئوا". وقال: "اتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع منهم ولو عرف المحق منهم؛ لأنهم لم يقاتلوا إلا عن اجتهاد".

وقال الطبري في تقوية مذهب من ناصر عليًا(ﷺ): "لو كان الواجب في كل اختلاف يقع بين المسلمين الهروب منه بلزوم المنازل، لما أقيم حد ولا أبطل باطل، ولوجد أهل الفسوق سبيلًا إلى ارتكاب المحرمات".

قلت: هذا كلام صحيح إذا تبين الأمر، ولكن إذا كانت الأمور مشتبهة لزم الابتعاد، فلذلك تخلف الكثير عن المشاركة في هذه المعركة.

إذن؛ فالذي يجب أن نعتقده أن طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم ومن معهم، وكذلك علي(ﷺ) ومن معه– إنما قاتلوا عن اجتهاد، والأمر كان فتنة، ومعركة الجمل بالذات لم تكن عن استعداد لقتال، ولم يكونوا يريدون القتال، ونقل ابن حزم عن الجمهور الامتناع عن الكلام في هذه المسألة.

فإن قال قائل: إن عليًا بدأهم القتال؟ قيل له: وهم أولًا امتنعوا عن طاعته، ومبايعته، وجعلوه ظالما مشاركًا في دم عثمان(ﷺ)، وقبلوا عليه شهادة الزور.

قلت: أشيع عند أهل الشام أن عليًا(ﷺ) رَضِيَ بقتل عثمان(ﷺ). وراجت هذه الإشاعة عند أهل الشام لأربعة أمور: الأول: عدم قتل قتلة عثمان. الثاني: معركة الجمل. الثالث: ترك المدينة

والسكن بالكوفة، والكوفة هي معقل قتلة عثمان(ﷺ). الرابع: أن في جيش علي(ﷺ) من هو متهم بقتل عثمان(ﷺ).

لهذه الأمور الأربعة وقع الشك عند أهل الشام (عند الجهلة منهم) أن لعلي(ﷺ) يدا في قتل عثمان(ﷺ)، وليس لعلي(ﷺ) يد، بل كان يلعن قتلة عثمان(ﷺ). فإن قيل: هذا وحده لم يبح له قتالهم، قيل: إنه ما كان يجوز لهم أن يقاتلوا عليا(ﷺ) لكونه عاجزًا عن قتل قتلة عثمان(ﷺ)، بل لو كان قادرًا على قتل قتلة عثمان(ﷺ) وتركه إما متأولًا أو مذنبًا، لم يكن ذلك موجبًا لتفريق الجماعة والامتناع عن بيعته، بل كانت مبايعته على كل حال أصلح في الدين وأنفع للمسلمين.

مَنْ مِنَ الصحابة شهد تلك المعارك؟ الصحابة الذين شهدوا "الجمل" أو "صفين"، هم: علي، الزبير، طلحة، عائشة، ابن الزبير، الحسن، الحسين، عمار، ابن عباس، معاوية، عمرو بن العاص، قيس بن سعد، القعقاع بن عمرو، جرير بن عبدالله، خزيمة بن ثابت، أبو قتادة، أبو الهيثم بن التيهان، سهل بن سعد، جابر بن عبدالله، عبدالله بن جعفر، عدي بن حاتم، الأشعث بن قيس، جارية بن قدامة، فضالة بن عبيد، النعمان بن بشير رضي الله عنهم.

والذين امتنعوا ولم يشاركوا، هم: سعد بن أبي وقاص، سعيد بن زيد، عبدالله بن عمر، محمد بن مسلمة، أسامة بن زيد، أبو هريرة، زيد بن ثابت، عمران بن حصين، أنس بن مالك، أبو بكرة الثقفي، الأحنف بن قيس، أبو أيوب الأنصاري، أبو موسي الأشعري، أبو مسعود الأنصاري، الوليد بن عقبة، سعيد بن العاص، عبدالله بن عامر، عبدالله بن عمرو بن العاص، أبو برزة الأسلمي، أهبان بن صيفي، سلمة بن الأكوع، بل جل الصحابة رضي الله عنهم.

قصة التحكيم: انتهت معركة صفين بالتحكيم؛ أي: توقفوا عن القتال بأن رفعت المصاحف على الرماح، ورضي علي(ﷺ) بالتحكيم، ورجع إلى الكوفة ورجع معاوية(ﷺ) إلى الشام على أن يكون التحكيم في رمضان، وأرسل علي(ﷺ) أبا موسي الأشعري(ﷺ)، وأرسل معاوية(ﷺ) عمرو بن العاص(ﷺ).

وقصة التحكيم المشهورة، هي: أن عمرو بن العاص اتفق مع أبي موسي الأشعري على عزل علي ومعاوية، فصعد أبو موسي الأشعري المنبر، وقال: أنا أنزع عليًا من الخلافة كما أنزع خاتمي هذا، ثم نزع خاتمه، وقام عمرو بن العاص وقال: وأنا أنزع عليًا كذلك، كما نزعه أبو موسي وكما أنزع خاتمي هذا، وأثبت معاوية كما أثبت خاتمي هذا. فكثر اللغط، وخرج أبو موسي غاضبًا، ورجع إلى مكة ولم يذهب إلى علي في الكوفة، ورجع عمرو بن العاص إلى الشام.

هذه القصة **مزورة مكذوبة**، بطلها أبو مخنف الذي ذكرناه أكثر من مرة، والقصة الصحيحة كما رواها أهل السُنة هي: أن عمرو بن العاص(ﷺ) ألتقى مع أبي موسي الأشعري(ﷺ)، فقال: ما ترى في هذا الأمر؟ قال أبو موسي(ﷺ): أرى أنه من النفر الذين توفي رسول الله(ﷺ) وهو راض عنهم، فقال عمرو بن العاص(ﷺ): فأين تجعلني أنا ومعاوية؟ قال أبو موسي(ﷺ): إن يستعن بكما ففيكما المعونة، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما. ثم انتهى الأمر على هذا فرجع عمرو بن العاص(ﷺ) إلى معاوية(ﷺ) بهذا الخبر، ورجع أبو موسي(ﷺ) إلى علي(ﷺ) به.

والرواية الأولي لاشك أنها باطلة؛ لثلاثة أمور: أولًا: السند ضعيف؛ فيه أبو مخنف الكذاب. ثانيًا: خليفة المسلمين لا يعزله أبو موسى الأشعري(ﷺ) ولا غيره، إذ لا يُعزل عند أهل السُنة بهذه السهولة.

فكيف يتفق رجلان على عزل أمير المؤمنين، هذا كلام غير صحيح، والذي وقع في التحكيم هو أنهما اتفقا على أن يبقي علي(ﷺ) في الكوفة وهو خليفة المسلمين، وأن يبقي معاوية(ﷺ) في الشام أميرًا عليها، وأن تتوقف الحرب بينهما.

معركة النهروان سنة (٣٨هـ): رجع علي(ﷺ) إلى الكوفة ، فخرج عليه الخوراج وكانوا قد رفضوا التحكيم، وقالوا: لا حكم إلا لله، وبدءوا يشغبون على علي(ﷺ) حتى في المسجد؛ يقومون ويصيحون: لا حكم إلا لله، لا حكم إلا لله، وكان علي(ﷺ) يقول: كلمة حق أريد بها باطل.

ثم بعد ذلك قتلوا الصحابي الجليل عبدالله بن خباب(ﷺ)، وقتلوا زوجته وبقروا بطنها وكانت حاملًا متمة في شهرها، فلما بلغ الأمر عليًا(ﷺ)، أرسل إليهم: من قتله؟ فردوا عليه: كلنا قتلناه، فخرج علي(ﷺ) إليهم بجيش قوامه عشرة آلاف، فقاتَلهم في النهروان.

روى عبدالله بن شداد أنه دخل على عائشة رضي الله عنها، عقب مرجعها من العراق ليالي قتل علي(ﷺ)، فقالت له: يا عبدالله بن شداد، هل أنت صادقي عما أسألك عنه؟ تحدثني عن هؤلاء القوم الذين قتلهم علي؟ قال: وما لي لا أصدقك! قالت: فحدثني عن قصتهم.

قال: فإن عليًا(ﷺ) لما كاتب معاوية(ﷺ) وحكم الحكمان، خرج عليه ثمانية آلاف من قراء الناس، فنزلوا بأرض، يقال لها: "حروراء" من جانب الكوفة، وأنهم عتبوا عليه، وقالوا: انسلخت من قميص ألبسك الله تعالى، واسم سماك الله تعالى به، ثم انطلقت فحَكْمت في دين الله الرجال، ولا حُكم إلا لله تعالى. فلما بلغ عليًا(ﷺ) ما عتبوا عليه وفارقوه عليه، أمر مؤذنًا، فأذن: ألا يدخل

على أمير المؤمنين إلا رجل قد حمل القرآن، فلما امتلأت الدار من قراء الناس، دعا بمصحف فوضعه بين يديه، فجعل يصكه بيده، ويقول: أيها المصحف، حدث الناس! فناداه الناس، فقالوا: يا أمير المؤمنين، ما تسأل عنه؟ إنما هو مداد في ورق! ونحن نتكلم بما رويناه منه! فماذا تريد؟ قال: أصحابكم هؤلاء الذين خرجوا، بيني وبينهم كتاب الله، يقول الله تعالى في كتابه في امرأة ورجل: (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ)[النساء: ٣٥] فأمة محمد أعظم دمًا وحرمة من امرأة ورجل.

ونقموا عليّ أن كاتبت معاوية: "كتب علي بن أبي طالب"، وقد جاءنا سهيل بن عمرو ونحن مع رسول الله(ﷺ) بالحديبية حين صالح قومه قريشًا، فكتب رسول الله(ﷺ): "بسم الله الرحمن الرحيم"، فقال سهيل: لا تكتب "بسم الله الرحمن الرحيم". فقال: كيف نكتب؟ فقال: اكتب "باسمك اللهم"، فقال رسول الله(ﷺ): فاكتب "محمد رسول الله". فقال: لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفك. فكتب: "هذا ما صالح محمد بن عبدالله قريشًا"، يقول الله تعالى في كتابه: (لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا) [الأحزاب: ٢١].

فبعث إليهم علي(رضي الله عنه) عبدالله بن عباس(رضي الله عنه)، فخرجت معه، حتى إذا توسطنا معسكرهم قام ابن الكواء يخطب الناس، فقال: يا حملة القرآن، إن هذا عبدالله بن عباس، فمن لم يكن يعرفه، فأنا أعرفه من كِتابِ الله ما يعرفه به، هذا ممن نزل فيه وفي قومه: (وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ)[الزخرف: ٥٨]. فردوه إلى أصحابه، ولا تواضعوه كتاب الله.

فقام خطباؤهم، فقالوا: والله، لنواضعنه كتاب الله، فإن جاء بحق نعرفه لنتبعنه، وإن جاء بباطل لنبكتنه بباطله، فواضعوا عبدالله الكتاب ثلاثة أيام، فرجع منهم أربعة آلاف كلهم تائب، فيهم ابن الكواء، حتى أدخلهم على علي(رضي الله عنه) الكوفة.

فبعث علي(رضي الله عنه) إلى بقيتهم، فقال: قد كان من أمرنا وأمر الناس ما قد رأيتم، فقفوا حيث شئتم حتى تجتمع أمة محمد(ﷺ)، بيننا وبينكم ألا تسفكوا دما حرمًا أو تقطعوا سبيلًا أو تظلموا ذمة، فإنكم إن فعلتم، فقد نبذنا إليكم الحرب على سواء، إن الله لا يحب الخائنين، فقالت له عائشة: يا ابن شداد، فقد قتلهم، فقال: والله ما بعث إليهم حتى قطعوا السبيل، وسفكوا الدم، واستحلوا أهل

الذمة، فقالت: آلله؟ قال: آلله الذى لا إله إلا هو لقد كان، قالت: فما شيء بلغني عن أهل الذمة يتحدثونه، يقولون: ذو الثّدي وذو الثّدي؟

قال: قد رأيته وقمت مع علي عليه في القتلي، فدعا الناس، فقال: أتعرفون هذا؟ فما أكثر من جاء يقول: قد رأيته في مسجد بني فلان يصلي، ورأيته في مسجد بني فلان يصلي، ولم يأتوا فيه بثبت يعرفه إلا ذلك، قالت: فما قول علي حين قام عليه، كما يزعم أهل العراق؟ قال: سمعته يقول: صدق الله ورسوله، قالت: هل سمعت منه أنه قال غير ذلك؟ قال: اللهم لا، قالت: أجل، صدق الله ورسوله، يرحم الله عليًا، إنه كان من كلامه لا يرى شيئًا يعجبه إلا قال: صدق الله ورسوله، فيذهب أهل العراق يكذبون عليه، ويزيدون الحديث.

وكان عدد الخوارج ألف رجل فقتلهم، ولم يقتل من جيش علي(ﷺ) إلا أربعة أو سبعة في بعض الروايات.

وكان بينهم ذو الثُدية الذي رأه علي(ﷺ)، كان رسول الله(ﷺ) قد أخبر أنه تخرج على فرقة حين اختلاف بين المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق، وذكر في حديث آخر أن فيهم ذا الثدية، فصار عليّ(ﷺ) يبحث عنه في القتلي حتى وجده، فلما وجده سجد لله شكرًا؛ إذ علم أنه على الحق.

القضية الثانية عشر: مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ﷺ) عام٤٠هـ:

حين هدأت الأمور قليلًا بعد معركة النهروان بفترة تقارب السنتين، انتدب ثلاثة من الخوارج، فاجتمعوا بمكة وتعاقدوا ليقتلن علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص رضي الله عنهم.

قالوا: نتقرب إلى الله(ﷻ) بقتل هؤلاء الثلاثة –وذلك ليريحوا العباد منهم كما يزعمون– فقال عبدالرحمن بن ملجم المرادي: أنا لعلي بن أبي طالب، وقال البرك التميمي: أنا لمعاوية، أما عمرو بن بكر التميمي، فقال: أنا لعمرو بن العاص، واتفقوا على أن يكون ذلك بعد سبع عشرة ليلة من رمضان.

وكان عمرو في مصر، ومعاوية في الشام، وعلي في الكوفة، فطعن ابن ملجم عليًا(ﷺ)، وهو خارج لصلاة الفجر بخنجر قد سمه أسبوعًا، وقال علي(ﷺ) لما طعن: إن أنا شفيت فأنا حجيجه، وإن أنا مت فاقتلاه بي (يخاطب الحسن والحسين). فقال ابن ملجم: لا والله، فإني سممته جمعة (يريد سبعة أيام).

فلما استشهد(ﷺ)، جاءوا فقطعوا يدى ابن ملجم وسملوا عينيه وهو ثابت لم يجزع، فلما أرادوا قطع لسانه خاف، قالوا: الآن؟ قال: إني أخشى أن أعيش فترة لا أذكر الله فيها!

سبحان الله! هذا هو الضلال المبين والعياذ بالله(ﷻ)، يستبيح دم ولي من الأولياء، ثم يخشى أن تمر عليه لحظة لا يذكر الله(ﷻ) فيها!

وخرج البرك لمعاوية(ﷺ) في صلاة الفجر فضربه، ولكن أصابه ولم يقتله، وعولج، ولكن ذكر أنها كانت سببًا في قطع نسله.

والذي أراد عمرو بن العاص(ﷺ) خرج إلى الصلاة، وكان عمرو قد أصيب بإسهال، فلم يخرج إلى الصلاة، فقتل الإمام يظنه عمرو بن العاص(ﷺ)، وكان الإمام خارجه بن أبي حبيب، فجاء وضربه فقتله في الصلاة، فأمسكوه، قالوا: ماذا فعلت؟ قال: أرحت الناس من عمرو بن العاص، قالوا: ما قتلت عمرا، وإنما قتلت خارجه. قال: أردت عمرًا، وأراد الله خارجه. فقُتل وقُتل البرك وقُتل عبدالرحمن بن ملجم.

سبب الخلاف بين الصحابة رضي الله عنهم: المشهور: أن طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم، خرجوا للانتقام لعثمان(ﷺ).أما معاوية(ﷺ): فإن عليا(ﷺ) لما أخذ الخلافة عزل بعض الولاة الذين ولاهم عثمان(ﷺ)، وهم: خالد بن سعيد بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان، فلما بلغ العزل معاوية(ﷺ) رفض العزل، وقال: ممن أُعْزَل؟ قالوا: من علي. قال: وأين قتله ابن عمي، أين قَتَلَة عثمان؟ قالوا له: بايع، ثم طالب بقَتَلِة عثمان. قال: لا، بل يسلمني قَتَلِة عثمان، ثم أبايعه.

وذلك أن معاوية(ﷺ) كان يرى أنه على قوة في الشام، وأنه لن يفرط بهذه القوة التي تؤهله للانتقام من قتلة عثمان(ﷺ)، فقال: لا أبايع حتى يُقْتَل قَتَلة عثمان(ﷺ)، وعلي(ﷺ) يقول تبايع، ثم ننظر في قَتَلة عثمان(ﷺ).

فالاختلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما هو في أيهما قبل:

علي(ﷺ) يرى أن الأولى أن يبايع، ثم بعد ذلك ينظر في أمر قَتَلِة عثمان(ﷺ) عندما تهدأ الأمور ويستتب الأمن.

ومعاوية(ﷺ) كان يرى العكس؛ إذ كان يرى أن أول شيء يجب عليهم أن يفعلوه هو قتل قَتَلة عثمان(ﷺ)، بعد ذلك النظر في موضوع الخلافة.

فالخلاف بين علي(ﷺ) ومعاوية(ﷺ) هو خلاف أولويات، وكان رأي طلحة والزبير من رأي معاوية رضي الله عنهم، وهو الإسراع بقتل قَتَلِة عثمان(ﷺ)، مع أن الفرق بين طلحة والزبير من جهة، ومعاوية من جهة أخرى أن طلحة والزبير بايعا، ومعاوية لم يبايع بعد.

موقف الصحابة من تلك المعارك: اختلف الصحابة على ثلاث طوائف:

- الطائفة الأولي: طلحة والزبير وعائشة ومعاوية، ترى هذه الطائفة أنه يجب التعجيل بقتل قَتَلِة عثمان(ﷺ).
- الطائفة الثانية: علي(ﷺ) ومن معه، ترى هذه الطائفة أن أول شيء يجب أن يكون ويحسم هو أمر الخلافة، وتأجيل النظر في موضوع قَتَلة عثمان(ﷺ).
- الطائفة الثالثة: ويمثلها: سعد، وابن عمر، وأبو هريرة، ومحمد بن مسلمة، والأحنف، وأسامة، وأبو بكرة الثقفي رضي الله عنهم، وجُلّ الصحابة، ترى هذه الطائفة اعتزال الجميع.

وسبب هذه الاختلافات: أن الأمور كانت مشتبهة، والوقت كان وقت فتنة؛ ولذلك لم يستطع أحد أن يتدبر ذلك الأمر، ويتبين حقيقته بوضوح.

عن الأحنف بن قيس(ﷺ)، قال: لقيت طلحة والزبير بعد حصر عثمان، فقلت: ما تأمراني، فإني أراه مقتولًا؟ قالا: عليك بعلي. ولقيت عائشة بعد قتل عثمان في مكة، فقلت: ما تأمريني؟ قالت: عليك بعلي.

ولما خرج هؤلاء الصحابة إلى معركة الجمل لقيهم الأحنف، فقال لهم: والله، لا أقاتلكم ومعكم أم المؤمنين، ولا أقاتل رجلًا أمرتموني ببيعته.

وقد مر بنا قول رسول الله(ﷺ) لعلي(ﷺ): "يا علي، إنه سيكون بينك وبين عائشة أمر فارفق بها"، قال علي: فأنا أشقاهم يا رسول الله، فقال رسول الله(ﷺ): "لا، ولكن إذا كان ذلك، فارددها إلى مأمنها".

موقف أهل السُنة من عبد الرحمن بن ملجم، وقَتَلِة عثمان، وقاتل الزبير، وقتلة الحسين، وأمثالهم:

قال الإمام الذهبي: "ابن ملجم عندنا ممن نرجو له النار، ونجوز أن الله يتجاوز عنه، وحكمه هو حكم قاتل عثمان، وقاتل الزبير، وقاتل طلحة، وقاتل سعيد بن جبير، وقاتل عمار، وقاتل خارجه، وقاتل الحسين، فكل هؤلاء نبرأ منهم، ونبغضهم في الله، ونكل أمورهم إلى الله تبارك وتعالي".

أين الحق فيما وقع بين الصحابة؟

قال رسول الله(ﷺ) عن عمار(ﷺ): "تقتله الفئة الباغية". وقال عن الخوارج: "يخرجون على حين اختلاف بين المسلمين، تقتلهم أولي الطائفتين بالحق". فالحديثان صريحان في أن الحق كان أقرب إلى علي(ﷺ). وفي رواية: "أقرب الطائفتين إلى الحق".

فالحديثان ينصان على أن عليا(ﷺ) كان أقرب للحق من مخالفيه في الجمل، وكذلك في صفين، ولكن لم يصب الحق كله؛ لأن الرسولﷺ قال: "الأقرب إلى الحق" "الأولي بالحق"، لا أنه على الحق كله، وليس هذا طعنًا في علي(ﷺ)، ولكن لبيان أن الذين امتنعوا عن المشاركة في الفتنة هم الذين كانوا على الحق كله، فالسلامة لعليﷺ كانت في الإمساك عن القتال؛ ولذلك ندم علي(ﷺ) لما رأي طلحة(ﷺ) قتيلًا، وقال: "ليتني مت قبل عشرين سنة".

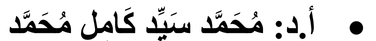
ولما جاء الحسن بن علي(ﷺ) بعد صفين، وكلم عليًا(ﷺ) بالذي حدث قال: "والله ما ظننت أن الأمر يصل إلى ذلك". وندموا كلهم على المشاركة في تلك المعارك.

ولقد أثني النبي(ﷺ) على الحسن(ﷺ)، وقال: "إن ابني هذا سيد، ولعل الله(ﷻ) أن يصلح به بين طائفتين من المسلمين"، فأثني عليه للصلح، ولم يثن على علي(ﷺ)؛ لأنه قاتلهم.

والثناء على علي(ﷺ) كان لقتاله أهل النهروان، فقد أصاب الحق كله في قتاله للخوارج؛ ولذلك لم يحزن أحد على قتلهم، بل فرح المسلمون بقتل أهل النهروان. وعلي(ﷺ) سجد لله شكرًا لما قتل أهل النهروان، ولكنه بكى لما قاتل أهل الجمل، وحزن لما قاتل أهل صفين.

والله الحق العادل من وراء القصد

الْمُؤَرِّخُ فِي سُطُورٍ



- **أ.د: مُحَمَّد سَيِّد كَامِل مُحَمَّد**
- **رَئِيسُ قِسْمِ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ وَالْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.**
- الْمُدِيرُ التَّنْفِيذِيُّ لِوَحْدَةِ الِاعْتِمَادِ وَالْجَوْدَةِ.
- الدَّرَجَةُ الْعِلْمِيَّةُ: أُسْتَاذ دُكْتُور.
- الْجِنْسِيَّةُ: مِصْرِيّ.
- الْجَامِعَةُ: الْمِنْيَا.
- الْكُلِّيَّةُ: دَارُ الْعُلُومِ.
- التَّخَصُّصُ الدَّقِيقُ :التَّارِيخُ الْإِسْلَامِيُّ وَالْحَضَارَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ.
- عُنْوَانُ الْمُرَاسَلَةِ بِمِصْرَ: جُمْهُورِيَّةُ مِصْرَ الْعَرَبِيَّة– مُحَافَظَةُ الْمِنْيَا- جَامِعَةُ الْمِنْيَا - كُلِّيَّةُ دَارِ الْعُلُومِ – قِسْمِ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ وَالْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

Email:dr.mohamed1979@yahoo.com

عُضْوِيَّةُ الْجَمْعِيَّاتِ وَالْمُنَظَّمَاتِ الْعِلْمِيَّةِ

- عُضْوُ اتِّحَادِ الْمُؤَرِّخِينَ الْعَرَبِ بِالْقَاهِرَةِ مُنْذُ ٢/١٠/٢٠٠٣م.
- عُضْوُ الْجَمْعِيَّةِ التَّارِيخِيَّةِ الْمِصْرِيَّةِ بِالْقَاهِرَةِ مُنْذُ ٢٠٠٤م.
- عُضْوُ اتِّحَادِ الْأَثَرِيِّينَ الْعَرَبِ رَقْمُ الْعُضْوِيَّةِ (٢٣١٥) مُنْذُ عَامِ ٢٠١٤م.
- عُضْوُ اتِّحَادِ الْمُؤَرِّخِينَ بِالْعِرَاقِ رَقْمُ الْعُضْوِيَّةِ (٩٣) منذ ٢٥/٣/٢٠١٥م.
- عُضْوُ الْجَمْعِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ لِلْحَضَارَةِ وَالْفُنُونِ الْإِسْلَامِيَّةِ رَقْمُ الْعُضْوِيَّةِ ١٥٣ مُنْذُ ٢٨ /١٠/ ٢٠١٥م.

الْأَبْحَاثُ وَالْمُؤَلَّفَاتُ

- أَلَّفَ أَكْثَرَ مِنْ ٢٠ بَحْثًا عِلْمِيًّا تَارِيخِيًّا.
- أَلَّفَ عَدَدًا مِنَ الْكُتُبِ التَّارِيخِيَّةِ.

خِبْرَاتٌ تَدْرِيسِيَّةٌ وَطُلَّابِيَّةٌ

- التَّدْرِيسُ بِكُلِّيَّةِ دَارِ الْعُلُومِ- جَامِعَةِ الْمِنْيَا – مِصْر.
- الِانْتِدَابُ لِلتَّدْرِيسِ بِكُلِّيَّتَي الْآدَابِ وَالتَّرْبِيَةِ- جَامِعَةِ بَنِي سويف- مِصْر مُنْذُ عَامِ ٢٠١٤م.
- الِانْتِدَابُ إِلَى مَعْهَدِ إِعْدَادِ الْقَادَةِ بِحلْوَان لِلْعَمَلِ كَمَسْئُولٍ لِلنَّشَاطِ الثَّقَافِيِّ بِالْمَعْهَدِ فِي صَيْفِ ٢٠٠٧م.

الْمُؤْتَمَرَاتُ الْعِلْمِيَّةُ

شَارَكَ فِي الْعَدِيدِ مِنَ الْمُؤْتَمَرَاتِ الدَّوْلِيَّةِ وَالْمَحَلِّيَّةِ بِدُوَلِ (جُمْهُورِيَّةُ مِصْرَ الْعَرَبِيَّة، وَالْإِمَارَاتُ الْعَرَبِيَّةُ الْمُتَّحِدَةُ، وَسَلْطَنَةُ عُمَان، وَالْمَمْلَكَةُ الْهَاشِمِيَّةُ الْأُرْدُنِيَّةُ، وَالْمَمْلَكَةُ الْعَرَبِيَّةُ السُّعُودِيَّةُ، وَالْمَغْرِبُ، وَالْعِرَاقُ، وَمَالِيزْيَا.

الْإِشْرَافُ الْعِلْمِيُّ عَلَى الرَّسَائِلِ الْجَامِعِيَّةِ

أَشْرَفَ عَلَى أَكْثَرَ مِنْ ٥٠ رِسَالَةِ دُكْتُورَاه وَمَاجِسْتِير بِجَامِعَاتٍ مِصْرِيَّةٍ عَدِيدَةٍ، مِنْهَا: جَامِعَةُ الْمِنْيَا، وَجَامِعَةُ بَنِي سويف، وَجَامِعَةُ الْفَيُّومِ، وَجَامِعَةُ طَنْطَا، وَجَامِعَةُ بَنْهَا، وَجَامِعَةُ دَمَنْهُور، وَجَامِعَةُ جَنُوبِ الْوَادِي.